الموقف الأدبي



258



الثقافة الجديدة

رئيس التحرير : د . غانم حمدون

المقالات المنشورة تعبر عن رأي أصحابها

258

العددان 8 – 9 السنة 40 ت ٢ / 1993 ــ آذار 1994

فهرست

* أدب وفـن

* متابعات ونقـــد

لوحة الغلاف الأمامي للفنان آزاد شوقي بعنوان « خلكان »
لوحة الغلاف الخلفي للفنان كاظم الداخل

من المحرر

العقوبات الاقتصادية التي تحولت من معاقبة النظام، زعماً انها ستطيح به، الى عقوبة أقسى على جماهير الشعب، هذا الحصار هو قضية الساعة بالنسبة لشعبنا. في كل مكان يتفشى الجوع والحرمان وشحة الدواء، وتتدهور، بشكل مريع، قيمة الدينار. وتستثمر الطغمة الحاكمة هذه المأساة لزيادة ثرائها الفاحش على حساب معاناة الناس وكرامتهم، فيما تتواصل سياسة التدمير والقمع الدموي.

هذا الموضوع لم يغب عن «الثقافة الجديدة». وفي عددها الحالي أيضاً تعبر عن هذا الاهتمام فتنشر دارسة الباحث الاقتصادي د. عباس النصراوي التي يكشف فيها عن الآثار المدمرة للعقوبات على الاقتصاد العراقي والآفاق المعتمة للتنمية. وفي الاطار ذاته تنشر المجلة ملخصاً ضافياً عن ندوة حول الحصار الاقتصادي عقدت بلندن في كانون الأول الماضي وساهم فيها عدد من الساسة والباحثين الذين تنوعت آراؤهم حول شعار رفع الحصار.

وعشية الذكرى الستين لتأسيس الحزب الشيوعي العراقي أجرت المجلة حواراً ضافياً

مع الرفيق حميد مجيد موسى سكرتير اللجنة المركزية للحزب تناول فيه أزمة الحزب، المؤتمر الخامس، الانتفاضة، والتحالفات، مقدماً اضاءات حول العديد من القضايا العقدية التي تواجه الحزب.

واحتفاءاً بهذه الذكرى تنشر المجلة في باب «وثائق» بيان الحزب بمناسبة الذكرى الستين لتأسيسه.

وفي الذكرى الثالثة لانتفاضة آذار ١٩٩١ يعود الباحث فالح عبد الجبار، بنظرة جديدة، الى تناول الانتفاضة ودروسها، محللاً هذه الظاهرة من خلال تقييمه لطبيعة الدولة العراقية واشكالات النزعة الوطنية.

واحتفاءاً بهذه الذكرى نتذكر، في هذا العدد أيضاً، أبطال هذه الانتفاضة وضحاياها الرازحين في مخيم رفحاء ومخيمات أخرى، متطلعين الى أن ترتفع من أجلهم أصوات التضامن، وأن تتحرك المعارضة العراقية تحركاً جاداً لانقاذهم من حصار الصحراء، والحصار الثقافي الذي تفتح له نافذة صغيرة أخرى يطل منها بعض مبدعي رفحاء على قراء مجلتنا بنصوص جديدة نعد بمواصلتها في أعداد لاحقة.

ويقدم هذا العدد بعضاً من النقاشات التي أثارها «بيان المثقف الجديد» الذي كتبه الفنان - الباحث محمود صبري وأثار فيه اشكاليات ودور المثقف والثقافة في الظرف الراهن، نبدأ بملاحظات الباحث فالح عبد الجبار حول نداء الفنان محمود صبري الذي ردّ على هذه الملاحظات بملاحظات أخرى تنضاف اليها مساهمة الشاعر عواد ناصر ليغتني النقاش حول واحدة من أهم اشكالات الثقافة والفكر.

ونأمل ان يتواصل هذا النقاش في الاعداد القادمة توطيداً لنهج الحوار والانفتاح الذي تريده المجلة، لتسهم في البحث عن الحقيقة وفي غرس الثقافة الديمقراطية.

تبرعاتكم لمجلتنا تساعد على وصولها إلى القراء في الوطن بعُشر كلفتها فقط .

الاقتصاد العراقي والعقوبات الدولية

د. عباس النصراوي

فيما يلي ترجمة القسم الأخير (من صفحة ٢٤ ـ ٥٠) من بحث بعنوان العقوبات الاقتصادية: النظرية، الفاعلية والتطبيق على العراق. والمؤلف استاذ للاقتصاد في جامعة فيرمونت بالولايات المتحدة.

من ظواهر القرن العشرين فرض العقوبات الاقتصادية كأداة جماعية لارغام دولة ما على تغيير سياستها. فقبل الحرب العالمية الثانية فرضت العقوبات لأول مرة على ايطاليا بقرار من عصبة الأمم عقب اجتياح الحبشة في تشرين الأول عام ١٩٣٥. ورغم ان ايطاليا عانت بعض الخسائر الاقتصادية بفعل العقوبات الا انها لم ترغمها على الجلاء عن الحبشة. وبحلول تموز ١٩٣٦ اقترحت لجنة العقوبات في عصبة الأمم رفع العقوبات(١٤).

وبعد قيام الأمم المتحدة، فرض مجلس الأمن عقوبات اقتصادية على ثلاث دول هي روديسيا وجنوب افريقيا والعراق. ففي ١٩٦٦ فرض المجلس عقوبات شاملة على روديسيا جراء قيام حكومة ايان سميث باعلان الاستقلال عن بريطانيا من طرف واحد. ورغم تشديد العقوبات تدريجياً، على مدى ١٣ سنة، فانها اخفقت الى حد كبير. وفي الحالة الثانية فرض حظر تصدير السلاح الى جنوب افريقيا بسبب سياسة التمييز العنصري وانتهاك حقوق الانسان(١٥). أما الحالة الثالثة فتخص العراق، وهي ما سنعالجه في بقية هذه الدراسة. وقبل تناول تأثير العقوبات على الاقتصاد (العراقي) من المفيد تلخيص بعض ابرز الظروف التي آل اليها قبيل اتخاذ القرار بغزو الكويت.

مشاكل الاقتصاد العراقي قبل غزو الكويت

لفهم اوضاع الاقتصاد العراقي قبل غزو الكويت في ٢ آب ١٩٩٠ ينبغي العودة الى ايلول ١٩٨٠ حين قررت الحكومة شن الحرب على ايران. وبصرف النظر عن اسباب ودوافع واغراض ذلك القرار، كانت عواقب الحرب كارثية للبلدين معاً. من حيث الخسائر البشرية والخراب الاقتصادي. ومردّ الكارثة ان الحرب امتدت ثمانية اعوام خلافاً لتصور الحكومة العراقية انها ستحرز النصر في حرب خاطفة وجيزة.

اندلعت الحرب وتصدير النفط العراقي قد بلغ الذروة (٣,٣ مليون برميل يومياً). وكان المتوقع ان تبلغ عوائد النفط ما بين ٣٥ و٤٠ مليار دولار عامذاك. لكن تدمير منشآت تصدير النفط على الخليج أدى الى تقليص بسنبة ٧٢٪ في ما تبقى من العام. ورغم هذا الهبوط الحاد الا ان عوائد العراق من تصدير النفط لذلك العام قد بلغت ٢٦,٣ مليار دولار، وهو اعلى رقم في تاريخه. زد على ذلك، ان كافة المؤشرات الاقتصادية (الناتج المحلي الاجمالي، متوسط دخل الفرد، الانفاق التنموي، الانتاج الصناعي، البناء والتشييد، النقل والمواصلات، تكوين رأس المال الثابت، الاستهلاك الفردي، والخ) كانت تسجل معدلات عالية من النمو. غير ان الزراعة كانت نقطة ضعف الاقتصاد العراقي، الا ان استيراد الاغذية غطى هذا الضعف. وبفضل ميزان المدفوعات الايجابي تراكم لدى العراق ما بين ٣٠ ـ ٣٥ مليار دولار من احتياطي النقد الاجنبي عشية الحرب.

أدت الحرب الى هبوط عوائد تصدير النفط الى ٤ . ١٠ مليار دولار عام ١٩٨١. زد على ذلك ان تكاليف الاستيراد ارتفعت بعد تدمير، أو محاصرة، منشآت التفريغ العراقية على الخليج واللجوء الى الاستيراد عبر الأردن وتركيا. ولكن الحكومة استطاعت المحافظة على مستوى الانفاق المدني، مع توسيع الانفاق العسكري، وذلك بفضل الاحتياطي المتراكم، وقروض المصدرين، والقروض طويلة الاجل، والدعم المالي الكبير من الكويت والعربية السعودية. يتجلى ذلك في الارتفاع الحاد لقيمة الاستيراد من ٤,٢ الى ٢١,٦ مليار دولار بين عامي ١٩٧٨ ـ ١٩٨٢. وفيما كانت حصة الاستيراد المدني ٦٢٪ فانها ارتفعت الى ٨٠٪ من المجموع خلال الفترة نفسها(١٦). ولما كانت الدولة تحتكر التجارة الخارجية فان زيادة الاستيراد تعبّر عن قرار سياسي استهدفت الحكومة منه تخفيف عواقب الحرب على مستوى المعيشة، وذلك بتوفير سلع الاستهلاك بكميات كبيرة (١٧).

لكن القدرة على مواصلة هذه السياسة ما لبثت ان تلاشت في اواخر ١٩٨٢ حين تراجعت جبهة القتال الى الاراضي العراقية. فتغيّر مسار الحرب وميزانها مقترناً بالهبوط الحاد في عوائد النفط اضطرا الحكومة على اللجوء الى تقليص الانفاق والى التقشف،

وتعطيل مشاريع التنمية باستثناء المشاريع ذات العلاقة بالمجهود الحربي. وفوق كل ذلك، تضاعفت مشاكل العراق الاقتصادية جراء تخمة اسواق النفط العالمية خلال الثمانينات وميل اسعاره الى الهبوط.

وكان وزير النفط السعودي آنذاك، احمد زكي اليماني، قد صرح ان تلك التخمة تتعمدها حكومته للحيلولة دون ارتفاع اسعار النفط (١٨). وهي سياسة انتقدها رئيس العراق لانها تلحق الضرر به وبسواه من البلدان المنتجة للنفط. أما وزير النفط العراقي فاتهم سياسة الاتخام السعودية بانها ترمي الى اطالة امد الحرب العراقية ـ الايرانية.

وقد تبين، فيما بعد، ان لا السعودية ولا الاوبيك برمتها كانت قادرة على الحيلولة دون هبوط صادرات النفط، لان هبوط الطلب على النفط وسعره انما نشأ عن نجاح الدول الصناعية في اجراءات الاقتصاد بالطاقة واستخدام بدائل النفط. يكفي القول ان صادرات دول الاوبيك من النفط قد هبطت الى ١٣,٣ مليون برميل يومياً بعد ان بلغت ذروتها ٢٨,٩ مليون برميل عام ١٩٧٩. وقد انهار سعر برميل النفط في احد ايام ١٩٨٦ الى ٧ دولارات بعد ان كان ٣٤ دولاراً عام ١٩٨٢ (٢١).

وخلال هذه التقلبات العاصفة في اسواق النفط كان العراق عاجزاً عن القيام بشيء. وبحلول عام ١٩٨٦ هبطت عوائد صادراته النفطية الى ٦,٩ مليار دولار. وبذلك زاد ارتهان وجود النظام العراقي نفسه بالقروض المقدمة من بلدان الغرب والشرق، ولا سيما من بلدان الخليج (٢٢).

تدهور الوضع الاقتصادي في العراق

كانت السبعينات، خاصة نصفها الثاني، قد شهدت معدلات لا سابق لها في النمو الاقتصادي. ولكن الحكومة عجزت عن معالجة المشاكل البنيوية الفاعلة تحت هذه الصورة المزدهرة. ومن هذه المشاكل ركود الزراعة، تزايد سكان المدن، استمرار التضخم، اشتداد الاعتماد على السلع الاستهلاكية المستوردة، لا سيما المواد الغذائية، وتفاقم الاعتماد على النفط. لكن النظام العراقي، شأن حكومات بلدان أخرى منتجة للنفط، لم يستطع ادراك ان النفط هو، في نهاية المطاف، سلعة لا يمكن للطلب عليها ان يظل غير مرن، في الامد الطويل. وانطوى على عواقب كارثية عدم ادراك هذه الحقيقة البسيطة، وهي ان الطلب على النفط ينخفض فعلاً اذا ظلت اسعاره عالية.

وفي حالة العراق، خُيّل للنظام، الذي اعماه ارتفاع عوائد النفط خلال السبعينات، ان ذلك الارتفاع لا يمكن ان يتوقف. فحتى لو ان طاقات تصدير النفط لم تتعرض الى ذلك

التقلص الحاد اثناء الحرب مع ايران، فان عوائده لا بد ان تهبط هبوطاً شديداً جراء هبوط الطلب على النفط واسعاره، كما اسلفنا. فالمشكلة هنا ان عوائد النفط العراقي تتحدد، في التحليل الاخير، بالعوامل الخارجية التي لا تخضع لسياسة الدولة.

وعليه فان امتداد الحرب اطول مما توقع النظام العراقي لم يبق له خياراً الا تغيير سياساته الاقتصادية تبعاً للعواقب المدمرة خلال اول سنتين من الحرب. وتجلت هذه العواقب في التردي العام للاقتصاد، واستنفاذ احتياطي العملة الاجنبية، والهبوط العام للانتاج، وارتفاع معدلات التضخم، وتوسيع القوات المسلحة وانخفاض الناتج الزراعي والصناعي، وتغيير مسار التجارة الخارجية، ونقص اليد العاملة، وتقليص الانفاق الاستثماري، واشتداد التبعية الغذائية، وتخفيض حجم الاستيراد، وارتفاع المديونية للخارج، وزيادة الانفاق العسكري مع حصر الانفاق التنموي بالمجهود الحربي.

ومن العواقب الهامة للحرب اهدارها لموارد العراق المالية. حسبنا القول ان نفقاته العسكرية ارتفعت من ٣,١ الى ١٩,٨ مليار دولار بين عامي ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠ ثم ارتفعت الى ٢٥,٩ مليار دولار عام ١٩٨٤ لتهبط تدريجياً الى ١٢,٩ مليار في ١٩٨٨. وهكذا امتصّت النفقات العسكرية من الناتج الاجمالي في السنوات المذكورة ٢٢,٥٪ و٣٨,٨٪، و٥٤,٤٪، و٢٠٪ على التوالي. وكانت النفقات العسكرية تمثل ٣٧,٩٪، و٧٥٪، و٢٧٦٪، و١١٧٪ من عوائد النفط في السنوات نفسها. وجدير بالاشارة ان النفقات العسكرية العراقية طيلة الحرب مع ايران (١٩٨٠ ـ ١٩٨٨) قد بلغ مجموعها ١٧٨ مليار دولار، اي ١٧١٪ من عوائد العراق من النفط و٤١٪ من ناتجه المحلي الاجمالي (٢٣).

فواضح ان طول الحرب، وعواقبها التدميرية وعلى الاقتصاد، وحجم الموارد التي امتصتها، قد هبطت بمستوى المعيشة، وولدت مشاكل بنيوية للاقتصاد. ومن هذه المشاكل التضخم الذي ما زال يعصف بالاقتصاد. وقد اظهرت دراسة اعدت مؤخراً عن حدة التضخم في العراق ان المعدل السنوي للتضخم، محسوباً على اساس مؤشر اسعار المستهلك، قد كان ٥٪ في الستينات واكثر من ٦٪ في اوائل السبعينات، ثم قفز الى ١٨٪ عام ١٩٧٥. وفي ١٩٧٩ بلغ ٦٨٪ بالمقارنة مع مستوى الاسعار عام ١٩٧٣. ونتيجة للزيادة الحادة في الانفاق الحكومي وظروف الحرب، قفز معدل التضخم الى ٩٥٪ عام ١٩٨٠، والى ١٣٩٪ عام ١٩٨١، حتى بلغ ٣٦٩ عام ١٩٨٨ (٢٤).

كلفة الحرب

بالاضافة الى ضخامة الخسائر البشرية المأساوية، ثمة نوعان من الخسائر الاقتصادية:

الخسائر البيّنة التي يمكن حسابها والخسائر الضمنية التي يتعذر حسابها. فالخسائر الضمنية تشمل العلل والوفاة المبكرة، والاعاقة البدنية، والانفاق على المحاربين القدماء، والتضخم، وضياع فرص التنمية، والكلفة البديلة للقوات المسلحة واستيرادات السلاح (أي المداخيل الضائعة جراء تجنيد القوى العاملة والاستيراد العسكري بدل المدني ـ المترجم) وخسارة الدخل الناجم عن التدمير والاضرار وعدم اكمال المشاريع وخسارة عوائد النفط ، وكلفة تحويل مسار التجارة الخارجية، وهبوط الناتج المحلي الاجمالي.

في دراسة شاملة اجراها عن الخسائر الاقتصادية للعراق وايران خلال الحرب، توصل كرمان مفيد الى الاستنتاج ان مجموع خسائرهما بلغ ١٠٩٧ مليار دولار، منها ٦٤٤.٣ مليار تكبدتها ايران و٤٥٢.٦ مليار دولار تكبدها العراق (٢٥).

وجدير بالذكر ان ما تكبده العراق من خسائر يبلغ عدة امثال مجموع عوائد النفط التي جناها العراق من النفط طيلة تاريخه، وهو يزيد على مجموع الناتج المحلي الاجمالي للفترة بين ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨ برمتها.

كثرة في المشاكل وقلة في الموارد

عند تنفيذ وقف القتال في ٢٠ آب ١٩٨٨ وجد العراق نفسه امام مشاكل اقتصادية بنيوية عويصة تشمل تقلص طاقات تصدير النفط، دمار أو تضرر الطاقات الصناعية والبنى التحتية، ركود الزراعة، انحسار القوى العاملة الريفية سواء لتجنيدها في الجيش ام لنزوحها الى المدن، وجود اعداد غفيرة من القوى العاملة المستوردة من الخارج اثناء الحرب لتتحول الى عبء على الاقتصاد بعد انتهاء الحرب، اشتداد الاعتماد على استيراد الاغذية، تفاقم الاعتماد على قطاع النفط، التضخم المفرط، فشل سياسة الخصخصة، الاخفاق في اجتذاب الرأسمال العربي والاجنبي، هبوط مستوى الاستيراد ، وخدمة الديون الاجنبة المتزايدة.

ازاء هذه القائمة من المشاكل ادرك النظام ان وعود الازدهار التي قطعها للشعب حين تنتهي الحرب قد أمست وعوداً جوفاء.

كان على رأس تلك المشاكل القصور الشديد للقطاع النفطي الذي بات يعتمد عليه الاقتصاد برمته. فعام ١٩٨٦، عام انهيار اسعار النفط، هبطت عوائد النفط الى ٦.٩ مليار دولار، ثم ارتفعت الى ١١.٤ مليار دولار، لكنها هبطت في العام التالي الى ١١ مليار دولار لترتفع ثانية عام ١٩٨٨ الى ١٤.٥ مليار دولار اي الى ٥٥٪ فقط من حجمها عام ١٩٨٠ ، في مقابل القصور في هذا المصدر الحيوي للموارد كان على الحكومة

ان تواجه العديد من الاحتياجات الملحة، كزيادة الاستيراد، خدمة الديون الاجنبية، الانفاق على اعادة البناء والتنمية، تمويل الانشطة الحكومية الاعتيادية، ونفقات برنامج التصنيع العسكري الطموح. وفي غضون ذلك كانت الحكومة مطالبة بمكافحة التضخم الذي بلغ معدلات عالية جداً.

والظاهر ان هبوط الناتج المحلي الاجمالي لعام ١٩٨٩ بنسبة ٩٪ بالمقارنة مع العام الذي سبقه، قد فاجأ الحكومة ودفعها الى فرض التقشف في قطاع الدولة. فتقرر خفض الانفاق الحكومي لعام ١٩٩٠ بنسبة ٧٪ قياساً الى مستوى ١٩٨٩. فصدرت الاوامر الى الدوائر بتقليص عدد العاملين فيها الى النصف (٢٦). ويبدو ان هبوط الناتج المحلي الاجمالي ١٩٨٩ قد وجه ضربة الى الحكومة نظراً لارتفاع عوائد النفط ذلك العام بنسبة ٣١.٨٪ عما سبقه.

غير ان اجراءات التقشف لم تكن فعالة، لان ازمة الاقتصاد لم تعد ظاهرة وقتية. وكانت الحاجة الماسة الى زيادة عوائد النفط هي التي قادت النظام الى المواجهة النفطية مع حكومة الكويت، ومن ثم الى غزوها في ٢ آب ١٩٩٠.

(حول وقائع ملابسات هذه المواجهة النفطية وما رافقها من اجراءات راجع بحث المؤلف نفسه في العدد ٢٥٣ من «الثقافة الجديدة» كانون الثاني-شباط ١٩٩٣. وفي بحثه الحالي اضافات هامة لهذا النزاع نترجمها فيما يلي-المترجم).

يجدر بالذكر قبل تناول عواقب غزو الكويت، ان هذا الغزو لا بد قد بدا للنظام العراقي بمثابة الوسيلة الوحيدة لاخراج الاقتصاد من ازمته، فعقب الغزو ربط طارق عزيز، وزير الخارجية العراقي آنذاك، بين الأزمة الاقتصادية في العراق وغزو الكويت بالقول:

«كانت المسألة الاقتصادية عاملاً اساسياً في خلق الوضع الراهن. فبالاضافة الى الديون العربية، وهي اربعون مليار دولار، نحن مدينون بما لا يقل عن ذلك للغرب. فميزانيتنا لهذا العام تحتاج الى سبعة مليارات لخدمة الديون، وكان هذا مبلغاً ضخماً، فلا يتبقى لنا الا ما يكفي للخدمات الاساسية لبلادنا. وميزانيتنا تقوم على اساس ان سعر النفط هو ١٨ دولار للبرميل، لكن منذ شروع الكويت باغراق العالم بالنفط هبط السعر بنسبة الثلث. وعندما التقينا ثانية، بجدة في نهاية تموز، قال الكويتيون انهم غير مهتمين بأي تغيير. وكنا آنئذ بأمس الحاجة، فلم يكن في وسعنا تسديد قوائم استيرادات الغذاء. كانت تلك حرب تجويع. فمتى تستخدم قوتك العسكرية للحفاظ على نفسك؟ (لا يتوفر النص العربي لهذا وغيره من التصريحات والبيانات التي ترد، لذا حرصنا على استعادة المحتوى بقدر المستطاع من الدقة - المترجم).

وفي التصريح التالي لطارق عزيز يمكن الحصول على رؤية هامة لمرامي سياسة النظام

العراقي تجاه الكويت:

«لم يكن الاحتلال في نية الرئيس صدام، لم يفكر به قبل نهاية حزيران. لم يُبحث هذا قط على أي مستوى في الحكومة.. مسألة حقل الرميلة النفطي ومطالبنا الحدودية اصبحت جزءاً من محادثاتنا مع الكويتيين في نهاية حزيران فقط، وكنا حينذاك قد استنتجنا انهم قد انضموا الى مؤامرة من نوع ما لتحطيم نظامنا. واخيراً، في اواسط تموز، قررنا ارسال قوات الى الحدود الكويتية، آملين ان نجعل الكويتيين يغيرون رأيهم»*.

وبعد الحاق الكويت شدد سعدون حمادي نائب رئيس الوزراء لشؤون الاقتصاد حينذاك، على اهمية الموارد الكويتية للاقتصاد العراقي حين قال ان العراق سيتمكن الآن من تسديد ديونه في اقل من خمس سنوات، وان احتياطي النفط في «العراق الجديد»، قد تضاعف، وان حصته من انتاج النفط ضمن اوبك ستكون ٤,٦ مليون بدلاً من ٣,١ مليون برميل في اليوم، وان دخله النفطي سيبلغ ٣٦ مليار دولار سنوياً ليرتفع الى ٦٠ مليار في المستقبل القريب، وسيكون هناك توسع كبير في القطاع الخاص عند اندماج الاقتصادين، وان العراق سيتمكن من زيادة الانفاق زيادة هائلة على مشاريع التنمية والاستيراد (٣٧). غير ان مثل هذه الاحلام تحولت الى رماد، حينما تولى عدد من البلدان بقيادة امريكا احباط ما قام به النظام العراقي في ٢ آب ١٩٩٠.

شمولية العقوبات

ما ان احتلت الكويت حتى تحركت الحكومة الامريكية وحلفاؤها ومجلس الامن لحرمان العراق من منافع هذا الاحتلال وعكس وجهته. وقد وصفت العقوبات التي فرضها مجلس الامن عليه كما يلي: «ان الاجراءات الاقتصادية التي تشتمل عليها عقوبات الأمم المتحدة ضد العراق هي اجراءات كاسحة في مداها وجلية في طابعها الشمولي والمتزامن.

* جدير بالاشارة ان اتهام العراق للكويت باستغلال مصاعبه الاقتصادية للحصول على تنازلات حدودية تؤيده رسالة من المدير العام لدائرة امن الدولة الى وزير الداخلية الكويتي عقب زيارة الاول لوكالة المخابرات المركزية الامريكية CIA وجاء فيها: «اتفقنا مع الجانب الامريكي حول اهمية انتهاز فرصة تدهور الاوضاع الاقتصادية في العراق للضغط على حكومته لتخطيط حدودنا المشتركة. وقد ادلت وكالة المخابرات المركزية برأيها حول السبل المناسبة للضغط، قائلة انه من الواجب القيام بتعاون واسع بيننا شريطة تنسيق مثل هذه النشاطات على مستوى عالٍ». انظر كتاب بنيير سالينغر واريك لـ ريت: الملف السري: البرنامج المخفي لحرب الخليج، لندن ١٩٩١ ص٢٣٩ ـ ص٢٤١.

ولم يسبق ان فرض مجلس الامن على دولة مذنبة عقوبات بهذه الطريقة السريعة والحازمة» (٣٨).

تشمل قرارات مجلس الامن مجموعتين متميزتين من الامور، لكنهما مترابطتان، وتتناول المجموعة الاولى امور الاحتلال وتستهدف انها»، اما المجموعة الثانية فتستهدف وضع الضوابط لمستقبل العراق الاقتصادي والعسكري والسياسي. فالمجموعة الاولى تطالب بسحب العراق لقواته، وتفرض نظاماً صارماً للحظر والحصار التجاري والمالي والسياحي، وتعلن بطلان وألغاء الحاق الكويت، وتسمح بتفتيش السفن في البحار، ثم تخول دولاً باستخدام القوة لانهاء الاحتلال اذا لم ينسحب العراق من الكويت قبل ١٥ كانون الثاني ١٩٩١ (٣٩).

ويمكن النظر الى شمولية العقوبات في ضوء الاسلوب غير المسبوق في تناول استيراد الاغذية. فالاعتقاد السائد ان العقوبات لا تشمل استيراد المواد الغذائية من قبل العراق. ويكمن جذر المشكلة في عدم قدرة العراق على ايجاد الموارد لدفع ثمن واردات الغذاء. ومع ذلك فاننا اذا قرأنا بعناية قرار مجلس الأمن ٦٦١ في ٦ آب ١٩٩٠، سنرى ان المجلس كان ينوي حرمان العراق من استيراد الاغذية الا «في ظروف انسانية».

والواقع ان كلمة «خاصة» قد سبقت «انسانية» في مسودة سابقة للقرار. فجلي ان مجلس الأمن كان ينوي استخدام الجوع والمجاعة كسلاحين احتياطيين لفرض الاذعان على العراق. وقد ايد فريدمان وكراش هذا التفسير باستنتاجهما ان واشنطن عازمة على منع تسريب أي شيء الى العراق (٤٠).

واتضح استخدام الغذاء كسلاح ضمن العقوبات حين حددت الأمم المتحدة في ايلول ١٩٩٠ شروط تنفيذ القرار ٦٦١، فقررت ان أي استثناء للغذاء من الحظر ينبغي مراقبته بدقة من قبل المؤسسات الدولية المختصة لكي تضمن وصول الغذاء الى المقصودين به فقط، مع اعطاء اولوية خاصة لسد حاجات الاطفال (٤١).

ورغم التقييد الشديد لهذا الاستثناء فان الرئيس بوش وجد ضرورة للتحذير بانه لن يكون هناك تصدير على نطاق واسع للاغذية للعراق حين قال: «آمل ان لا يفسر احد في العالم ذلك باننا الآن نرى وجوب تصدير الغذاء على نطاق واسع الى العراق.. لذلك ينبغي من وجهة نظر الولايات المتحدة ان لا يفسر هذا على انه ثغرة واسعة في الحظر (٤٢).

الفاعلية الاقتصادية للعقوبات

كان للطابع الشامل لمنظومة العقوبات تأثير فوري على الاقتصاد العراقي. ويمكن

تلمس فاعلية الحظر في هبوط انتاج النفط بنسبة ٨٦٪ من ٣.٣ مليون الى اقل من نصف مليون برميل يومياً في الاشهر التي تلت، فلم يعد ينتج من النفط الا للاستهلاك المحلي. وبما ان اوبيك كانت قد قررت قبيل الغزو رفع سعر النفط الى ٢١ دولاراً، فان عوائد العراق النفطية لعام ١٩٩٠ كانت ستتجاوز بكثير عوائده لعام ١٩٨٩. وحتى قبل تنفيذ ذلك القرار فان عوائد العراق النفطية قد بلغت ٩.٥ مليار دولار للاشهر الستة الاولى من عام ١٩٩٠، وهي أعلى بنسبة ٣٤٪ من المعدل السنوي في ١٩٨٩.

في ٥ كانون الأول ١٩٩٠ جاء في شهادة مقدمة الى لجنة الشؤون الدولية في مجلس الشيوخ الامريكي، ان الحظر قد نجح فعلاً بقطع ٩٠٪ من واردات العراق و٩٧٪ من صادراته مما احدث ارباكاً جدياً للاقتصاد ومصاعب للشعب (٤٣).

وحسب تقديرات الحكومة العراقية فان الخسائر الاقتصادية المترتبة على الحظر خلال الاشهر الستة التي سبقت قصف العراق في كانون الأول ١٩٩١ قد بلغت ١٧ مليار دولار، منها ١٠ مليارات عن توقف صادرات النفط، مليار عن زيادة تكاليف الانتاج، ٧ مليارات جراء تعطيل مشاريع التنمية و١.٣ مليار من الخسائر الأخرى (٤٤). لكن هذه الخسائر والمصاعب الاقتصادية الكبيرة امست طفيفة بالمقارنة مع الدمار الذي الحقته حرب الخليج الثانية بالعراق.

لقد استهدفت حملة القصف في الاسابيع الستة ابتداء من ١٩٩١/١/١٦ ليس فقط الاهداف العسكرية بل كذلك منشآت مدينة كالبنى التحتية، محطات توليد الطاقة، شبكتي النقل والمواصلات السلكية، ومصانع السماد، منشآت النفط، مصانع الحديد والصلب، الجسور ، المستشفيات، منشآت التخزين، المصانع، والابنية المدنية. أما المنشآت التي سلمت من القصف فقد تعطلت وظائفها بفعل تدمير محطات توليد الطاقة. وقدرت البعثة الخاصة التي اوفدتها الأمم المتحدة عواقب شدة ومدى القصف كما يلي:

«ينبغي القول ان كل ما رأينا وقرأنا، من قبل، لم يؤهلنا كفاية لمثل هذه الصورة من التدمير الذي قد حل بالبلاد حالياً. فالحرب الاخيرة كانت لها عواقب رهيبة لا تصدق على مجتمع كان حتى كانون الثاني ١٩٩١ مجتمعاً حضرياً وممكنناً الى درجة عالية نسبياً. وها قد دمرّ أو تعطل أغلب ما يلزم الحياة العصرية من وسائل، وعليه، سيظل العراق، لبعض الوقت، يعيش في احوال ما قبل المجتمع الصناعي. ومما يزيده عجزاً انه مجتمع كان يعتمد على الاستخدام الكثيف للطاقة والتكنولوجيا كما هو سائد في المجتمع ما بعد الصناعي» (٤٥).

ان هذا المدى من التدمير ينبغي ألا يفاجئنا لان العراق بلد نام صغير ضربته القوى المتحالفة بـ٨٨٥٠٠ طن من العتاد خلال ٤٢ يوماً من القصف (٤٦). زد على ذلك، ان

التدمير توسع لان قائمة اهداف القصف ظلت تتوسع اثناء الحرب. فعند غزو الكويت حدد مخططو الجيش الامريكي ٥٧ موقعاً عراقياً كأهداف استراتيجية للقصف. وفي مجرى الحرب امتدت القائمة الى ٧٠٠ هدف لزيادة تأثير العقوبات من الناحيتين الاقتصادية والسايكولوجية (٤٧). وقد أشير ايضاً الى ان عدد الاهداف المدمرة قد زيد من اجل زيادة اعتماد العراق على الغرب، لا سيما امريكا، عقب انتهاء الحرب، ذلك ان «بعض الاهداف، خاصة في اواخر ايام الحرب، انما قصفت، بالدرجة الاولى، للتأثير على العراق بعد الحرب، وليس للتأثير على مجرى القتال. ويقول المخططون الآن ان غايتهم كانت تدمير أو الحاق الضرر بمنشآت ثمينة يتعذر على بغداد اعمارها بدون المساعدة الاجنبية (٤٨).

وقد قدر «التقرير الاقتصادي العربي الموحد لعام ١٩٩٢» مجموع الخسائر التي لحقت بالعراق في أزمة الخليج بـ٢٣٢ مليار دولار (٤٩).

العقوبات الاقتصادية بعد الحرب

لم تنته ورطة العراق بنهاية الحرب والانسحاب من الكويت. فبعد وقف القتال اصدر مجلس الأمن عدداً من القرارات التي تؤثر على مستقبل العراق. بعض هذه القرارات ربطت رفع العقوبات باذعان الحكومة الى مطالب جديدة تتعلق بحدود العراق، وبازالة قدراته على انتاج اسلحة الدمار الشامل والصواريخ بعيدة المدى، والقضية الكردية، ومسائل حقوق الانسان، وتعويض الافراد والمنظمات والحكومات عن الاضرار التي اصابتها جراء الغزو. وتتركز الفقرات التالية على الجوانب الاقتصادية لهذه العقوبات، وذلك لان المسائل الأخرى تخرج عن نطاق هذه الدراسة.

ان اهم اوجه منظومة العقوبات لما بعد الحرب هو استمرارها على حالها قبل الحرب. ويعني ذلك عجز العراق عن بيع النفط والتصرف بارصدته المجمدة لتمويل الاستيراد، لان البلدان الأخرى لا يُسمح لها بالتصدير الى العراق. اضف الى ذلك ان عقوبات ما بعد الحرب انشأت صندوق التعويضات لتضخ فيه ٣٠٪ من عوائد تصدير النفط.

في آب ١٩٩١ قرر مجلس الأمن تخفيف الحظر قليلاً على تصدير النفط فسمح للعراق بتصدير ما قيمته ١.٦ مليار دولار من النفط والتصرف بمردوده بشروط من الكثرة بحيث اعلنت الحكومة ان هذه الخطة ترمي الى «وضع العراق تحت الوصاية» (٥٠). لقد رفضت الحكومة ذلك القرار في وقته، الا ان تدهور الاحوال الاقتصادية والمعاشية للاغلبية الساحقة من العراقيين قد اضطر الحكومة، على ما يبدو، لاعادة النظر

في موقفها من هذه المسألة بعد مضي سنتين (٥١).

تأثير العقوبات على الاحوال المعيشية

في آب ١٩٩١ قال احد خبراء الأمم المتحدة في وصف احوال الشعب العراقي: «حين يبلغ الامر بالناس ان يشرعوا ببيع املاكهم وحليّهم، فاننا نعلم، احصائياً، انهم يقتربون من مرحلة المجاعة». ولا يثير ذلك العجب في بلد يطبق ضده الحظر ويصل التضخم الى ٢٠٠٠٪ في السنة، ولا يلبي نظام التقنين الحكومي للغذاء سوى ما يتراوح بين ٥٠٪ - ٦٠٪ من الحاجة الى السعرات. ومع ذلك فان الحظر لا يكاد يمس الكوادر العليا للنظام. فهم أبعد ما يكون عن الاكتواء بالحظر، بل هم يجنون منافع ظخمة بطريقة أو بأخرى من الارباح الطائلة في القطاع الخاص (٥٢).

ان احد مقاييس انهيار الاقتصاد العراقي يتمثل في تغير معدل الناتج المحلي الاجمالي الحقيقي للفرد الواحد، مقاساً باسعار ١٩٨٠. وكان هذا المعدل قد ارتفع من ١٧٤٥ دولاراً عام ١٩٧٠ الى ٤٠٨٣ دولاراً عام ١٩٨٠. لكنه بحلول ١٩٨٨ كان قد هبط الى ١٧٥٦ دولاراً. أما عام ١٩٩١ فهبط الى ٦٢٧ دولاراً (٥٣). فلا بد، في الواقع، من الرجوع الى عقد الاربعينات لنعثر على ما يساوي هذا المعدل من الناتج المحلي الاجمالي.

غير ان معدل الناتج المحلي لا يعبر تماماً التعبير عن هبوط مستوى المعيشة، وذلك لان جزءاً هاماً من الناتج المحلي الاجمالي مكرس للانفاق العسكري وما شاكله من انفاق. اما اوضاع غالبية العراقيين فيتواصل تدهورها كما يظهر من نتائج دراسة اعدها فريق عالمي. فبعد تحليل حركة الاسعار والمداخيل والعمالة في اواخر ١٩٩١ توصلت الدراسة الى الاستنتاجات التالية:

١- ظلت المداخيل الشهرية راكدة فيما تغير توزيع العمالة في الاقتصاد من القطاعات المنظمة الى القطاعات غير المنظمة.

٢- ارتفعت اسعار سلع الاستهلاك ارتفاعاً كبيراً، ولا سيما اسعار الاغذية التي تراوح ارتفاعها خلال السنة المذكورة بين ١٥٠٠٪ الى ٢٠٠٠٪.

٣- انهارت القوة الشرائية للدخل الفردي من الاغذية حتى أمست تعادل ٥٪ - ٧٪ من القوة الشرائية في آب ١٩٩٠.

٤- أمست المداخيل الشهرية الحقيقية (أي قيمتها الشرائية - المترجم) ادنى من الحد الذي اعتمدته الحكومة العراقية قبل ١٩٩٠ لتشخيص «الاسر المعوزة».

٥ـ باتت هذه المداخيل الحقيقية اوطأ من المداخيل الشهرية للعمال الزراعيين غير الماهرين في الهند، وهي من افقر بلدان العالم.

ملاحظات وتقديرات وآفاق عامة

ان فرض العقوبات، ناهيك عن غزو بلد آخر، أو الدخول في حرب، هي مشاريع مركبة من حيث الاصل، التخطيط، التنفيذ، النتائج والعواقب. ويعني ذلك عدم وجود تفسير وحيد لهذه الافعال، بل بوسع المرء ان يتحدث عن هرمية من الدوافع والتفسيرات. ولكن يمكن القول ان من اهم، ان لم يكن اهم، التفسيرات لهذه الأزمة هو النفط في السياقين الاقليمي والعالمي معاً.

وكما اشرنا، فان تفسير غزو الكويت تطلب منا العودة الى عام ١٩٨٠ حين اندلعت الحرب العراقية ـ الايرانية. وبوسعنا القول ايضاً ان تلك ما كان لها ان تندلع بغياب النفط الذي مكن العراق من امتلاك طاقاته الحربية. وما كان لها، بالتأكيد ان تستمر طيلة سنواتها الثمان. ثم ان ازمة العراق الاقتصادية، وسببها حرب الثمان سنوات، قد عمقها الضعف الذي ساد اسواق النفط، وما نجم عنه من هبوط في عوائد النفط كان عاملاً هاماً في سياسة العراق تجاه الكويت. ومن ناحية أخرى، فان الحكومة الامريكية، ومجلس الامن من بعدها ما كانا اغلب الظن، ليلعبا الدور الذي قاما به لو ان الكويت لا تملك عشر احتياطي العالم من النفط. وقد افصح عن هذه النقطة الرئيس بوش حين قال: «... ان الرهان هو الوصول الى مصادر الطاقة التي هي مفتاح ليس فقط لسير (functioning) بلادنا، بل العالم اجمع. فوظائفنا، طريقة حياتنا، حريتنا نحن وحرية البلدان الصديقة في ارجاء العالم، ستتضرر كلها اذا ما وقعت السيطرة على احتياطي النفط الاعظم في العالم بيدي ذلك الرجل الاوحد ـ صدام حسين» (٥٥).

وعندما تولت قوة مهيمنة طرح غزو الكويت بمثل هذه العبارات وأبدت كل ما يدل على استعدادها لتحمل كلفة المواجهة وكلفة الدخول في الحرب، فانها لم تترك مجالاً واسعاً امام حلفائها وشركائها للبقاء على الحياد. ونظراً لجبروتها ومواردها، فان بوسع الدولة المهيمنة ان تزيد العقوبات على من يرفض التعاون معها كما تزيد المنافع لمن يتعاون معها. اضف الى ذلك ان سيطرة امريكا على قواعد النظام العالمي تمنحها الوسيلة لضمان تعاون البلدان الأخرى... زد على ذلك ان موقع امريكا يمكنها من تحريك مؤسسات دولية، مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي وكذلك الظروف الاقتصادية بغية تغيير مدى الكلفة والمنفعة بالنسبة لمن يقبل بالتعاون معها أو من يرفضه (٥٦).

لندع جانباً، الآن، اهمية الموقع المهيمن لامريكا، فالعقوبات ضد العراق، حسبما قررها مجلس الامن، كان المطلوب ان تكون فعالة نظراً لخصوصية الاوضاع التي اكتنفت وضعها موضع التطبيق. أولاً، فرضت العقوبات على وجه السرعة، وكانت شاملة الابعاد. ثانياً، كان التأييد الدولي للعقوبات قوياً وواسع النطاق. ثالثاً، كانت الجهات المنفذة للعقوبات عازمة على بلوغ اهدافها. رابعاً، كان العراق سريع التأثر بالعقوبات وفرصه للزوغان منها ضئيلة ان لم تكن معدومة (٥٧).

رغم ان العقوبات الاقتصادية كانت كاسحة، شاملة، عميقة وناجحة بصورة لا سابق لها، فان من الصعب القول انها كانت تستطيع انهاء احتلال العراق للكويت. فلو لم تعقبها الحرب كوسيلة اضافية، ما كان بوسع احد ان يحكم بنجاح العقوبات في انهاء الاحتلال.

أما الآن وقد نجحت الحرب والعقوبات ليس فقط في انهاء الاحتلال بل كذلك في تدمير الاقتصاد العراقي في سياقها، يثور السؤال حول آفاق الاقتصاد العراقي في المستقبل، ان اقصر الاجوبة هو ان مستقبل العراق الاقتصادي كئيب، وستمر عقود من السنين قبل ان يسترجع المبادرة التي كان يمتلكها، لماذا؟

لو جمعنا قيمة الاصول المادية التي دمرتها حربا الخليج، وتعويضات الحربين، والديون واجبة التسديد سيكون المجموع اكثر من ٦٠٠ مليار دولار، أي ما يزيد على القيمة الحقيقية للناتج المحلي الاجمالي لعام ١٩٩٣ بستين مرة. فهذا يشمل: اولاً، ٢٣٢ مليار دولار عن قيمة الاصول المدمرة في حرب الخليج الثانية، ثانياً ٦٧ مليار دولار قيمة الاصول المدمرة في حرب الخليج الأولى. ثالثاً، ٩٧ مليار دولار للمطالب الايرانية المحتملة عن تعويضات الحرب. رابعاً، ١٠٠ ـ ١٥٠ مليار دولار للتعويضات المترتبة على احتلال الكويت. خامساً، ٧٥ مليار دولار من الديون الاجنبية.

وعلى العراق ان يعتمد على عوائده من النفط لمواجهة مطالب بهذا الحجم وكذلك لتسديد ثمن الواردات الضرورية لحياة المواطنين الاعتياديين ولسير الاقتصاد. وحين نأخذ بالاعتبار اوضاع سوق النفط العالمية في الوقت الحاضر والمستقبل القريب، فان من الصعب القول ان قطاع النفط بوسعه ان يدر اكثر من ٢٠ ـ ٢٥ مليار دولار سنوياً.

فعلى ذلك، سيكون مستقبل العراق الاقتصادي قاتماً حقاً خلال العقود المقبلة ما لم يجر ارخاء، اعادة جدولة، تقليص أو شطب المطالب المالية الخارجية أي تعويضات الحرب والديون الاجنبية.

الهوامش

15. See Christopher C. Joyner, "Sanctions, compliance and International Law:

Reflections on the United Nations' Experience Against Iraq, " Virginia Journal of International Law, Vol. 32, No. 1, Fall 1991, pp. 7-8 and Doxey, pp. 35-52.
16. See Abbas Alnasrawi, "Economic consequences of the Iraq-Iran War, "Third World Quarterly, Vol. 8, No. 3, 1986, pp. 869-895 especially Table 3.
17. See Economist Intelligence Unit (EIU), Economic Review of Iraq, No. 3, 1981, p.10.
18. For Yamani's statement on the glut see Middle East Economic Survey (MEES), April 27, 1981 (Supplement), pp.1-2.
19. See MEES, July 27, 1981, pp. 1-2.
20. See MEES, September 7, 1981, p.2.
21. See OPEC, Annual Statistical Bulletin, 1991; Abbas Alnasrawi, Arab Nationalism, Oil, and the Political Economy of Dependency, Westport: Greenwood, 1991, ch.7.
22. EIU, Economic Review of Iraq, No. 4, 1984, P.11.
23. Derived from U.S. Arms Control and Disarmament Agency, World military Expenditures and Arms Transfer (Annual); Stockholm International Peace Research Institute, SIPRI Yearbook, 1992; United Nations, National Accounts Statistics: Analysis of Main Aggregates, 1988-1989, New York: 1991.
24. See Abdel Moneim Al-Sayed Ali and Hail Ajami Jamil Al-Ganabi, "The Political Economy of Inflation in Iraq 1988-1992, "Arab Economic Journal (in Arabic) No. 1, Autumn 1992, pp. 91-113.
25. See Kamran Mofid, The Economic consequences of the Gulf War, London: Routledge, 1990, ch. 10.
26. EIU, Economic Review of Iraq, No. 2, 1990 pp. 11-12.
27. See OPEC, OPEC Official Resolutions and Press Releases, 1984-1989, vienna, 1990, p.254.
28. MEES, February 12, 1990, pp. 1-5.
29. Ibid.
30. See "Documentation on Iraq-Kuwait Crisis, " MEES July 23, 1990, pp. D1-9. pp. D1-9.
31. Ibid.
32. See "Documentation," p. D5.
33. See "documentation".
34. See OPEC Bulletin, September 1990, p.7.
35. Cited in Janice Gross Stein, "Deterrence of compliance in the Gulf, 1990-91: A Failed of Impossible Task," International Security, Vol. 17, No. 2, Fall 1992, p. 158.
36. Ibid.
37. See "Iraq: Dreams and Figures", Tareeq al Shaab, October, 1990, p.5. See also MEES< September 17, 1990.
38. See Joyner, p. 12.

39. For a good summary of these resolutions see Joyner, pp. 8-12; for the text of the resolutions see Dilip Hiro, Desert Shield to Desert Storm: The Second Gulf War, New York: Reutledge, 1992; pp. 527-552.
40. See Lawrence Freedman and Efraim Karsh, The Gulf conflict 1990-1991: Diplomacy and War in the New World Order, Princeton: Princeton University press, 1993, p. 191-193.
41. Ibid.
42. Ibid.
43. See The New York times, December 6, 1990, p. A16.
44. See MEED, August 30, 1991 p.22.
45. See Report to the Secretary-General on humanitarian needs in Kuwait and Iraq in the immediate post-crisis environment by a mission to the area led by Mr. Matti Ahtisaari, Under Secretary-General for administration and management, dated 20 March 1991, p.5.
46. Yahya M. Sadowski, scuds or butter: The Political Economy of Arms control, Washington: the Brookings Institution, 1993, p.14.
47. Barton Gellman, "Allied Air War Struck Broadly in Iraq: Officials Acknowledge Strategy Went Beyond Purely Military Targets," The Washington Post, June 23, 1991.
48. Ibid.
49. Arab Monetary Fund at al, Unified Arab Economic Report, 1992, Abu Dhabi, 1993, p. 18.
50. See Jerry Gray, "U.N. Decided to Permit Iraq Sales of $1.6 billion, "The New York Times, August 16, 1991 and Marian Houk, "Plan to Allow Iraqi Oil Sale Puts UN Chief in Charge, And Iraqi Officials bristle, "the Christian Science Monitor, August 19, 1991.
51. For a good discussion of this issue see Walid Khadduri, "the Politics of Iraqi Oil Exports, 'MEES, May 24, 1993. for the decision of the government to accept in 1993 the UNSC terms of the sale of oil which it had rejected in 1991 see MEES, July 5 and 12, 1993.
52. See Francoise Chipaux, "Saddam sits pretty as Iraqi people suffer, "Manchester Guardian Weekly, August 11, 1991, p. 13.
53. Derived from sources cited in notes 24 and 25.
54. See Jean Dreze and Haris Gazdar, "Income and Economic Survey," in International Study Team, Health and Welfare in Iraqi After the Gulf crisis: an In-Depth Assessment, October 1991, pp. 10-32.
55. the Washington Post, August 16, 1990, cited in Hufbauer, Sanctions: Policy, p. 290 Bush was referring, of coursed, to Saudi oil reserves.
56. See Lisa L. martin, Coercive Cooperation: Explaining Multilateral economic Sanctions, Princeton: Princeton University Press, 1992, p. 28.
57. See Joyner, p. 38.

ندوة

الحصار والارادة الدولية وحقوق الإنسان العراقي

بمبادرة من منظمة الحزب الشيوعي العراقي في بريطانيا، عقدت في ١٥ ك١ الماضي، ندوة ضمت شخصيات فكرية وسياسية لبحث موضوع الحصار من جوانبه المختلفة، السياسية والقانونية والاقتصادية.. وتعكس الندوة تبايناً واضحاً في الموقف من الحصار.. هذا التباين واختلاف زوايا النظر يعكسان أهمية الحوار من أجل تقريب المواقف ووجهات النظر حول القضايا المحورية بديلاً عن الاستقطاب والتخندق.. نظراً لضيق المجال ننشر فيما يلي مقتطفات من المداخلات بأمل استكمال الندوة لاحقاً.

عبدالرزاق الصافي (الحزب الشيوعي العراقي) : تبنى مؤتمرنا الخامس موضوعة رفع الحصار كشعار مركزي بعد دراسة مستفيضة لتأثيراته على حياة العراقيين، وبالتحديد الطبقات الوسطى والكادحة. ومن جانب آخر رأينا أنه لم يضعف النظام كما كان يفترض فيه، بل العكس فقد استغل النظام المآسي التي سببها الحصار لترحيل جرائمه على العالم الخارجي... ورغم أن القرار الذي أتخذه المؤتمر قصير ومكثف ألا أنه ربط رفع الحصار الأقتصادي عن الشعب بتشديد الحصار السياسي على الدكتاتورية. وقد رأينا آلية تحقيق هذه المعادلة من خلال التشديد على تطبيق القرار ٦٨٨ الخاص بحماية الشعب من قمع النظام. وهناك امكانيات لتطبيقه عبر رقابة دولية على السجون والمعتقلات لمنع الخروقات لحقوق الأنسان... دعوتنا لرفع الحصار عن الشعب وتشديده على النظام تعني بين ماتعنيه قيام الهيئات الدولية بالأشراف على تأمين استفادة الشعب من عملية رفع الحصار، وفي

نفس الوقت منع الدكتاتورية من الأستفادة من رفع الحصار لتعزيز ترسانتها العسكرية واجهزتها القمعية . ولذلك نحن مع قيام الهيئات الدولية بايصال الغذاء والدواء مباشرة للمحتاجين من ابناء الشعب، فلا يخفى ان النظام بأساليبه الخسيسة استطاع الأستحواذ على كميات من المساعدات الدولية له ولأعوانه. كما ارتبط شعارنا بالدعوة لتشكيل محكمة دولية لمحاكمة صدام حسين وزمرته.. وهذه القضية تتطلب جهدا واسعا ودؤوبا من الحقوقيين والسياسيين. وربما كان تشكيل محكمة دولية في قضية الضرب سابقة قانونية لتحويل هذا المطلب الى حقيقة دولية... ونعتقد ان من الضروري تفعيل نشاط المعارضة، وندوة مثل هذه مهمة في هذا المجال، للتوصل الى آلية للربط بين جانبي المعادلة: تخفيف الحصار عن الشعب وتشديده على الدكتاتورية.

د. عبد الحسين شعبان (المنظمة العربية لحقوق الانسان في بريطانيا): صدرت من مجلس الأمن الدولي منذ غزو الكويت حتى الآن ٣١ قراراً كرسها فيما بعد القرار ٦٧٨ الذي سمي بـ(أم القرارات) وهو أطول قرار اتخذته الأمم المتحدة في تاريخها يتألف من ٣٤ مادة و٣٩٠٠ كلمة.. وقد تضمن هذا القرار اضافة الى وقف الحرب مواد أخرى تتعلق بالحدود العراقية الكويتية وازالة اسلحة الدمار والتعويضات والعقوبات والحظر الاقتصادي وقضايا المعتقلين والكف عن الارهاب... هذه القرارات الـ٣٠ شكلت بمجموعها سابقة خطيرة في تاريخ الأمم المتحدة بما رتبته على العراق كبلد، وليس فقط كنظام، من التزامات بعيدة المدى تضعه خارج العلاقات الطبيعية بين الدول في عزلة خانقة لا يشاركه فيها أي بلد.. وقبل رفض هذه القرارات بجمل ثورية، أو قبولها كمدخل لتزكية النفس والحصول على موقع سياسي من الشرعية الدولية، أرى ضرورة دراسة هذه القرارات قبل أصدار احكام مسبقة... وأرى من الضروري تشديد الضغط بأتجاهين: الحصول على وعود من الدول المتنفذة في مجلس الأمن لالغاء القرارات التي تكبل سيادة العراق خاصة بعد سقوط سلطة صدام حسين، والعمل في نفس الوقت لتنظيم محاكمة دولية لصدام حسين والتأكيد على تطبيق القرار ٦٨٨.

سامي فرج (صحفي وسياسي مستقل): أستطيع ان اقول ان النظام منذ عام ١٩٩٠ نجح في تصوير نفسه كمدافع عن سيادة واستقلال العراق وبالتالي تصوير المعارضة كمفرطة بسيادة الدولة عند استعانتها بقوى خارجية. أظهر نفسه كمعارض للغرب مع علمنا ان سلطة ١٧ تموز هي افراز من افرازات التآمر الغربي في المنطقة. وان المعارضة هي الحليف الأول للغرب.. وبالتالي فأنه ضد الحصار الدولي بينما المعارضة مع تشديد

الحصار. وبالتالي نجح النظام في وضع المعارضة اعلامياً واخلاقياً وسياسياً في زاوية حادة.. اذا تتبعنا افرازات الحصار سنجد انه اضعف مقاومة الشعب للدكتاتورية.. على المعارضة العراقية بعد التدقيق في الوضع الداخلي ان تطالب برفع الحصار ووضع آلية جديدة لمواجهة النظام من خارج نطاق الحصار الاقتصادي... نأتي الآن الى القرار ٦٨٨.. فهذا القرار لا ينطوي على آلية اجبارية لتطبيقه. ويبدو لي كإنه جاء لملء الفراغ الانساني الذي يتعلق بالشعب العراقي، قرار ضعيف قياساً ببقية القرارات التي جاءت لمصلحة القوى الخارجية. وبالتالي كان الشعب العراقي المظلوم ضحية مزدوجة للنظام وللقوى الدولية في نفس الوقت. في القرار ٦٨٨ بنود ينبغي للمعارضة ان تتمسك بها لابرازها الى الصدارة مثل فتح مكاتب رقابة تابعة للأمم المتحدة لرفع الاضطهاد ضد السكان المدنيين لاشعار النظام انه ليس طليقاً في قمعه.

د. كاظم جواد شبّر (اقتصادي): أعتقد ان الوقت قد حان، اذا لم يتجاوزنا قليلاً، لاتخاذ موقف موحد أو متقارب من الحصار المفروض على العراق بعد أكثر من ثلاث سنوات على تطبيقه. واذا اردنا ان نتخذ موقفاً موضوعياً علمياً فلا بد من النظر للحقائق الاساسية القائمة الآن: الحقيقة الأولى هي ان الفرد العراقي اصبح افقر افراد الشعوب كافة ومن الشعوب المصابة بكارثة كبرى تحتاج لمعونات عاجلة من الهيئات الدولية.. من جهة ثانية هناك ٣٠ قرار دولي صدرت ضد العراق منذ ٢ آب المشؤوم... ورغم تبجح النظام بالوطنية والحفاظ على السيادة الا انه رضخ لهذه القرارات واصبح ملزماً بتنفيذها. ان ازالة الحصار عن العراق تعني حصول النظام على مبالغ كبيرة سيستخدمها لتمتين مركزه واجهزته القمعية التي مكنته من البقاء في السلطة أكثر من ٢٥ عاماً.. المطالبة بازالة الحصار بدون شروط لن تكون لمصلحة الشعب ولا الحركة الوطنية لأن ذلك سيتيح للنظام تصدير حوالي ٣ ملايين برميل يومياً، وبموجب الاسعار الحالية يعني ذلك انه سيحصل على ٣٠-٤٠ مليون دولار يومياً.. الحل في رأيي هو تبني الموقف التالي.. ان يسمح للعراق بتصدير كمية محدودة من النفط، ولا تعطي عائداتها للنظام.. وهنا أرجع للقرار ٧٠٦ الذي صدر في آب ١٩٩١ الذي اعطى العراق الحق في تصدير ما قيمته ١٦٠٠ مليون دولار من النفط على مدى ٧ شهور أي ما يعادل ٦٠٠ ألف برميل نفط يومياً. هذا المبلغ غير كاف لتغطية احتياجات العراق الدوائية والغذائية.. حاجة العراق للغذاء والدواء تتطلب رفع الكمية الى مليون برميل للحصول على ٨ - ١٠ ملايين دولار يومياً.. ألخص وأكرر بأننا سنرتكب خطأ تأريخي اذا سمحنا للنظام بأن يتصرف بعائدات النفط بنفسه وبدون رقابة.

د. محمد هماوندي (باحث اجتماعي): تم الحصار الاقتصادي بغياب ارادتين: إرادة الشعب العراقي وإرادة المعارضة العراقية. وتم تطبيقه بتطابق ارادتين، إرادة الادارة الامريكية داخل الأمم المتحدة وإرادة النظام الحاكم في بغداد رغم عدم وجود اتفاق مدون بينهما. ويبدو لي ان الاعتماد على الحصار الاقتصادي دليل عجز المعارضة العراقية واقرار بالعجز. وليس من المعقول ان تناقش المعارضة بقاء أو رفض الحصار.. أنا شخصياً ضد الحصار الاقتصادي وأطالبكم بالوقوف ضده. وأنا اتحدث عنه من موقعي ككردي.. فقد عانت كردستان من الحصار منذ عام ١٩٦١ باستثناء فترات المفاوضات. وهو الآن حصار ثلاثي.. حصار من النظام وحصار من الدول الاقليمية وحصار دولي. وقد عاني الشعب الكردي من هذا الحصار اشد المعاناة وخاصة من النظام العراقي صاحب فكرة الحصار.. وأنا مع رفع الحصار بدون أي قيد وشرط. أما القول برقابة دولية أو تحت اشراف الأمم المتحدة، فهذه المسائل تضعف السيادة.. لأنه ليس من المعقول ان نطلب من هيئات دولية توزيع الغذاء والدواء على الشعب.. أما بصدد القرارات الأخرى ومنها ٦٨٨ فانها جميعاً ضد الشعب العراقي وضد مستقبل العراق. فقد صيغت القرارات التي لصالح الشعب بلهجة الرجاء والتمني وليس فيها أي ألزام. ولكن ليس لدينا حل غير المطالبة بتطبيقها. بودي في النهاية ان اؤكد مع زملاء سبقوني على ضرورة دراسة قرارات الأمم المتحدة دراسة علمية لمعرفة ايجابيات وسلبيات تطبيقها، بل ودراسة كيفية الغاءها في المستقبل.

د. صباح صابر (الاتحاد الوطني الكردستاني): نعتقد ان قراري الأمم المتحدة ٧٠٦، ٧١٢ واضحان وصريحان ويسمحان للعراق باستيراد ما يكفي للغذاء والدواء ونتفق مع الرأي الداعي لزيادة الحصة، أو على الاقل ايقاف خصم التعويضات من المبلغ المحدد للدواء والغذاء في الفترة الحالية. وعموماً أنا اتفق كلياً مع مداخلة الدكتور كاظم شبر. وبالنسبة لي لا استطيع ان افهم معنى وكيفية تشديد الحصار على النظام ورفعه عن الشعب. مع اعتذاري للأستاذ عبد الرزاق الصافي تبدو لي هذه الجملة انشائية لأننا نعرف ان الحكم في العراق مركزي جداً ولا مجال لأحد غير النظام في التحكم بالمال والنفط والتجارة. فكيف يمكن برفع الحصار عن المناطق المحررة في كردستان. نعتقد ان المجتمع الدولي والأمم المتحدة ينبغي ان يفرقوا بين المعتدي والمعتدى عليه. والعراقيين الموجودين في المناطق المحررة جزء من المعتدى عليهم ويتحملون حصارين. وبالمناسبة أنا لا أؤيد القول بأن رفع الحصار عن العراق يؤدي اتوماتيكياً لرفعه عن كردستان. فبوجود الحصار يقوم النظام بفرض حصار آخر على كردستان بحيث يمنعون مرور أية مشتقات نفطية

لكردستان. فكيف تريدوننا ان نضمن رفع الحصار عن كردستان بمجرد رفعه عن العراق. وبالنسبة لقرارات الأمم المتحدة العقابية نحن نطالب برفعها بعد سقوط النظام لأنها ستكون غير مبررة آنذاك.

زهير الجزائري (كاتب شيوعي): سأركز على نقطة واحدة هي وضع المثقفين العراقيين تحت الحصار. لدي قائمة باسماء كتاب وفنانين عراقيين يمارسون اعمالاً لا تمت لعملهم الثقافي في الوقت الذي صار يلي عملهم الاساسي من اجل سد لقمة العيش اليومية.. شاعر فتح بسطة في شارع الرشيد وفنان يزرع رقي وثالث سائق سيارة وكاتب كبير يعمل شغيل في مطبعة.. لا أريد ان اغرق في التعداد لأن ظاهرة القيام بعمل آخر لا علاقة له بالمهنة، وبعد دوام رسمي هي الظاهرة الأكثر شيوعاً بين المثقفين. وفي جو الحصار الحالي لم يعد راتب هذا الموظف الصغير يكفي لشراء ثلث المواد المعيشية اليومية، ولذلك يجبر المثقف على ممارسة عمل آخر لا يمت لمهنته، والحل الثاني هو ان يتخلى عن متطلبات حياته الروحية كمثقف بالتوقف عن شرا الكتب، بل وبيع الكتب الموجوده عنده.. وفي الحالتين تتراجع الحاجات الروحية والوقت المتاح للحاجات الروحية لصالح مقومات الحفاظ على استمرارية حياة يومية (أعني الغذاء والملبس) حياة دفاعية بدون بعد روحي اشبه بالحيوانات.. وحتى لا ابدو مهنياً مدافعاً عن المثقفين وحدهم كما لو كانوا جزيرة معزولة أريد ان اقول ان وضع هؤلاء المثقفين يشكل تجسيداً لوضع الطبقة الوسطى صاحبة مشروع التنوير السياسي والثقافي في العراق.. هذه الطبقة أنهارت أو توشك ان تنهار تحت وطأة الحصار الحالي. واعني بالأنهيار هنا الاقتصادي حين يصبح دخلها أدنى من دخل عامل أجير، وبالتالي فهو انهيار روحي لأنه يستحيل على شخص مشغول جسدياً وعقلياً بكيفية تدبير لقمة العيش ليومه وغده ان يجد متسعاً من الوقت للتفكير بأمور أبعد وأكثر تجريداً مثل الديمقراطية أو المشاريع التي نطرحها الآن.

د. علي حنوش (باحث زراعي): أعتقد اننا نناقش هذا الموضوع متأخرين جداً، وبعد أكثر من ثلاث سنوات من تطبيقه. ولنبدأ من حقيقة أساسية، وهي اننا هنا في لندن مهما تحدثنا عن آثار الحصار على ناسنا لا يمكن ان نقترب من الصورة الحسية الفعلية. واذا دخلنا موضوع الارقام فأحب ان أشير الى الدراسة التي أعدتها الهيئة الاستشارية العراقية التي تقول بأن الاقتصاد العراقي وصل مرحلة عالية من التشوه بحيث أن ثلثي الناتج الاجمالي يعتمد على النفط مباشرة وعلى الاستيراد من الخارج. بينما اصبحت القطاعات الأخرى، وخاصة الصناعية والزراعية، هامشية جداً. ولذلك فان اضرار الحصار كانت

كارثية على الشعب. الجانب الآخر من التشوه هو في التركيب السكاني للشعب العراقي بحيث انه طوال ربع قرن من الحكم الحالي كان معدل الهجرة من الريف الى المدينة أعلى نسبة في العالم العربي.. وبهذا المعدل تحول ٨٠٪ الى سكان مدن وحوالي ١٩٪ سكان ريف ولذلك اصبحت امكانية انتاج الغذاء شحيحة جداً. وعندما فرض الحصار الاقتصادي لم يكن العراق قادراً على ان ينتج من غذاءه الا ثلث حاجياته. وبالنسبة للدول الأخرى فهو على حافة العجز الغذائي. واذا قرأنا الجداول الدولية فان بلدنا يقع في اسفل القائمة بعد زيمبابوي وأفغانستان. ويشير تقرير منظمة الغذاء والزراعة الدولية الى حاجة العراق الى اسعاف بخمس ملايين طن من الغذاء.. وهي حاجة آنية عاجلة وكحد أدنى. واذا ما استمر الوضع الحالي الى عام ٢٠٠٠ فستظهر كوارث صحية واجتماعية لا حصر لها. وفي النهاية أريد ان أبين ان الموقف السياسي ينبغي ان لا يبنى على متطلبات آنية، انما قبل ذلك على تأثيراته اللاحقة على عامة الشعب.

إبراهيم علاوي (الحزب الشيوعي العراقي - القيادة المركزية): يرتبط الحصار الاقتصادي لدرجة كبيرة بالوضع العالمي الجديد بعد انهيار الاتحاد السوفياتي ومحاولة دولة واحدة الانفراد بالهيمنة العالمية.. ومن طبيعة هذا النظام الجديد محاولة أحياء نظام الانتداب الاستعماري الذي اريد له ان يطبق في العراق أولاً. واذا كنتم مطلعين على الدراسة التي قدمتها مؤسسة راند الامريكية شبه الرسمية (العراق في العقد القادم) فانها تقول ان العراق رشح ليكون النموذج لهذا النظام الجديد بمعنى كيفية تهديم دولة صغيرة من بعيد وبطرق لا تكلف الطرف الآخر أية ضحايا تذكر وبحيث تكون مثل لبقية البلدان لكي تستسلم دون مقاومة تذكر... وأود ان أقرأ لكم فقرة بسيطة من هذا التقرير (أصبحت السياسة الامريكية تركز اهتمامها على وجود شخصية صدام حسين. ففي الواقع يتحمل صدام مسؤولية مباشرة عن الحربين في الخليج خلال العقد المنصرم. ان بقاء قبضته على السلطة في العراق بالرغم من مرور سنتين من الحصار تشكل بادرة جديدة على امكانية صمود نظام حكم في العالم الثالث غير الشيوعي على العكس من نظم أخرى. واذا ترسخ هذا المثل سيعد نذير شؤم للسياسة الامريكية في الشرق الأوسط).. اذا كانت سياسة الحصار قد فشلت كما تعترف الوثيقة في اسقاط سلطة صدام حسين، فما الهدف من استمرار الحصار؟ في رأينا انه محاولة لتهديم الشعب العراقي وزعزعة الكيان العراقي في فترة ما بعد صدام وليس صدام نفسه. والمسؤولون الامريكيون قالوا عدة مرات ان قرارات مجلس الأمن والأمم المتحدة تتخطى وجود صدام وتظل سارية المفعول على أي نظام يتبع صدام. ولذلك فاننا نؤيد رفع الحصار عن الشعب العراقي ونعتبر طرح هذا

الشعار خطوة كبيرة اتخذها المؤتمر الأخير للحزب الشيوعي العراقي ولدي آمال بأن تتحول الى خطوات أكبر لتكون حجر الزاوية لتجمع وطني يضع مصلحة الوطن والشعب العراقي أولاً وليس الولايات المتحدة أو الأمم المتحدة.

د. موفق فتوحي (الحزب الديمقراطي العراقي): أريد ان اعقب على مقولة ان رفع الحصار يضعف النظام، وابدأ بحقيقة ان النظام يصدر حالياً ١,٢ مليار دولار من النفط عن طريق الأردن وربما إيران.. أكثر من ثلث هذا المبلغ يذهب للتسليح والميدان العسكري، الثلث الآخر للدوائر الأمنية وشراء الصحافة وحتى مسؤولين سياسيين في الشرق الأوسط وأوروبا وآسيا، وتعرفون المساعدات التي قدمت لاحزاب روسية.. أرى ان نركز اطروحتنا على جوهر النظام وليس على رفع المقاطعة. فنحن نجابه سلطة دكتاتورية، شنت حربين هزت العالم ودمرت الشعب العراقي. وقد انتهت الحرب الثانية بتوقيع وثيقة استلام كاملة.. وهذا يعني انهم يجب ان يخضعوا للقرارات الدولية.. مشكلة المعارضة تحولت.. من مقارعة النظام الى تحمل تبعات وجود هذا النظام. وقد تعدت تبعات العلاقات الوطنية الى التبعات الدولية

.. هناك قرارات دولية لا يتحمل النظام وحده تبعاتها، إنما الشعب العراقي أيضا.. والحل من وجهة نظرنا : تشديد الحصار باشكاله السياسية والدبلوماسية والاقتصادية لعزله عربياً ودولياً ومنع عملية التطبيع. ونحن ندرك معاناة الشعب ولذلك ندعم قراري مجلس الأمن بتصدير النفط لتوفير الغذاء والدواء تحت رقابة الأمم المتحدة، وارغام النظام على فك الحصار الذي يفرضه على الجنوب (الاهوار) وكردستان.

اسماعيل القادري (سياسي مستقل): اعتقد اننا يجب ان نبدأ من النقطة السياسية وهي إزالة الدكتاتورية.. هذا الموضوع الذي ينبغي ان يشغلنا كمعارضة. وامامنا هاجس يتعلق بآلية تطبيق قرار دولي هو ٦٨٨.

النقطة الثانية القرار ٦٦١ الذي صدر يوم ٨/٦ بعد اربعة ايام الغزو. هذا القرار سقط سياسياً وسقطت مبرراته.. فهو يرتبط بشروط انسحاب صدام من الكويت. لم ينسحب صدام فشنت الحرب عليه اذن هو سقط سياسياً. ولكن الذي حدث لاحقاً هو الاضافات من قبل مجلس الأمن الدولي وخاصة (أم القرارات) ٦٨٧.

موضوع الحصار: هل ان رفع الحصار يؤدي لأضعاف الدكتاتورية؟ هذه المسألة ينبغي ان تكون فوق الاعتبارات. هناك ترابط بين قرار ٦٨٦ وبين خلق آلية لرفع الحصار دون تمكين النظام من الاستفادة من هذا الرفع. القرار ٦٨٨ الوحيد الذي لم يدخل في الفصل

السابع الذي يلزم الدولة التي يصدر عليها هذا القرار.. أنا مع رفع الحصار واعتقد ان الآلية متوفرة في تنفيذ ٦٨٨.. وهو مساومة الأمم المتحدة.

د. فاروق رضاعة (اتحاد الديمقراطيين العراقيين): أريد ان اؤكد للذين يريدون رفع الحصار عن العراق انه لن يحل المشكلة تنحل لتطبيق النظام القرارين ٧٠٦ و٧١٢ وزيادة تصدير النفط من ١.٦ مليار دولار كل ستة أشهر الى ٢.٦ مليار دولار، وموافقته على انفاق المبلغ على شراء الغذاء والدواء. وإلا فان الشعب لا يستفيد من رفع الحصار بل سيعطي ذلك قوة دفع للنظام لأن اقامة العلاقات الاقتصادية تجر الى علاقات سياسية ودبلوماسية. نلاحظ في ان في جنوب افريقيا طالب المؤتمر الوطني بإبقاء الحصار حتى التوقيع على الدستور الجديد. صاحب المعمل هناك لا يخسر بل العمال السود يخسرون. مع ذلك أصر المؤتمر على بقاء الحصار. اعتقد ان المعارضة العراقية يجب ان تتخذ خطوتين: أولاً، التأكيد على قراري ٧٠٦ و٧١٢ والضغط من اجل تطبيقها، ثانياً ربط رفع الحصار الاقتصادي بتطبيق قرار ٦٨٨، وعلى المعارضة ان تقدم تصوراتها للآليات الى الهيئات الدولية ومن الممكن عند ذلك ان تتطور الامور بحيث يتاح للعراقيين امكانية التحرك والتنظيم.

نضال الليثي (الحملة من اجل عراق ديمقراطي): لقد اخضع الموقف من الحصار الاقتصادي للصراعات الحزبية وهناك ضعف في الخطاب السياسي المعارض وظهر كأن هناك احزاب سياسية هي المسؤولة عن الحصار الاقتصادي وليس النظام الدكتاتوري وأدى ذلك الى نتيجتين: إهمال الاعتبارات التي فرضت الحصار الاقتصادي والطبيعة القانونية لقرارات مجلس الأمن، والثانية خلق وعي زائف حول امكانية توظيف الحصار لأسقاط النظام. هناك احزاب اخضعت موضوع الصراع لموقف مسبق وأدى ذلك الى حرف الصراع عن جوهره الحقيقي باعتباره صراع من اجل اسقاط النظام الدكتاتوري. وقد تعاملت المعارضة مع قرارات مجلس الأمن بشكل انتقائي وليس على اساس انها وحدة واحدة لا يمكن تجزئتها. والتجزئة غالباً تجري لاعتبارات سياسية لا علاقة لها بفلسفة القانون الدولي. إن المأساة الانسانية يتحمل مسؤوليتها النظام وستطال الشعب بعد رفعها.

د. علي الزبيدي (الوفاق الوطني الديمقراطي): نحن باختصار مع رفع الحصار الاقتصادي وتشديد الخناق على الدكتاتورية بتطبيق القرار ٦٨٨ وخلق آليات كفيلة بتحقيق ذلك. جريدتنا «الوفاق» كتبت حول هذا الموضوع في افتتاحية لها، ان الحصار

الاقتصادي يستمر للعام الرابع والنتائج التي نأخذها من استمرار الكوارث، لم يتحقق الهدف الذي قيل انه اتخذ من اجله وهو اسقاط نظام صدام حسين.. ابناء شعبنا هم المتضررين من اجراءاته السلبية. وتعقدت الاوضاع المعيشية. ان الزمرة الحاكمة تستثمر جو الحصار والضائقة المعيشية لتحقيق منافع غير مشروعة.. وفي اجواء الحصار نجد ان العديد من الدول تعيد علاقاتها الدبلوماسية والاقتصادية مع النظام. يجب رفع الحصار الاقتصادي عن الشعب وتحويله الى حصار سياسي لعزل النظام دولياً وعربياً ورفض أي تعامل معه، ولكي تكون هذه الاجراءات فاعلة ومؤثر ينبغي ان تترافق مع آليات تطبيق القرار ٦٨٨ لحماية الشعب من قمع النظام.

د. **ماجد الياسري (الحزب الشيوعي العراقي)**: في قضية الحصار هناك ٤ عوامل تتفاعل ديناميكياً، اولها العامل الدولي والاقليمي الذي يريد الحصار آلية لاحتواء النظام ودفعه الى مزيد من التنازلات وابقائه في فلك ستراتيجياته وجدول أولوياته بالمنطقة تبعاً لمصالحه وليس لمصالح شعبنا. وهذا يفسر تناقض الموقف من القرارات الدولية رغم وضوح توصيات فان در شتويل مقرر حقوق الانسان.

العامل الثاني هو الدكتاتورية التي تستخدم الحصار لابقاء شعبنا على حافة الجوع والركض وراء اللقمة والرفض السلبي وبالتالي اضعاف كفاحه. هذه السياسة تتجلى في الحصار الداخلي والاثراء من تجارة العملة والغذاء والادوية على يد رموز النظام الذي يريد رفع الحصار لانهاء عزلته الخارجية وليس لانهاء حصاره على الشعب. وبهذا يلتقي النظام مع العالم الخارجي في محاصرة شعبنا بأهداف متباينة.

العامل الثالث هو شعبنا ضحية الحصار، وقد عبر بانتفاضة آذار عن رفضه للنظام.

العامل الرابع هو المعارضة التي يتباين موقفها تجاه الحصار انعكاساً اما لمدى استقلاليتها تجاه العامل الخارجي أو مدى انشدادها الى الداخل كونه العامل الحاسم في التغيير.

من هنا تنبع أهمية شعار رفع الحصار عن شعبنا مع تشديده على الدكتاتورية بتطبيق قرار ٦٨٨ بما ينسجم والمصلحة الوطنية العراقية. وقد تبناه مؤتمر حزبنا الخامس وعدد من اطراف المعارضة الأخرى.

فوزي الأتروشي (الحزب الديمقراطي الكردستاني): رأينا في الحصار يتلخص في ما يلي:

١. جاء قرار الحصار ضمن سلسلة قرارت صادرة عن الشرعية الدولية، بهدف معاقبة

النظام بعد ان شكل تهديداً على الصعيدين الاقليمي والدولي.
٢- الرفع المطلق للحصار سيطلق يد النظام على اموال طائلة سيستخدمها مجدداً في قمع الشعب واعادة قدراته العسكرية وتقنية التدمير، ونحن إذ نتضامن مع معاناة شعبنا في الداخل، نقول ان الاغذية والادوية أصلاً غير خاضعة للحصار، ثم انه يمكن الاستفادة من القرار الدولي الانساني القاضي برفع الحظر الجزئي على النفط.
٣- من المفيد التأكيد على وضع آلية مناسبة لتطبيق القرار ٦٨٨ بنشر مراقبين دوليين لحقوق الانسان في كافة انحاء العراق.
٤- تدعو الى رفع الحصار عن منطقة كردستان العراق المحررة باعتبارها غير خاضعة لسلطة النظام.
٥- ليس صحيحاً ان قرارات الشرعية الدولية تنتقص من سيادة العراق، فسيادة الوطن فرّط بها النظام اصلاً، والسيادة يجب النظر اليها من وجهة نظر القانون الدولي المعاصر ومبدأ حماية حقوق الانسان.

د. رياض الزهيري (باحث قانوني):

١- الحصار كما هو في القرار ينتهي بتطبيق البنود المتعلقة بإزالة ومراقبة الاسلحة المحرمة دولياً ولم يشترط اسقاط صدام.
٢- لم تتأثر الفئة الحاكمة بالحصار بل استفادت منه للاثراء من التهريب واصدار العملة المزيفة وتجارة العملة الخ.
٣- لم تتأثر هي سياسياً من الحصار بل استفادت بربط المواطن المتضرر منه يومياً لأنه صار اكثر اعتماداً على الدولة نظام التموين.
٤- تاريخياً يدعم الحصار الحكومات المستبدة (جنوب افريقيا وبنما «نوريغا» وروديسيا) فلم يُسقطها الحصار بل عوامل داخلية.
٥- التمسك بالحصار يعني اعتبار العامل الخارجي اساساً للتغيير وثبت خطأ ذلك عندنا.
٦- المعارضة موجودة قبل الحصار وانشط ميدانياً والنظام زاد قمع الشعب والمعارضة بعد الحصار.

لكل هذا على المعارضة رفع شعار مناهض للحصار والضغط عالمياً بأساليب متطورة لتشديد محاصرة النظام عسكرياً وسياسياً ودبلوماسياً ولمحاكمة صدام كمجرم حرب.

مقابلة مع سكرتير الحزب عشية الذكرى الستين لتأسيسه

أزمة الحزب، المؤتمر الخامس، الانتفاضة، التحالفات

في النصف الثاني من شباط الماضي ألتقت «الثقافة الجديدة» الرفيق حميد مجيد موسى، سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي، في حوار تناول خلفية المؤتمر الوطني الخامس للحزب والاجواء التي سادت مداولاته وأهم النتائج التي توصل اليها، والاوضاع في العراق ومواقف الحزب منها.

ث.ج: بودنا ان يبدأ الحديث باوضاع الحزب قبل انعقاد المؤتمر الخامس، وانعكاساتها على التحضير للمؤتمر.

- كما تعرفون انعقد المؤتمر والحزب في اوضاع صعبة في كل الميادين، السياسية والفكرية والتنظيمية. ما جرى في العالم من تحولات كاسحة كان لا بد له ان يؤثر تأثيراً كبيراً على وضعنا الفكري داخل الحزب. كنا نعاني من أزمة، والاحداث عمقت هذه الازمة التي لم يعد حول وجودها خلاف. ما حصل في العالم من انهيار التجربة السوفيتية لبناء «الاشتراكية» وانهيار الاتحاد السوفييتي، وكذلك النموذج السوفييتي لبناء «الاشتراكية» في اوروبا، كل ذلك هزّ الكثير من القناعات. وتنوعت ردود الفعل على هذا الزلزال. كان رد فعل البعض له طابع المحاكاة الميكانيكية داعين الى نقل ما جرى في احزاب البلدان المعنية وغيرها الى حزبنا دون الاخذ بعين الاعتبار ظروفنا وملموسيات عملنا ونشاطنا وتاريخ حزبنا النضالي. كانت تطرح امور بعيدة جداً عن امكانية تطوير عمل حزبنا واصلاحه. ويمكن القول ان بعض الطروحات كانت ذات طابع عدمي اكثر منها محاولة جادة ذات منطلق منهجي ماركسي لاصلاح الحزب. ومن تابع ما نشر في «ث.ج» تحت باب «نحو المؤتمر الخامس.. آراء ومناقشات» يستطيع تلمس مثل هذه الطروحات،

حتى باسم رفض الاستنساخ والتهيئة الفكرية كان البعض يدعو، من الناحية العملية، الى الاقتداء بما جرى مثلاً في جيكوسلوفاكيا وألمانيا الديمقراطية والاتحاد السوفييتي. وكانت تلك بوجه عام ردود فعل اكثر منها استخلاصات منطقية متوازنة من تجربة كبرى.

ث.ج: امثلة ملموسة على تلك الطروحات؟

- الدعوات لحل الحزب، او الى تقديم استقالة جماعية من قبل قيادة الحزب، أو التخلي عن المبادئ العامة للحزب، والتخلي عن الاشتراكية الخ. ترى هل كانت هذه الطروحات دروساً صحيحة مما حدث أم كانت اشبه بمعالجة الأزمة بتصفية الحزب كمؤسسة وكيان سياسي له طابعه الفكري؟

أما رد الفعل المعاكس فتمثل في النظر الى انهيار النموذج السوفيتي وكأنه حصيلة مؤامرة امبريالية ـ صهيونية، وبالتالي لم تكن هذه الطروحات ترى العوامل الحقيقية الداخلية مثل الخلل الجدي في النظرية وفي الممارسة بشأن ادارة الدولة والاقتصاد وشكل التعامل مع الناس. اصحاب هذه الطروحات كانوا يدعون الى ابقاء كل شيء على ما درجنا عليه. هذ التيار منشدّ الى الماضي يحاججك بالتاريخ وامجاد الماضي. وكان موقفه يعارض بهذا الشكل أو ذاك واحياناً بصورة غير واعية، كل صيغة للتجديد. كان البعض يعتبر التجديد اتجاهاً تصفوياً، أو مساوياً للغورباتشوفية، وكأن البيريسترويكا هي المحاولة الوحيدة لتجديد الماركسية، في حين ينبغي ان نفهم التجديد على انه لصيق بجوهر الماركسية، وينبغي ان يكون عملية مستمرة. لحن التجديد ارتفع نتيجة الأزمة التي عاشها الفكر الماركسي ونموذج بناء الاشتراكية، بما في ذلك الجمود الذي هيمن على البحوث، فأدى ذلك الى احياء عملية التجديد الذي اتخذ صيغة البيريسترويكا في الاتحاد السوفييتي. وما زال هناك من يعتبر تلك الصيغة مشروع ارتداد أو انحراف من بدايتها. والواقع ان البيريسترويكا لم تكن بمعزل عن العناصر السليمة الاصيلة في تفكيرها والتي تحسست أزمة المجتمع السوفييتي ومظاهر الركود العميق في الاقتصاد والهوة العميقة بين النخبة الحاكمة والمواطنين. وكانت تلك العناصر تبحث عن حلول قبل ان يبرز غورباتشوف، عن حلول في اطار التجربة السوفييتية. وكان لدى البعض فهم جديد للاشتراكية. وكانت تلك المحاولات تجري ضمن صراع يعكسه العديد من الوثائق والمقابلات الصحفية مع قادة حزبيين.

تلك هي باختصار بعض ملامح الظروف التي عاشها الحزب فكرياً. وكان على الحزب ان يقدم اجوبة فكرية، وان يواجه حالة الاحباط والجزع التي سادت شعوبنا جراء انهيار الاتحاد السوفييتي الذي كان حليفاً فعلياً للبلدان العربية. فغيابه عن الساحة الدولية

نلمس اثاره مثلاً في قبول الحلول الجاري تدبيرها للقضية الفلسطينية في ظل توازن القوى المختل لصالح امريكا وحليفتها اسرائيل. وانعكس هذا ايضاً على اوضاعنا نحن.

تجربتنا دامية مع الدكتاتورية، خسرنا الكثير جداً، كان نصيبنا كبيراً من عبء التصدي لنظام صدام حسين. في ملفات الأمن التي استولى عليها رفاقنا خلال انتفاضة آذار المجيدة نجد ان الجزء الاكبر من اهتمام اجهزة الأمن مكرس لمحاربة حزبنا. القمع الضاري ألحق بالحزب اضراراً فادحة انهكت منظماتنا وحالت دون قدرتنا على تحقيق نجاحات بارزة فيما كان الناس في حالة من القنوط والترقب وانتظار انجازات تحيي الأمل من قبل حزبنا وغيره من قوى المعارضة. ذلك عامل موضوعي يؤدي عدم اخذه بنظر الاعتبار الى شطط في التحليل والطروحات.

ث.ج: في حديثكم عن أزمة الحزب ركزتم على آثار انهيار النموذج السوفييتي وانهاك منظمات الحزب تحت ضربات اجهزة الدكتاتورية. ويمكن اضافة عوامل أخرى في توليد وتعميق الأزمة، منها التخلف الفكري وسيادة نمط التفكير القديم خصوصاً في قيادة الحزب. وقد ابتعد المؤتمر، مرغما كما يبدو، عن تقييم سياسة الحزب للفترة بين المؤتمرين الرابع والخامس، ولا سيما تقييم تجربته في الكفاح المسلح الذي انتهى عام ١٩٨٨ بهزيمة وصفت في حينها بإنها هزيمة عسكرية، لكنها كانت هزيمة سياسية ايضاً، ترتبت على تلك الهزيمة اشكاليات معقدة. صحيح ان قضية تجديد الفكر هي فوق طاقة المؤتمر وليس من الصحيح حسمها بالتصويت. ولكن القيادة قصرت في تخليها عن التقليد السابق باعداد وثيقة أو دراسات أو اجراء مناقشات تسبق اجتماعات اللجنة المركزية والمؤتمر، ويشارك في هذا الجهد كوادر ذوو اهتمامات فكرية. نتصور ان المكتب السياسي، وحتى اللجنة المركزية منشغلان في المهام التنظيمية والسياسية. وقد عجزا عن الايفاء بالمطلب الفكري. وهذه ليست المرّة الأولى. ألا نستخلص من هذا ان الحزب بحاجة الى هيئة لادارة العمل الفكري، ولا يمكن الجمع بين المهام اليومية والمهام الفكرية؟ لماذا لم يحدد الحزب تشكيل اللجنة الآيديولوجية بعد حلّها؟

- لا بد من القول ان الحديث عن أزمة الحزب عندنا بدأ قبل الآثار السلبية للبيريسترويكا. تقرير اللجنة المركزية للمؤتمر يتضمن جوانب تقييمية. مركز ثقل النقاشات تمحور حول القضايا الآنية الملحة. ولكن لم تهمل قضايا أخرى ذات طابع تقييمي لسياساتنا. في مناقشاتنا قبل المؤتمر طرح رأي بأعداد وثيقة تقييم مستقلة لسياسة الحزب منذ المؤتمر الرابع، أو منذ انتقالنا الى معارضة النظام، أو منذ ١٩٥٩، بل منذ تأسيس الحزب حتى الآن. ثم استقر الرأي على ان من مهام التقرير السياسي المقدم للمؤتمر ان

يتناول بالتقييم سياسة الحزب. ولذلك نجد فيه وقفات عند المحطات والملامح الاساسية لسياسة الحزب منذ المؤتمر الرابع، كمواقفنا تجاه الحرب مع ايران وغزو الكويت وكذلك مسألة الكفاح المسلح التي تتباين الاجتهادات حولها. تقرير ل.م استصوب خوضنا للكفاح المسلح بوجه عام دون الدخول بتفاصيل وافية. مجّد التقرير حركة الانصار وتراثها. لكن هذا، حسب قناعة الجميع، غير كاف، أي اننا بحاجة الى التحليل التفصيلي عن الجوانب التطبيقية والسياسية والفكرية للحركة. كان المؤتمر عاجزاً عن انجاز هذه المهمة. فاتخذ قراراً بتشكيل لجنة لمواصلة البحث في حركة الانصار من رفاق مساهمين فيها، وهكذا لم يُستنفد النقاش حول المسألة.

ث.ج: عند تعدد وجهات النظر حول قضية ما، لا ضرر من تلخيص مختلف الآراء في التقرير، ولهذه الممارسة اهميتها في القضايا الفكرية، حيث لا نهاية للتعدد والنقاش. أما في القضايا العملية فيصدر قرار واحد، يمثل احد الخيارات، وفي القضايا الفكرية لا معنى للتصويت. مثلاً كان على ل.م ان تلخص النقاش الذي دار في المؤتمر حول البيريسترويكا وانهيار النموذج والاتحاد السوفييتي مما أدى الى تعميق الأزمة الفكرية. كان هناك في السابق مرجع فكري عنوانه الماركسية اللينينية، وأطر ثابتة مثل الأممية البروليتارية والمركزية ـ الديمقراطية، المعسكر الاشتراكي بمواجهة المعسكر الرأسمالي، التوجه الاشتراكي، مثلاً. لكن بعد انهيار النموذج السوفييتي انهارت المسلمات جميعاً. وما دام المؤتمر قد اقر حق الاقلية في نشر رأيها كان على التقرير ان يلخص هذا الرأي ولا يقتصر على نشر رأي الاغلبية.

ـ لم تكن هناك خشية من التصريح بوجود آراء واجتهادات مغايرة حول سياسة الحزب وتقييمها. حاولنا في النشرة الداخلية الصادرة عقب المؤتمر تلافي النقص الماثل في التقرير. فلخصت النشرة مختلف الآراء والطروحات. مثلاً بشأن تسمية الحزب، فلم يعد هناك من يتهم الداعين الى تغيير اسم الحزب بالانحراف. حاولنا في المؤتمر كبح بقايا النزعة السابقة في وصم الرأي المخالف بالتحريفية أو الانتهازية. سعينا لتوفير حرية طرح الرأي للجميع. في النشرة نجد ايضاً تلخيصاً للاراء الاربعة التي تبلورت حول موقفنا من «المؤتمر الوطني العراقي الموحد». الاول مع مواصلة العمل معه وانتقاده. الثاني يدعو للانسحاب منه فوراً، باعتباره مشروعاً امريكياً. بين هذين القطبين تبلور رأيان: احدهما يرى تجميد علاقتنا بالمؤتمر مع تقديم مذكرة تطالب بالاصلاحات السياسية والتنظيمية. فأن لم يستجب المؤتمر الوطني ننسحب منه. الخيار الرابع رأى المباشرة بتقديم مذكرة انتقادية تطالب باصلاحات سياسية وتنظيمية ومالية وفي ضوء رد المؤتمر (مع الترويج

لرأي حزبنا) تتخذ اللجنة المركزية ما تراه مناسباً للعلاقة مع المؤتمر.

أما بشأن الآراء والخيارات الخاصة بتقييم سياسة الحزب فلم تكن هناك اشكالات أو حساسية حول نشرها. لنأخذ مثالاً آخر حول موضوع الماركسية، كانت هناك عدة خيارات على الصعيد الفكري، احدها يرى اعتماد الماركسية - اللينينية، الآخر: يقترح المنهج الماركسي - اللينيني. الثالث يرى اعتماد النظرية الماركسية اللينينية «ومسألة المنهج والنظرية كانت مدار النقاش»، الرابع طالب بتثبيت النظرية الماركسية، الخامس اقترح الماركسية عموماً، والسادس كان الى جانب، المنهج المادي الجدلي والتاريخي، آخرون ارتأوا اعتماد الاشتراكية العلمية عموماً. وهكذا كان النقاش في مؤتمرنا يتمخض عن اكثر من رأي حول كل قضية.

في القسم المتعلق بالوضع العالمي تناول التقرير السياسي الصادر عن المؤتمر خلفيات وعوامل وعواقب انهيار النموذج والاتحاد السوفييتي، وصار هناك اتفاق في المؤتمر على توجيه نقد الى ل.م لعدم تكريس احد اجتماعاتها لبحث هذا الموضوع. والواقع ان ل.م. كانت قد قررت تخصيص احدى دوراتها لهذا الشأن الخطير: لكن بسبب الوضع التنظيمي، الذي اشرت الى أزمته، عجزنا عن بلورة وثيقة فكرية متكاملة على اساس ورقة عمل تطرح على الكوادر للمناقشة ومن ثم يصار الى تلخيص المناقشة من قبل ل.م البعض رأى ان معالجة هذا الشأن في المؤتمر فوق طاقته. صحيح اننا لم نوكل الى هيئة مختصة معالجة القضايا الفكرية التي تواجه المؤتمر، لكن هذا لا يعني ان الوثائق التي طرحت امام المؤتمر خلت من هذه القضايا، فالمؤتمر شخص الضعف في عملنا الفكري والحاجة الى توظيف كل طاقات الحزب الفكرية، وبالاساس مفكري الحزب، وقد حاولنا ذلك سابقاً في اطار اعداد البرنامج، لكن مشاريع جيدة وضرورية لم تتحقق سواء بسبب اساليب عملنا أو بسبب العلاقات الشخصية. التقصير حقيقي في تعبئة الطاقات الفكرية، ولكن الآن ما العمل؟ امامنا قضية كبيرة، فالمؤتمر لم يستوف بحث المسائل الفكرية، ولا يمكن استيفاؤه اصلاً. في نيتنا تعزيز النشاط الفكري. ونحن ننتظر من رفاقنا وبخاصة المثقفين، ان يساهموا في تلافي هذه الثغرة التي يعاني منها الحزب.

نعود الى الفترة التي سبقت المؤتمر. فلا بد من القول انه كانت هناك مخاوف عند البعض من عقده متسائلين ان كان يساعد اصلاً على خروج الحزب من الأزمة أم يفاقمها. وكان هناك رأي يقول ان الظرف غير ناضج لعقد المؤتمر، ورأي آخر مفاده ان المؤتمر يجب ان يسبقه انجاز هام.. كانت مثل هذه الآراء موضع نقاشنا ونحن نتهيأ للمؤتمر.

ث.ج: النظام الداخلي يلزم الحزب بعقد المؤتمر في موعده. كان ذلك النقاش، بمعنى ما،

مخالفاً للنظام الداخلي،، المؤتمر ضروري لمتابعة نشاط الحزب وقيادته وذلك بصرف النظر عن وجود أزمة. هذا باستثناء حالات لا يستطيع الحزب فيها ايصال المندوبين الى المؤتمر وعقده في مكان ملائم.

ـ هذا صحيح. فالنقاش كان يعبر عن الأزمة التي عاشها الحزب، ولكن الرأي الذي ساد في النهاية هو ان معالجة الأزمة هي من أهم مهام المؤتمر. ففيه يمكن تفعيل العقل الجماعي للحزب. وبعد جهد جهيد انتهينا من التغلب على المعوقات التي تواجه تحقيق الشرعية الحزبية، بحيث يكون المؤتمر ممثلاً لكل مواقع عمل الحزب وتفعيل الديمقراطية الحزبية بأوسع ما يمكن. لم نستثنِ من مبدأ انتخاب المندوبين للمؤتمر سوى منظماتنا التي تعمل تحت كابوس الدكتاتورية واجهزة أمنها. وحتى بالنسبة لهذه المنظمات لم يجرِ تشخيص مندوبيها بمعزل عن المشاورات بحيث يكونون الاكثر تعبيراً عن وجهات نظر ومزاج العاملين هناك. وكما تعرفون فان انتخابات المندوبين في كردستان تخللتها صعوبات غير قليلة خاصة بالارتباط مع نشاط الجماعة التي انشقت عن الحزب في اربيل تحت شعارات قومية. فالقضية القومية وجدت انعكاساتها في النقاش الطويل الذي دار حول كيان وصلاحيات الحزب الشيوعي الكردستاني ـ العراق.

كانت النية متجهة الى عقد المؤتمر في صيف ١٩٩٢. لكن التعقيدات، والنقاش الطويل حولها، أدت الى عرقلة التحضيرات وتأجيل المؤتمر حوالي السنة.

اذن، انطلقنا من قناعة بضرورة عقد المؤتمر وان تأجيل عقده ضار بالحزب. وكذلك كانت لدينا قناعة ان المؤتمر لا يمكن ان يحل كل الاشكالات، بل يجب ويمكن ان يمهد لمعالجتها باتجاه صحيح، والا فاننا مقدماً نحكم عليه بالفشل. هناك مثلاً قضايا فكرية لا المؤتمر، ولا الحزب، مؤهل لاعطاء الكلمة النهائية بشأنها. فهي قضايا تشغل بال العالم كله، وهذا ينطبق ايضاً على عدد من قضايانا التنظيمية والسياسية. فالمهم طرحها لنقاش دون شرط الحسم داخل المؤتمر. ولكن عدم طرح مهام تعجيزية امام المؤتمر يجب ألا يؤدي الى تقزيمه، لان البعض كان يرى ان يقتصر عمله على معالجة القضية التنظيمية، ولكن كيف يمكن للحزب أو لقيادة جديدة ان تعمل دون اقرار خط سياسي سليم وشعارات مناسبة وبرنامج للمرحلة؟

كانت لدينا قضايا متأزمة على صعيد حياة الحزب الداخلية والعمل القيادي. ومن الصعب حلها بغير شرعية المؤتمر، كانت هناك مقترحات مثل حل اللجنة المركزية، أو استبعاد قسم من اعضائها. ولو جرى العمل بمثل هذه المقترحات لتولدت ردود فعل لغير مصلحة نشاط الحزب الطبيعي لاحقاً. لذلك بحثنا عن سبل تلافي ما يضر بالحزب ويساعد على تماسك الحزب في ظرف مثل الذي نعيشه. وكان المؤتمر هو الاجراء الشرعي

الكفيل بمعالجة القضايا المتأزمة على صعيد الحياة الداخلية ولا سيما العمل القيادي.

تلك هي خلفية المؤتمر. وهي معقدة، ويمكن الاسترسال في تفاصيل أخرى. لا بد من التأكيد ان المؤتمر سادته اجواء من الحرية والمكاشفة الحقيقية. ولم تنقص المؤتمرين الجرأة والمصارحة. فاشبعوا كل قضية مطروحة في جدول العمل بالنقاش. استمر المؤتمر اسبوعين بمعدلات تصل احياناً الى اكثر من ١٢ ساعة. وطول الفترة يعكس عدم التحضير الكافي لبعض الامور، لكن الديمقراطية كانت متوفرة، حسب اعتقادي. واظن ان هذه هي قناعة جميع الحاضرين.

سعينا ألا نعالج الامور العقدية المطروحة بنعم أو لا ، أو الخيار مع وضد فقط. طرحت الافكار بحرية وانبثقت خيارات بعد ان اخذ النقاش مداه بكل تنوع الآراء. وكان من حق المندوب ان ينتقل من خيار الى آخر حسب قناعته. وهي طريقة أكثر ديمقراطية، لم نعتمدها سابقاً. اشبعت نقاشاً القضايا العقدية، السياسية منها وبعض القضايا الفكرية للنظام الداخلي والبرنامج. وباستثناء بعض التوترات المفهومة عند مناقشة قضايا مصيرية يحتدم حولها النقاش ويرتفع الصوت، سادت الجدية والحماس والشعور بالمسؤولية في المناقشة. بهذه الطريقة صيغت القرارات بما هو أنسب وأصلح للحزب. لم تُستثنَ قضية هامة من النقاش، ولم يحرم أي مندوب من ابداء الرأي. فاذا اقتنع المؤتمر ان البتّ فيها ناضج يبت بها، واذا اقتنع ان تأجيل البت هو الانسب، كان له ذلك.

ث.ج: بعض الآراء تقول ان المؤتمر لم يجدد الحزب بما فيه الكفاية، ويرى البعض الآخر ان المؤتمر لم يجدد على الاطلاق.

- اعتقد ان الامور نسبية. في بداية كلامي اشرت الى اننا لم نضع على عاتق المؤتمر مهمات خارقة. كان الجهد ينصب على انجاز شيء متواضع، مثلاً، على صعيد تدقيق سياسة الحزب لتكون اقرب واكثر تجاوباً مع نبض الشارع العراقي، مع طموحات الناس، وذلك انطلاقاً من معايشة ومن فحص وبحث جاد حول ما يؤرق الناس ويشغلهم، كموضوع الحظر الدولي والفيدرالية وتحالفاتنا. قد توجد في وثائق الحزب وفي بنية القيادة الجديدة جوانب لا ترقى الى الطموح، وهنا تلعب المشاعر الشخصية دورها في التقييم. فلدى كل فرد رؤيته الخاصة للامور. لم ينجز المؤتمر كل ما نطمح اليه هذا صحيح ولكنه نجح في انجاز مهامه المتواضعة التي تدل على ان الحزب جاد في اصلاح نفسه، جاد في ان يكون اكثر واقعية وبعداً عن الجملة الثورية الصاخبة، جاد في النظرة الانتقادية لكل جوانب عمله دون تردد أو محرمات مسبقة، جاد في استلهام دروس التحولات التي جرت في العالم. فعملية التجديد كبيرة ومعقدة، ولها مداخل وتصورات عديدة ومختلفة. نجحنا في

جعل فكرة التجديد، على الاصعدة المختلفة (حتى نكون في مستوى متطلبات العصر وغير متخلفين عن حركة المجتمع) فكرة مقبولة بصورة عامة ولا تخضع للابتزاز والارهاب الفكري والاتهام بالتحريفية والانتهازية. اعتقد ان هذه خطوات ايجابية وتوفر المناخ الصحي داخل الحزب والاجواء المريحة لكل عمليات البحث اللاحقة ولتطوير المفاهيم والمقولات بحيث يظل الحزب في الموقع الصحيح. وأشعر ان هذا غير قليل، على صعيد التنظيم كانت هناك في السابق قيود حقيقية سواء نابعة من النظام الداخلي أو الممارسات. الجو الآن في الحزب لا يؤدي الى خنق المبادرات وتقييد النشاط في المنظمات.

ث.ج: لكن المؤتمر اعتمد المركزية الديمقراطية اساساً للعلاقات داخل الحزب وخصوصاً بين القيادة والقاعدة. وقد اقترنت المركزية ـ الديمقراطية في التطبيق بالآمرية والبيروقراطية فاضمحلت الديمقراطية لصالح المركزية بهذه الدرجة أو تلك من الافراط، الى حد ما يسمى الستالينية. أهناك ضمان ضد عودة شكل من الستالينية الكامنة في صيغة المركزية ـ الديمقراطية، وفي تربيتنا الحزبية، وفي الثقافة السياسية العامة التي تفتقر الى الديمقراطية؟

ـ هذا الموضوع كان مدار نقاش طويل عريض في الحزب قبل المؤتمر واثناءه. ما نضج في نقاشات المؤتمر وحظي بتأييد الاغلبية هو الفهم القائل ان المركزية ـ الديمقراطية ليست ستالينية بالضرورة، فلا هي تأريخياً ارتبطت بستالين، ولا المفهوم الستاليني هو الوحيد للمركزية ـ الديمقراطية. خلال النقاش، وفي وثائقنا، سعينا ان نفهمها كنقيض للستالينية في التعامل. انطلقنا من ضرورتها لحزبنا الذي يعمل في مجتمع متخلف. الرفاق الفرنسيون حذفوا المركزية ـ الديمقراطية من دستور حزبهم على اساس ان حزبهم يعمل في مجتمع متقدم ترسخت فيه مؤسسات المجتمع المدني والتقاليد الديمقراطية ومؤسساتها. ففي مجتمعهم لا تتحكم الانتماءات الطائفية والعشائرية والعائلية في الحياة السياسية.

نحن سعينا الى تثبيت ضمانات دستورية تمنع تحول المركزية ـ الديمقراطية الى مركزية بيروقراطية. فاعتمدنا مبدأ الانتخاب على مختلف الاصعدة. وهذه ممارسة جديدة عندنا من حيث المدى والشمولية. تخلينا عن ممارسة طرح قوائم للمرشحين وذلك في كل الانتخابات، بضمنها انتخاب اللجنة المركزية. اعتمدنا التصويت السري والفرز العلني للاصوات.وكذلك نحاول تثبيت قاعدة المشاورات الواسعة والاستفتاء الداخلي في المنعطفات التي تتطلب قراراً من القيادة. ثم ان المؤتمر قلص صلاحيات الهيئات القيادية. فتحول السكرتير العام الى سكرتير اللجنة المركزية لا يعلو عليها أو يتحكم بها. وقلصنا صلاحيات المكتب السياسي لصالح اللجنة المركزية لتكون القائد الفعلي ولهذا الغرض زيد

عدد اجتماعاتها. وأعطيت مختلف المنظمات الحزبية صلاحيات أوسع من ذي قبل، بحيث يمكن أن تنجز كل ما يتعلق بمواقع عملها من مهام لتنفيذ سياسة الحزب مع المساهمة في رسم هذه السياسة. وألغى النظام الداخلي الجديد الحلقات الوسطية في البنية التنظيمية من اجل تعزيز دور القاعدة الحزبية بتقريب صلتها بالقيادة. الكونفرنسات والاجتماعات الموسعة أخذت الآن دوراً أكبر في حياة الحزب، مما يساعد في نفس الوقت على اشاعة العلنية ويقلص حصر القرار بالهيئات القيادية. وقلص النظام الداخلي الفترة بين المؤتمرات، وجعل عقد الكونفرنسات ألزامياً خلال سنة ونصف واصبح من حق الاقلية الدعوة الى آرائها في صحافة الحزب.

كل هذه الضوابط والممارسات من شأنها الحيلولة دون تحول المركزية ـ الديمقراطية الى مركزية آمرية بيروقراطية، ومن شأنها اتاحة امكانية واسعة لتقييد المركزية بالديمقراطية فعلاً. وبهذا الفهم تكون مركزيتنا الديمقراطية بعيدة عن الستالينية.

ث.ج: من الواضح ان تعاون جميع القوى المعارضة للدكتاتورية ضروري للاطاحة بها ويمهد لبناء عراق ديمقراطي من خلال علاقات التسامح والحوار السلمي بين مختلف التيارات الماثلة في مجتمعنا. وفي سياق ذلك ترتدي العلاقة بين القوى الاسلامية والقوى العلمانية، بما فيها حزبنا، أهمية خاصة، واسهمت «الثقافة الجديدة» بقسط متميز في العمل من اجل ارساء تقاليد الحوار الايجابي مع القوى الاسلامية وغيرها. ولكن البيان الصادر عن المؤتمر الخامس فاجأنا إذ وصفها بالظلامية. فكيف نفسر هذا الانعطاف في خطابنا؟

ـ لا ريب ان هناك خطأ في الصيغة الواردة في البيان. فهي كما تلاحظون تختلف عما في التقرير السياسي الصادر عن المؤتمر. فللأسف لم تدقق صيغة البيان. وهذه العبارة لم تعكس تصورات المؤتمر، فقضية العلاقة مع الاحزاب الاسلامية والاسلام السياسي نوقشت في المؤتمر. ولنا علاقات سياسية وعمل مشترك معهم، نتطلع الى تمتين هذه العلاقة وارسائها على اساس ديمقراطي. ونحن نتطلع الى ان تتغير النظرات والحساسيات بما ينسجم مع نضالنا من اجل الخلاص من كابوس الدكتاتورية، من اجل ان يعيش الشعب العراقي، بعد إزالة نظام صدام حسين، في اجواء من التسامح والاستقرار، وان تأخذ كل القوى السياسية، ومنها حزبنا والاحزاب الاسلامية، كامل الحق في النشاط السياسي وفي الدعاية لأفكارها وتصوراتها وسياستها. وهذا ما اوضحناه لممثلي المجلس الاعلى للثورة الاسلامية في دمشق. أكدنا لهم ان رأي وموقف المؤتمر واضح في تقريره السياسي الذي سيصدر. ولذلك نشروا كلمة في جريدة «نداء الرافدين» رداً على توصيف الظلامية دون

ذكر الحزب الشيوعي. أما حزب الدعوة فقد استثمر الخطأ في البيان ليشن علينا حملته دون ان يستجلي حقيقة موقفنا.

نحن نفهم صعود الاسلام باعتباره رد فعل لتفاقم أزمة البلدان المعنية، والأزمة السياسية والفكرية في حركة التحرر التي، بسبب اخطائها الذاتية والظروف الموضوعية، فشلت في تحقيق بديل وطني ديمقراطي لاخراج بلدانها من الأزمة الشاملة. لكننا لا نرى المخرج من الأزمة في اقامة نظام دكتاتوري باسم الاسلام كما في السودان، ولا في الاحتراب المدمر بين الاطراف الافغانية، وكلها تتسمى بالاسلام. ولا يمكن لنا كحزب الا ان ندين الاغتيالات التي يقوم بها «الافغان العرب» وامثالهم ضد من يخالفهم الرأي، ونعتبر مثل هذه الممارسات والتوجهات ظلامية حقاً. لكن هذا التوصيف لا ينطبق على نشاط قوى اسلامية ضد الدكتاتوريات من اجل الحرية وحقوق الشعب والديمقراطية. وجدير بالذكر ان الجدل حول الديمقراطية يتسع في صفوف الاسلاميين بين من يدعو الى الديمقراطية، ومن يعتبر الشورى ديمقراطية، ومن يرفضها جملة وتفصيلا.

أما بالنسبة للعراق، فبودي ان اعبر مجدداً عن اعتزازنا بكفاح القوى الاسلامية ضد الدكتاتورية وتضامننا مع معاناتها على يد النظام الفاشي، وحين لا ننكر الخلافات الآيديولوجية معها، فاننا نعمل على ابقاء هذه الخلافات في اطار الحوار البعيد عن روح المهاترة واحتكار الحقيقة والارهاب الفكري. فهذا ضروري لنجاح العمل المشترك ضد الدكتاتورية وفي سبيل النظام الديمقراطي الذي لا بديل عنه لخلاص شعبنا من الاحتراب والجوع والاستلاب.

ث.ج: في إطار التحالفات ايضاً ننتقل الى مسألة العلاقة مع المؤتمر الوطني العراقي الموحد. ويودنا الاشارة الى قرار المؤتمر بتقديم مذكرة تتضمن، من بين مطاليب أخرى تحديد الموقف من قضية الارتهان بالعامل الخارجي، وقضايا المالية، وقضايا ذات طابع تنظيمي، وهناك تقدير ان المؤتمر الوطني العراقي الموحد لا يمكن ان يتخلى عن هذه الوجهة، وبالتالي فان موقفنا الراهن من المؤتمر هو مقدمة لعملية انسحاب أو تجميد لنشاط الحزب فيه.

- تحدثت عن الخيارات التي تبلورت خلال مناقشة هذه القضية في المؤتمر الخامس، لا حاجة لتكرار الحديث عن ذلك. التجربة تكشفت عن كون المؤتمر الوطني الموحد، في عمله ومنهجيته، لم يلب مطامحنا، بل بالعكس كان، في بعض الاحيان، مخيباً للآمال. وليس هو حسب تصورنا القيادة الكفوءة والفعالة لتنظيم مقاومة الشعب العراقي. ولهذا قدمنا مذكرتنا من منطلق العمل لاصلاح هذه المؤسسة. طبعاً نحن نعتقد ان الجهة المؤهلة لقيادة نضال المعارضة والشعب العراقي، ينبغي ان يكون لديها برنامج سياسي واضح يستند الى

العامل الداخلي، ولا تقع في وهم الاعتماد على قوى اجنبية لتحرير العراق، وتتعامل مع العامل الخارجي كما لو انه العامل المقرر، بالرغم من تقديرنا لتزايد أهمية العامل الدولي خصوصاً في السنوات الاخيرة. غير اننا نرى ان هذا العامل يبقى، في كل الاحوال، عاملاً مساعداً اذا احسنا الاستفادة منه، مع معرفة تعقيداته وخصوصياته. هذا جانب سياسي، .ما الجانب التنظيمي فيعني ان الادوار في المؤسسة ينبغي ان تنسجم مع قابليات الاحزاب ومساهماتها الحقيقية وتضحياتها. وبالتالي فان تركيبة القوى في المؤتمر أو في اية جبهة أو تحالف يجب ان تنطلق من الرغبة في تحريك الجماهير، في العمل على ارض العراق، في العمق، وليس ممارسة السياسة عن بعد شاسع. ولهذا طرحنا قضية نقل مركز ثقل النشاط المعارض الى الارض المحررة في كردستان، ومن هناك نعمل على اقامة الصلات والروابط مع العمق، ومباشرة النشاطات الميدانية ذلك لانه بدون تحول الجبهة الى قيادة ميدانية على احتكاك وصلة بالجماهير، والجيش ومؤسساته، وبالتطورات الفعلية، يصعب عليها ممارسة دور قيادي فاعل. وهذا يتطلب ايضاً خطاباً سياسياً جديداً يتحسس آلام الجماهير ومعاناتها، ما دمنا نعتمد الجماهير كسدى ولحمة عملنا لاسقاط الدكتاتورية واقامة البديل الديمقراطي. ان خطابنا السياسي يجب ان يساعد على ردم الثغرة القائمة بين الجماهير المعارضة، واعادة الثقة بالمعارضة الى الجماهير. ويترتب على ذلك ايضاً فحص السياسة الاعلامية، وتخصيص الموارد المالية للفعل الحقيقي، وان تعرف مصادر هذه المالية للمؤتمر، أي من أين تأتي وكيف تصرف، وان لا تبقى قرارات التصرف بالمالية، والقرارات المتعلقة بالعلاقات الجبهوية ملكاً لشخص مهما كان كفوءاً ومؤهلاً. أي ان العمل يجب ان يكون عملاً مؤسساتياً والا فأين الديمقراطية التي نرفعها جميعاً شعاراً واسلوباً؟

لقد تضمنت مذكرتنا مثل هذه الحقائق والتساؤلات، وقد سعينا من خلال هذه المذكرة الى مخاطبة الجميع، كل المعارضة العراقية، وليس لجهة أو لشخص بعينه. ولهذا لم يكن تقديم المذكرة بمعزل عن نشاط جماهيري وسياسي، شارك فيه الالوف من الناس في الاستفسار عن سياستنا ومناقشة توجهاتنا، وقد ساهمت في تلك الحملة الواسعة ايضاً وسائل اعلامنا المختلفة، التي سعت، من جانبها، الى استطلاع الرأي العام، فضلاً عن اللقاءات مع قادة وممثلي الاحزاب والقوى السياسية. فنحن نطمح ونعمل على ان يتبنى الجميع تصوراتنا ومشروعنا لاصلاح الوضع. والحق يصعب عليّ القول بأن جهة من الجهات التي التقيناها لم تثر اشكاليات المؤتمر الوطني العراقي بطرق وأساليب مختلفة، أو لم تتناوله بالنقد من زوايا مختلفة. ان الجميع يطمحون الى التغيير، اما اذا كان مشروعنا، الذي نعتقده ناضجاً، يقابل بالسلبية أو عدم الاكتراث، فعند ذلك نقرر موقفنا. نحن لم

تقدم المذكرة لكي نمارس لعبة سياسية فوقية لتحسين المواقع، وانما لخلق مؤسسة فعالة قادرة على ان تسمي نفسها قيادة للشعب العراقي وبديلاً لنظام صدام حسين.

لقد وردتنا من المؤتمر اجابة على المذكرة تشير الى تفهم قيادة المؤتمر لمطاليبنا في الاطار العام، وتعبر عن استعدادها للنقاش بشأن القضايا المطروحة. هناك بالطبع قضايا ومقترحات يمكن تنفيذها فوراً، وأخرى تفترض انعقاد الجمعية العامة للمؤتمر. وفي ضوء متابعة التطورات ستقوم اللجنة المركزية لحزبنا في اجتماعها القريب القادم بدراسة الموضوع، وتقرر ما اذا كان رد فعل المؤتمر ايجابياً ام غير واف، وتقرر بالتالي العلاقة مع المؤتمر.

ويودي الاشارة الى ان اساس محاكمتنا لهذه القضية يستند الى مشروعنا العراقي المستقل، مع الفهم، بالطبع، لدور العامل الدولي، وللتغيرات التي طرأت على العراق ودول المنطقة جراء حرب الخليج الثانية. والمؤتمر بالنسبة لنا ليس هدفاً، وانما وسيلة لتحقيق مطامح الشعب، وهي صيغة نشأت عن قناعات اطراف وقوى في المعارضة العراقية. وتبقى هذه احدى الصيغ، فاذا كانت ملائمة، بمعنى انها تساعد على تفعيل العامل الداخلي، وتطبيق مشروعنا الوطني الديمقراطي العراقي الواسع، فنحن معها، واذا كانت تحول دون ذلك، فنحن لا نقدس صيغة معينة وانما نبحث عن صيغة جديدة. وليس هناك فيتو على جهد الحزب في ان يبحث عن كل ما يساعد الحركة الوطنية في ان تؤطر في اطار نضالي فعال يعتمد الشعب وجماهيره والجيش وكل الوطنيين الآخرين.

وبالمناسبة فاننا طرحنا مطاليب يقبلها الجو السياسي العام، وهي ليست مطاليب تعجيزية. ونحن لسنا مرغمين على تغيير قناعتنا، ارضاءاً لمشروع معين يتعارض مع مطامح ومصالح الشعب.

ث.ج: العراق الآن نضج الى حد يمكننا من تحديد خيارات التطور الاجتماعي. هناك، كما يبدو، مفارقة، فالآن توجد محاولة للفرز على اساس وطني أو لا وطني. فهل تعتقد ان هناك تياراً مثل هذا؟ ما هي أسسه ومسوغاته؟ وعلى ماذا يرتكز؟ ما هي طبيعة الحوار معه؟ هل هناك بعض التكتيكات لدى الحزب تسمح بنشوء مثل هذا التيار؟ وما هو رأي قيادة الحزب بهذا الموضوع؟ فكما نعرف كانت القضية الوطنية في العهد الملكي جزءاً من نضالنا الاجتماعي. وعندما انتقلنا الى حكم وطني معاد للامبريالية، اصبح طابع الخلافات الفكرية داخل الحزب هو كيف نمضي في وجهة التطور الاجتماعي، حتى تحالفنا مع حزب السلطة استند الى معيار وجود تحولات اجتماعية يجب ان ندعمها، واكتشفنا، فيما بعد، ان دعمنا لها كان على حساب الديمقراطية السياسية التي هي شرط للتطور

الاجتماعي. الوطن تعرض للخطر سواء خلال الحرب العراقية ـ الايرانية أو حرب الخليج الثانية. ولكن هناك، من ناحية ثانية، محاولة لدمج الوطن بالنظام، أي ان يكون كل منهما مرادفاً للاخر. يبدو لنا بأننا لم ننجح في التمييز بين النزعة الوطنية عند الجماهير الشعبية، وبين النزعة «الوطنية» عند النظام، فهناك حالات عديدة يحصل فيها «اندماج» بين النزعتين، وحالات أخرى يحصل فيها انفصال. ويجوز القول انه اثناء الحرب العراقية ـ الايرانية كان «الاندماج» حاصلاً بين النظام والقواعد الشعبية، دون الانتقاص طبعاً من القسر، وعنف الدولة الرسمي، ودور الديماغوجيا وما الى ذلك من عوامل معروفة. في الحالة الثانية لم يحصل هذا، وانما كانت هناك محاولة لاعادة الفرز من وجهة التطور الاجتماعي الى موضوعة: وطني أو لا وطني، وعلى اساس فهم ملتبس للوطنية، وفي ظروف المساواة بين الوطن والنظام. كيف تنظرون الى هذه القضية في قيادة الحزب، وما الذي يمكن استخلاصه منها؟

ـ هناك، في اعتقادي، اكثر من شكل أو احتمال للطرح. فهناك طرح تبسيطي يسعى، بقصد أو بدونه، الى مساواة النظام بالوطن، مع ان من يطرحون مثل هذا التفسير ينكرون مثل هذه المساواة عندما نجسّم لهم الفكرة. وهناك، من ناحية أخرى، اشكاليات تظهر في مجرى العمل، نتيجة التغيرات التي طرأت على الوضع العالمي، وكيفية التعامل مع متغيراته، كحرب الخليج وما أدت اليه من استقدام للقوات الاجنبية، والدور الامريكي في العراق، أي ان هناك مواقع ومنطلقات مختلفة في التعامل مع الموضوعة المطروحة. اذا انطلقنا من نظرة تبسيطية مستندة الى بعض مواقف النظام ضد امريكا (وهذا هو التبسيط بعينه) للاستنتاج ان النظام، بالتالي، وطني، نكتشف الخلل في فهم الوطنية. هل الوطنية هي مجرد عداء لامريكا في بعض المواقف مع التفريط في الواقع بمصالح الوطن لصالح الاستراتيجية الامريكية، موضوعياً؟ المنظور التبسيطي، الفوقي، منظور مؤذ، واعتقد انه عند الناس غير مقبول. لا اعتقد ان الناس، في ظل الحرب العراقية ـ الايرانية، الذين كانوا يتمنون الخلاص من صدام حتى لو أتى «الشيطان»، هم غير وطنيين، انما كان دافعهم هو الرغبة لرؤية الوطن مستقراً ومعافى من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. اللاوطني هو من زج الوطن في مذبحة أدت الى الدمار الهائل المعروف. فهل كان هؤلا الناس، بنواياهم النظيفة عملاء لأمريكا؟ وحتى بعد غزو الكويت، وفي الوقت الذي يدين فيه الناس الولايات المتحدة باعتبارها الساعية لابقاء صدام، كانت هناك لحظات جرى فيها انتقاد الحزب لانه يندد بمحاولات البعض الصعود الى دست الحكم على دبابة أمريكية. لننظر الى ما حصل في كردستان. القوات الحكومية تلاحق ابناء الشعب الكردي العزل، الجياع، وهم يلتجئون الى الجبال، ويأتي الامريكان

فيؤمنون لهم الغذاء والدواء، ويمنعون عنهم اسلحة صدام حسين الكيمياوية. فهل يمكن القول ان هؤلاء الذين احتموا بالولايات المتحدة من الموت المحقق ليسوا وطنيين، وان الوطني هو صدام؟ هل كان ينبغي لهذه الاحداث ان لا تؤثر في الناس؟ وهكذا فان علينا، من بين مهام أخرى، اقناع الناس بأن الامريكان، الذين ساهموا في انقاذهم من موت محقق على يد صدام، توافق موقفهم مع مطالب الناس، لكنهم يبقون ذوي مصالح واطماع امبريالية. هذه اشكالية تواجه الحركة الوطنية، ولن نستطيع معالجتها بكلمات مبسطة، الا اذا ارادت المعارضة ان تعزل نفسها عن الجماهير.

كانت لدينا سابقاً نظرة تبسيطية: كل من يعجب بالنظام الرأسمالي نضعه في خانة «العملاء». فهل هذه الصياغة مقبولة الآن، وفي وقت نتحدث فيه عن الحرية والتعددية وحق الجميع في ممارسة النشاط؟ هذه اشكالية أخرى يجب التصدي لحلها. فاما ان نكون جادين في بناء ديمقراطية تفسح الحرية للجميع، بمختلف اتجاهاتهم الفكرية، ومن ضمنهم المعجبون بنمط الحياة الرأسمالي، وهذا امر مختلف عن العمالة لجهاز المخابرات الامريكية، واما ان نخسر تلك القوى التي هي ضد الدكتاتورية وتدعو الى الديمقراطية، نتيجة بقائنا اسرى منظور تبسيطي قديم.

نحن مقتنعون الآن، ويتجسد ذلك في برنامجنا وسياستنا، اننا حين نتحدث عن الديمقراطية والتعددية فنعني بذلك حق الجميع بالتعبير عن آرائهم. أما الصراع داخل معسكر المعارضة من اجل بديل ديمقراطي وطني لبناء العراق، فهذا امر طبيعي ويجب ان يحل بطريقة سلمية، لا عنيفة، ووفقاً لشريعة الديمقراطية.

ان خلافنا مع بعض هذه الفصائل لا يبرر لنا اتهام منتسبيها بأنهم لا وطنيون، كما لا يحق لهم اتهام سياسة حزبنا باللاوطنية. يجب التمييز بين رد فعل مبسط، ورد فعل آخر يمكن مناقشته. ففي اطار الوصول الى مشروع عراقي وطني ديمقراطي للمعارضة لا يسعنا ان نرفض مثل هكذا رد فعل، يتصور ان الادوار يجب أن تختلف، مستنداً على خصائص تاريخ حركة المعارضة العراقية، وان هناك قوى لها مساهمة وتضحيات أكبر، وبالتالي فهي الاجدر في ان تحتل موقعاً متميزاً في قيادة المعارضة. نستطيع ان نناقش مثل هذه الوجهة. ولكن هناك من يرجع الى التصنيف السابق، بمعنى ان قوى من المعارضة العراقية يجب ان تحشر في الزاوية.

ومن ناحية أخرى، اذا اعترفنا بأن للحماية الدولية دوراً في ايقاف صدام حسين عند حده، فان هذا لا يعني ان الحماية الدولية هي التي صنعت الفيدرالية أو هذا الوضع في كردستان. فخط ٣٦ مثلاً يشمل مدينة الموصل، وهي ليست محررة من الدكتاتورية، ولكنه لا يشمل مناطق في السليمانية، ناهيك عن بعض مناطق كركوك، لكن هذه المناطق

محررة من الدكتاتورية. هذا يكشف لنا عاملاً آخر متمثلاً في ارادة الجماهير، ونضال القوى الوطنية.

ث.ج: القضايا التي تشار، في هذا الاطار، هي قضية ترسيم الحدود مع الكويت باعتباره انتهاكاً للسيادة الوطنية، ومناطق حظر الطيران والقيود المفروضة على التسلح العراقي، العقوبات المفروضة على العراق، الحماية الامريكية في كردستان، واتصالات المعارضة مع قوى خارجية حتى عربية تؤثر على عراقية القرار، وكل هذه النقاط تركز في بؤرة السيادة الوطنية، وعلى اساس ذلك يحصل فرز. ومن الناحية العملية يقلب الصراع العراقي برمته بوصفه صراعاً بين معارضة وشعب من جانب، وبين النظام من جانب آخر، ليصبح بين شيء مجرد اسمه وطن وشعب، وبين شيء خارجي يشكل انتهاكاً. بالمقابل نرى ان الحزب لم يطرح تصورات شاملة تفسر وتبرر مواقفه المختلفة من هذه القضايا.

- لا اتفق مع القول بأن الحزب لم يطرح تصوراته بشأن هذه القضايا، فوثائق الحزب تتضمن مواقف واضحة حول قضايا الحصار الاقتصادي، الفيدرالية، المناطق الآمنة، القرارات الدولية، لكن يجوز انها غير مصاغة كرد مباشر على طرح خاطئ، ثم انه ليس هناك وطن بدون شعب، وبهذا المعنى فان السيادة الوطنية هي سيادة الشعب. لا يمكن القبول بفناء الالوف المؤلفة لكي يسلم رأس النظام، باعتبار ان هذا هو الموقف الوطني الذي يصون السيادة الوطنية. ان ما يتضمنه التقرير السياسي المقدم لمؤتمرنا يعكس، في تقديري، تصور الحزب لمعاني الوطنية الحقة. فنستطيع، ان نقول بملء الفم مثلاً، ان هذه الفيدرالية التي رفعت كشعار والتي تبناها البرلمان الكردستاني، والتي أعلنا عن تبنينا لها قبل عام من تبني البرلمان الكردستاني لها، هي، في اطارها الحالي، ليست لتمزيق الوطن وتجزئة وحدته، لان أية وحدة تقام على أساس القسر هي الوحدة الشكلية التي تتعارض مع طموح الشعب لوحدة أصيلة ديمقراطية. فهل يعني تحقيق طموحات الشعب الكردي في اطار عراق ديمقراطي موحد هو اضعاف وتجزئة، أم ان هذا ينطلق من رؤية ان حق شعب في تقرير مصيره هو بعبع يجب عدم الاقتراب منه؟ ان الماركسي والتقدمي عموماً ينبغي ان يؤمن بما هو أكثر من فيدرالية. فالفيدرالية هي ليست صيغة امريكية. اما ان وجود ظرف دولي مؤات استجاب لطموحات شعب، فهذا لا يجعل الفيدرالية مشروعاً امريكياً.

ث.ج: في خطابه السياسي يؤكد الحزب دوماً على ان العمل داخل الوطن يحتل القسط الاكبر من اهتمامه خاصة وان الحزب يعوّل على العامل الداخلي في اسقاط

الدكتاتورية. طبعاً هناك العمل في كردستان المحررة في ظروف تختلف نوعياً عن العمل في العمق. ماذا عن منظمات الحزب في العمق؟ وثائق الحزب لا تتحدث عن هذا، ونادراً ما تصدر عن القيادة معلومات ملموسة بشأنها. وماذا عن مزاج الناس هناك، وموقفهم أو مشاعرهم ازاء الحزب؟ والجيل الشاب الذي تربى في مدارس الفاشية وتحت كابوسها، ولم يحتك بالشيوعيين شأن الجيل الذي سبقه، كيف ينظر الى الحزب، والى المعارضة عامة وما موقفه من العمل السياسي؟

- الحديث عن عملنا في العمق كان على الدوام مقتضباً جداً حتى لكأنه طلسم. ولم يكن ذلك محاولة لابعاد رفاق الحزب عن متابعة هذا الجانب الاساسي حقاً في عملنا. نحن على قناعة بان مهمة بناء تنظيمنا في عمق الوطن يجب ألا تقتصر على رفاق محددين ولا على هيئة بذاتها. كل رفيق، حيثما وجد، قادر على المساهمة بهذه الطريقة أو تلك في هذه المهمة. وقبل كل شيء يجب فهم القضية في اطارها الصحيح. فالمهم ألا يكون الاهتمام منصباً على عدد الخلايا أو الركائز التي استطعنا اقامتها في هذا الموقع أو تلك المدينة. الأزمة الحقيقية هي في الغيبة التي فرضت على الشيوعيين بعد تصاعد الهجمة عليهم في اواخر السبعينات، مما ابعدنا عن الاحتكاك والتأثير بالجيل الجديد. وهذا واقع لا ينكره احد. انه جيل لم يعرف من الاحزاب الا الحزب العفلقي. لكن وقائع انتفاضة آذار المجيدة كشفت عن نفور هذا الجيل منه. وهذا ما اعترف به حتى عدي بن صدام علناً. ونشهد في كردستان نفور هذا الجيل من النظام وحزبه بصورة جلية. ونحن لا ندعي ان فكرنا وشعاراتنا تغلغلت في صفوف الشبيبة. عملية بناء تنظيماتنا في العمق يجب التعامل معها في ضوء مسيرتها التاريخية منذ انتقالنا الى السرية. في البداية لم يكن بالوسع الاحتفاظ بأي ركيزة أو بيت أو طابعة أو أي من مستلزمات العمل السري. لا يكفي عطف الناس على الحزب. الأهم من ذلك تنظيمهم وتعبئتهم. كل خطوات بناء المنظمات تشبه البدء من الصفر في ظل دكتاتورية شرسة تحت تصرفها موارد هائلة ومجهزة بأحدث الوسائل واساليب لمكافحة خصومها كانت تحصل عليها من الشرق والغرب. صعوبات وتضحيات عملية بناء المنظمات ولدت رأياً يقول ان من العبث التفكير في اقامة منظمات للحزب في ظل الفاشية، وهو رأي يستند الى تجارب عالمية سبقتنا. والرأي الآخر كان يقول ان الطريق الى بناء منظمات الحزب يمر عبر التخلي عن سياستنا الهادفة الى اسقاط الدكتاتورية، لكي تتيح لنا هامشاً للنشاط الحزبي، فنكون قريبين من الجماهير. ولكن السؤال كان هل يتيح لنا النظام اي هامش للنشاط المستقل لتنظيم الجماهير حتى بمثل هذا الثمن السياسي الباهظ؟ رفضنا الانصياع لضغط هذين الرأيين وبذلنا جهوداً كبيرة لاعادة بناء الركائز والمنظمات الحزبية. وكانت هناك مآثر مجيدة

ونجاحات، وكذلك قدمنا خسائر وتضحيات كبيرة خلال هذه العملية الشاقة التي هي معركة غير متكافئة. فالاساليب بسيطة والامكانيات شحيحة مقابل عدو متنمر ليس لديه محرمات وتتوفر لديه موارد مالية ضخمة وفنية وبشرية وخبرة واسعة. الملفات والمجلدات التي استولى عليها رفاقنا اثناء الانتفاضة تحوي الكثير حول اساليب عمل حزبنا واساليب مواجهتها ومعلومات عن الحزب وكوادره وقيادته. ما بحوزتنا من ملفات أمنية بحاجة للنشر لزيادة الوعي باساليب النظام في محاربتنا. وحسناً فعلت «الثقافة الجديدة» بنشر بعض الوثائق الخاصة بخطط اجهزة الأمن لرصد المؤتمر الرابع تمهيداً لتوجيه ضربة جوية ماحقة تجهز على المشاركين فيه.

صفوة القول ان الحزب واجه حملة شرسة متواصلة. والحقيقة التي يجب ان تكون امامنا دائماً هي انه من الصعب جداً بناء تنظيم واسع وكفوء للفعل السياسي على نطاق العراق مع السلبية الجماهيرية وحالة الترقب التي تعيشها الجماهير. هذه معادلة معروفة نظرياً ونعيشها كل يوم. اذا كان هناك مزاج ثوري وقناعة بالعمل السياسي يسهل عملنا فتتوسع المنظمات وتترسخ والا فأمامنا نكبات. ولحد الآن عملنا الفعلي، بالرغم من نواقصه، لم يكن انتظارياً بل بالعكس احياناً ارتبطت خسائرنا بنوع من التحدي الزائد عن اللزوم والذي فرضه السؤال الذي كان يؤرقنا: أين الحزب وأين صوته في الداخل؟ فنجم عن ذلك احياناً استعجال في اعادة البناء، وقلة التأني في اختيار الرفاق للعمل في هذا الموقع أو ذاك. وكان بعض المناضلين في العمق يندفع وراء انجازات بسيطة تؤدي الى نتائج كارثية على عمله. الفرحة بالانجازات كثيراً ما انتهت الى مآسٍ تجرح اعمق اعماق الانسان.

ث.ج: هناك بالطبع تفاصيل يصعب تقديرها لغير الشخص الذي يعيشها . لكن هناك تجارب عالمية ومحلية ينبغي الاستفادة من دروسها . للايرانيين مثلاً قبل واثناء الانتفاضة على نظام الشاه تجربة غنية بالعبر. ثم هناك تجربتنا قبل واثناء انتفاضة آذار. بناء المنظمات أو الركائز قد يكون هو الغاية في مرحلة، وما ذلك الا لتفعيل هذه الركائز في اللحظة المناسبة. في بغداد التي سكانها حوالي خمسة ملايين إلا يكفي وجود ١٥ رفيقاً ينقطعون عن النشاط تفادياً لانكشافهم وانتظاراً للتحرك الجماهيري ضد الدكتاتورية، حينذاك سيتضاعف بسرعة عدد الذين يرتبطون بهم اثناء التحرك. المهم ان يكون الخمسة عشر رفيقاً مجهزين بالتوجيهات أو بخطة للتحرك بين الناس عند اندلاع انتفاضة. وهذا احتمال ظل ماثلاً طيلة ١٣ سنة من العمل في الخارج. فكيف تصرف الحزب والقيادة عند اندلاع انتفاضة آذار؟ وكيف سيتصرفان عند وقوع احداث من هذا النوع؟

ـ في وقت مبكر تبلور لدينا الاحساس بأن التحرك ضد النظام، واتخاذه طابع الانتفاضة، هو احتمال قائم. ولكن في احيان غير قليلة يصعب حساب كل شيء بحيث تكون الانتفاضة منظمّة ولها توقيت ولها قيادة مركزية. وفي تصوري ان الحديث عن عدم وجود قيادة للانتفاضة وانها لا تنجح الا بوجود هذه القيادة مسبقاً له طابع اكاديمي لأنه احياناً الانتفاضات من هذا النوع اذا اقترنت بتمرد قوة عسكرية، تصبح هذه القوة هي القيادة. واذا استمرت مجموعة من المنتفضين في منطقة وتمركزت ونظمت نفسها بشكل جيد وتوفرت الامكانية لها لأن تقود الجماعات الأخرى اصبحت هي القيادة. فيجب ألا نفترض ان عدم وجود قيادة موحدة من الاحزاب سيعني عدم حدوث انتفاضة أو عدم نجاحها وبقاء النظام الى ما لا نهاية. ثم ان حدوث انقلاب يمكن ان يطلق التحرك الجماهيري مما يعجل بالانتفاضة. كما ان حدوث اختلال في قمة السلطة يمكن ان يؤدي الى انعطافة في مزاج الجماهير ويهيء لوقوع انتفاضة.

نعود الى دروس انتفاضة آذار بالنسبة لحزبنا. أولاً لا بد من الاشارة الى ان التوجيهات المركزية للرفاق العاملين في العمق ترمي الى تحقيق فكرة «الجزرات المستقلة» في البداية، وان تقوم تحركات الرفيق بعد ذلك على اساس معرفة حقيقية للمحيط والظروف وامكانية تحقيق اتصال مجد. كانت الاتصالات الخيطية مرهقة وكذلك غير مثمرة اثناء الانتفاضة حين تنشأ الحاجة الى التشاور والتنسيق والقرارات العاجلة. رفاقنا كانوا مجهزين بتعليمات للعمل في حالة الانتفاضة، ماذا يفعلون في حالة تململ جماهيري حتى ابسط من الذي حصل، فلم نكن نتصور انفجاراً بهذه السعة. حتى على نطاق اصغر مما حدث كان هناك توجيهات ملموسة، كيف التحرك؟ كيف نبدأ؟ وماذا تستطيع ان تفعل في ضوء كل التجارب الموجودة عن الانتفاضات في العالم آخذين بنظر الاعتبار خصوصيات العراق. كان لدينا قيادة في الداخل تقاد من المكتب السياسي بصلاحيات تامة للتعامل مع أي حدث دون انتظار مشورة من الخارج. واصدرت تلك القيادة توجيهاتها للركائز والمنظمات عشية الانتفاضة. كانوا يلمسون ويعيشون ممهداتها. وكنا في الخارج نتوقع احداثاً من هذا النوع، كما نتهيأ لها. واصدرنا ما أسميناه خطة الطوارئ في الخارج استعداداً لحدوث انعطاف أو تبدل مع فشل الغزو وطرد القوات وانهيار الجيش واحتمال قيامه بانقلاب على صدام. المسألة ليست بالتصور والتوجيه، المسألة في طاقتك على الفعل، صحيح عندك مثل هذه الجزرات وصحيح اكثر من هذه الجزرات وهناك قيادة داخلية، لكن قدرتها على الفعل كانت محدودة. ومن المفارقات، في تلك الايام حدث اجلاء للسكان من بغداد. وذلك الاجلاء شمل بعض الرفاق ايضاً، لانهم انفسهم يعيشون عند الآخرين. وعندما بدأ الناس يخرجون بالآلاف تقطعت الارتباطات، لأن الاحتياطي

ضاع. هذه الساعة من يتوقعها ويقدرها ومن يعرف انه عندما يعود الناس ستحدث الانتفاضة؟

ث.ج: قرار الاجلاء اعلن عنه في نهاية ايلول على ان ينفذ قبل الموعد (١٥ كانون الثاني) فمن ايلول الى ١٥ كانون الثاني، فترة طويلة. ثم انهم اضطروا ان يجعلوا الاجلاء اختيارياً. في كثير من الحالات ذهبت النساء وبقي الرجال وبالعكس عوائل أخرى اجلي رجالها وبقيت النساء، وهناك اناس ذهبوا ورجعوا بالسيارات ولم يقل لهم احد لماذا رجعتم؟ أما كان ينبغي الالتفاف على قرار الاجلاء؟

- أرى ان من الصعب التحكم بالظرف من خارجه، لأنه في الأخير يجب ان نعطي الحق لصاحب القضية، فهو يقول في هذه الظروف كنت غير قادر ولم استطع الاتصال. انا لا استطيع الا ان اقدّر وضعه. الآن نحن نتحدث عن تجربة نتدارسها بالتفصيل لنستفيد من دروسها للمستقبل.

ليس من الدقيق القول اننا لم نتوقع الانتفاضة أو لم يكن لدينا توجيه لكيفية الاستفادة من المد الجماهيري الذي يرافق الانتفاضة، لان العاصفة لها بدايات. توجيهاتنا الى الرفاق تناولت كيفية التعامل مع الاحداث اللاحقة وكيفية الاتصال مع القيادة. القدرة على التصرف على ضوء التوجيهات كانت محدودة وانا اروي مشاكل وعقبات حقيقية هم لم يتعاملوا معها حسب الخطة. المشكلة في قدرة رفاقنا على التحرك حسب الخطة. ثم ان المد الجماهيري كان كالطوفان. في اماكن عديدة صارت مبادرات، كأن يبادر رفيق واحد مختف ومقطوع الصلة بالحزب، يتصل فيجمع حوله عدداً من اصدقائه الذين يثق بهم ويفرض نفسه كمركز للحزب الشيوعي العراقي، في أربيل مثلاً فوجئنا بفتح أكثر من عشرين مقراً للحزب ورفاقنا الموجودون في المدينة لا يعرفون من فتح هذه المقرات، لكن المبادرين تعاملوا لاحقاً مع التوجيه الحزبي وارتبطوا بالمركز الى ان اجتاحت قوات السلطة اربيل.

ث.ج: تطرقت الى المزاج الحالي للجماهير. بودنا التوقف عند هذا واعطاء مؤشرات ملموسة لهذا المزاج، امكانيات تغيره.

- المزاج الجماهيري يتبدل، توجد كل المبررات الموضوعية لذلك.. الضائقة المعاشية والمآسي التي يعيشها الناس تساعد على احتمال حصول انتفاضة جماهيرية بصرف النظر عن وجود أو عدم وجود قيادة لها. معاناة الناس تلعب دوراً اساسياً في تقرير موقفهم، حادث بسيط قد يتطور احياناً ويصبح حادثاً اكبر، لنأخذ مثلاً ملموساً، اصبح الناس على

استعداد حالياً لاستقبال المناضلين في العمل السري وايوائهم. وكما تعرفون قبل غزو الكويت الأب قد يطرد ابنه من البيت عندما يهرب من الجيش، الآن يخفون الهارب من العسكرية، هناك تطور، لكن هذا لم يصل الى مستوى تحدي النظام. هناك سب وشتم لصدام ونظامه، لكن هذا السخط العارم لم يتحول بعد الى اعمال ملموسة مثل تقديم العرائض التي يعرف الناس ان وراءها الاعتقال والتعذيب، هناك تبدل في مزاج الناس واستعدادهم، لكن هل تحول هذا الى تحدٍ للسلطة؟ وهذا هو المطلوب، وهو هدف العمل الحزبي الذي لا يمكن ان يستمر كجزيرة منعزلة، بل ينبغي ان يتحول الى منظمة قيادية فاعلة في اللحظة المناسبة تتحرك وتنظم وتصدر بياناً أو تقوم بأي شكل من اشكال المقاومة حتى بوسائل جديدة مبتكرة وليست المقاومة التقليدية التي نعرفها. يجب دائماً التهيئة والاستعداد لمثل هذا التحرك عند تحول سخط الناس الى فعل سياسي نشط ومباشر ضد السلطة. في الانتفاضة تجلى انفجار سخط الناس على النظام، فنُكّلَ بهم اشنع تنكيل، ليكونوا عبرة لكل من يجرؤ على تحدي اجهزته المجرمة. لكن معاناة الناس رهيبة من عواقب سياساته الكارثية، فالعوز والجوع امتدا الى صفوف الفئات الوسطى، وافلست كل طروحات النظام وآيديولوجيته، والمهم ان يساعد نشاط المعارضة على تحويل توق الناس الى الخلاص الى فعل سياسي مباشر.

ث.ج: وماذا عن المزاج في حزب السلطة، كيف تأثر بالكوارث وبتجربة الانتفاضة؟ هل من معارضة محسوسة في صفوفه؟

- اعتقد ان من الصعب الحديث عنه كحزب بالمعنى الشائع، تهرأت هذه المؤسسة منذ زمن بعد ان استخدمتها الدكتاتورية كأداة لسياستها التي جلبت الويلات حتى لقواعد حزبها. انها مجرد جهاز للتنفيذ وليس للمشاركة في صنع القرار ورسم السياسة العامة. حتى التنفيذ لم يعد بالحماس والالتزام السابق. عشرات الألوف من الحزبيين نفضوا يدهم من هذه المؤسسة وابتعدوا عنها اثناء وبعد الانتفاضة، صحيح ان الدكتاتور فتح لهم باب الاستقالة بعد الانتفاضة لكن غالبية المستقيلين عادت الى الحزب. فهم يدركون بالتجربة الحزبية الدامية ان صدام اراد جس النبض لتشخيص من يعارضه داخل الحزب، وان الاستقالة لا بد ان تسجل عليهم كموقف معارض وراءه ما وراءه من اضطهاد وتنكيل خاصة بعد ان اعادت الدكتاتورية ترتيب وتضبيط اجهزة القمع التي تتحكم بحزبها ايضاً، من المؤشرات الملموسة على تهرؤ حزب النظام وحتى اجهزته القمعية استشراء الرشوة في صفوفها، فبالرشوة يمكن الآن تدبير مسائل اطلاق سراح معتقل او الحصول على جواز سفر. وما ان ينفرد حزبي منهم بشخص يثق به حتى يأخذ بشتم صدام وحاشيته. انهم يحاولون

التودد الى معارضيه تحسباً للغد الاسود بالنسبة للنظام. لا بد من التفكير بالقاعدة الحزبية المتضررة كاحتياطي هام للمعارضة يجب الاهتمام به من حيث خطابنا وصلاتنا.

ث.ج: في الختام نود ان تحدثنا حول ردود الفعل على نتائج المؤتمر داخل الحزب ومن حوله؟

ـ في اعتقادي ان اجواء المصارحة والشعور العالي بالمسؤولية، اثناء المؤتمر، تمثل رصيداً جيداً للحزب، لعمله اللاحق، لتوطيد وتطوير الديمقراطية في حياته، للتعامل مع الرأي الآخر. هذه هي قناعة المشاركين في المؤتمر. واعقبت المؤتمر اجتماعات موسعة للمنظمات الحزبية واجتماعات عامة في كردستان والخارج، كما أجريت مقابلات صحفية واذاعية وتلفزيونية، وتلقينا الكثير من الرسائل والتقارير، من خلال ذلك كله يمكن القول ان ردود الفعل على نتائج المؤتمر يغلب عليها الطابع الايجابي. بالطبع هذا لا يكفي، فمن الخطأ التصور ان التجديد يمكن أن يسير بصورة تلقائية بعد الحصيلة الايجابية للمؤتمر. فالمؤتمر وضعنا على بداية الطريق الصحيح من اجل عمل مثمر. وينبغي الآن تكثيف مساعينا لتحقيق انعطاف جدي في اساليب عملنا بوجه عام، ولا سيما تفعيل دور منظماتنا في إطار الصلاحيات الواسعة التي اقرها المؤتمر للمنظمات كي تسهم بقسط اكبر في رسم سياسة الحزب والابداع في تطبيقها في مجالات عملها المختلفة. فنجاحنا على هذا الطريق سيكون الرصيد الاهم من نتائج المؤتمر. ويتطلب ذلك جهد وابداع رفاق الحزب في شتى مجالات عملهم، ونحن نأمل ان ينعكس الرصيد الايجابي للمؤتمر في احتفالات الذكرى الستين لتأسيس حزبنا.

بطاقة

* ولد الرفيق حميد مجيد موسى في الحلة عام ١٩٤٢ لعائلة متوسطة الحال، عُرف افرادها مبكراً بالنشاط الشيوعي.
* اواسط الخمسينات ساهم في المظاهرات المعادية للنظام الملكي وفي العمل الطلابي.
* كان صديقاً للحزب حتى ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨. بعدها مباشرة رُشح لعضوية الحزب ثم نالها عام ١٩٥٩.
* في العام نفسه أوفد ببعثة حكومية للدارسة في بلغاريا، ثم فصل من البعثة اثر انقلاب شباط ١٩٦٣.

* عام ١٩٦٥ تخرج بدرجة امتياز في الاقتصاد السياسي فكافأه المعهد بفرصة الدراسة العليا. لكنه عاد الى العراق.

* ألتحق باللجنة القيادية في الحلة. وبعد شهرين من عودته صدر الامر باعتقاله، فاضطر الى التخفي.

* في ايار ١٩٦٨ ألقي عليه القبض في بيت حزبي بالحلة وتعرض الى التعذيب.

* في كانون أول ١٩٦٨ أطلق سراحه. ثم اشتغل كباحث اقتصادي في شركة النفط الوطنية.

* في اثناء ذلك أسندت اليه مسؤولية اللجنة الطلابية للحزب.

* شارك عام ١٩٧٠ في المؤتمر الوطني الثاني للحزب.

* اواسط السبعينات أسندت اليه مسؤولية لجنة العمل الديمقراطي المركزية وساهم في لجنة العمل الآيديولوجي.

* عام ١٩٧٦ انتخبه المؤتمر الوطني الثالث عضواً مرشحاً للجنة المركزية.

* عام ١٩٧٨ غادر العراق بقرار حزبي الى بلغاريا، ثم أسندت اليه مسؤولية تنظيم الخارج، وأنتدب ممثلاً للحزب في مجلة «قضايا السلم والاشتراكية».

* عام ١٩٨٤ قررت اللجنة المركزية اعتباره عضواً في قوامها وبقي للعمل الحزبي في كردستان.

* عام ١٩٨٥ جدد المؤتمر الوطني الرابع انتخابه عضواً في اللجنة المركزية ثم أنتخب عضواً في المكتب السياسي.

* عام ١٩٨٩ غادر كردستان ثم عاد اليها عام ١٩٩١.

* عام ١٩٩٣ جدد المؤتمر الوطني الخامس انتخابه عضواً في اللجنة المركزية التي انتخبته بالاجماع سكرتيراً لها.

بعض ملامح البارزاني السياسية *

عزيز محمد

من الصعب الحديث عن مصطفى البارزاني واعطاؤه بعض حقه، دون الالمام ببداياته ومسيرته النضالية الطويلة، التي استغرقت عشرات السنين. ومهمة كهذه هي ميدان باحث متمكن مع وثائق ومكتبة غنية بهذا الموضوع، وليس مجال مستطرق يعتمد على ذاكرة كليلة.

لقد ولد البارزاني وسط الصعاب وسمع بالبطش وبالسجن وعاشهما، وهو لا يزال طفلا. اي يمكن القول ان تعميده الشوري قد سبق وعيه السياسي والقومي. لقد ولد عند حدود القرنين ووسط الظلم المركب الذي كان يحيق بأهله وشعبه، حتى كأنه ولد ليكون ضد هذا الظلم ومن ثم ثائراً عليه. ترعرع في اجواء الرفض للواقع المأساوي المرّ الذي كان يعيشه الشعب الكوردي، وبقي ساخطاً على هذا الواقع، ورافضاً له حتى آخر ايام حياته.

لم يبدأ من الصفر، بل تسلم راية النضال من الذين سبقوه من اهله واخوته ومن ثوار شعبه، لكنه لوّن الراية مع الوقت بألوانها الحقيقية، واعطاها بعدها وملامحها ورفعها أعلى فأعلى، هذا بالرغم من ان الطريق لم يكن سهلاً أو معبداً، بل كان وعراً وشائكاً كدروب كوردستان وصعوبة صعود جبالها. ثم لم يستطع هو ان يستفيد من طاقة الشعب

الكوردي وقدراته كلها ، فالشعب مقسم، كما لم يستطع ان يستفيد من العمق الجغرافي لكوردستان، فهي مجزأة، بل انه عاني، كما عانت حركة شعبنا التحررية ككل من ثقل وطأة الجغرافيا السياسية، واقع ان كوردستان موزعة على عدد من الدول. والحالة هذه، ليس من المتعذر فقط الاستفادة من طاقة الشعب الكوردي كلها ، ولا من العمق الجغرافي لكوردستان كله، بل الامر انه ما ان تبدأ الحركة في أي جزء من اجزاء كوردستان، حتى تتسارع الدول التي تستحوذ على الاجزاء الأخرى الى الحركات والمناورات والاجراءات العدوانية مخافة انتقال اللهيب، ولسد الطريق امام انتقال عدوى النهوض الثوري الى تلك الاجزاء، أي ان الدول التي تحادد كوردستان كانت ولا زالت معنية كلها ، بشكل أو بآخر، بقمع الحركة التحررية للشعب الكوردي، وبالتالي لم يكن في هذه الدول أي ملاذ حقيقي لثائر كوردي.

بهذا يفسر اضطرار البارزاني، بعد انهيار جمهورية مهاباد ، الى القيام بتلك الحركة المتعرجة البارعة والاسطورية قتالاً ومناورة أمام جيوش محترفة وانسحابه الى نهر اراس مع مئات من مقاتليه، ومن ثم عبوره الى الاتحاد السوفياتي. لربما اختلف الأمر كثيرا لو ان الشعب الكوردي كان ملحقاً كله بواحدة من هذه الدول، أو لو تمتع بكيانه المستقل في جزء من هذه الاجزاء، أو على الأقل لو كانت هناك على حدود كوردستان دولة لا تعاني من المشكلة الكوردية وعقدتها. في ظل هذه الاوضاع كان نشاط البارزاني وصراعه مع الانظمة العراقية من اجل فتح ثغرة من الحصار الخانق المضروب على الشعب الكوردي وايجاد مرتكز وقاعدة انطلاق للمضي لاحقاً نحو بلوغ الهدف الابعد. في مثل هذا الجو والوضع المعقد صارع البارزاني سواءاً في الثلاثينات والاربعينات أو الستينات فكان نضاله نوعاً من السباحة ضد التيار، الامر الذي كان يضعه في غالب الاحيان امام خيارات كانت مرّة كلها. فكان عليه ان يختار اخفها وطأة وأقلها مرارة. هذا وان تظاهرت دولة من الدول المعنية بتأييد القضية الكوردية فهي انما كانت تحاول ان تلعب، في واقع الامر، بورقة القضية الكوردية لمصلحتها ليس الا ، كما هو واضح الآن للجميع.

كان البارزاني يتابع تعقيدات القضية وامتداداتها بعيداً عن الدائرة الضيقة المباشرة. فالدول التي تحاصر القضية الكوردية وتطوق كوردستان ترتبط معظمها ، ان لم نقل كلها ، بالدول الغربية. وهذه الاخيرة لم تكن مستعدة ان تضحي بمصالحها ومصالح اصدقائها لصالح قضية شعب ساهمت هي نفسها في تجزئته وغمط حقوقه والحيلولة دون اقامة كيانه المستقل. ومع ذلك لم يكن امام البارزاني الا التعامل معه بوعي لا القفز فوقه. ان الصراع بين المعسكرين وحساسية أي معسكر من المعسكرين تجاه أية حركة أو تطور يخل بميزان القوى لصالح خصمه، جعلا البارزاني يعتقد انه من الصعب، ان لم يكن من المستحيل،

احراز أي نصر بمعزل عنهما أو عن احدهما. وهذه المعادلة شغلت البارزاني كثيراً وطويلاً، وادخلته اخيراً في حساب المفاضلة من الناحية العملية بين الاتحاد السوفيتي وأمريكا، الاتحاد السوفياتي الذي تعاطف مع القضية الكوردية وايدها ومدّ لها يد المساعدة الى جانب العلاقات الخاصة التي كان يقيمها مع البارزاني شخصياً والتي كانت ثمرة العشر سنوات التي قضاها في الاتحاد السوفياتي. ولكن كل ذلك لم يكن ليستجيب لمتطلبات وطموح البارزاني وقيادة الثورة في كردستان، خصوصاً وان الاتحاد السوفياتي لم يكن يملك قنوات التأثير على الاطراف الداخلة في الصراع مع الشعب الكوردي إلا قليلاً واحياناً كما لم يملك أي طريق أو ممر مباشر أو غير مباشر يوصله الي كوردستان، هذا الى جانب وقوع الاتحاد السوفياتي في اشكالية علاقات الصداقة والتعاون مع النظام العراقي من ناحية وصلاته التضامنية مع الشعب الكوردي خصوصاً في السنوات الأخيرة من ثورة ايلول، وبعد الفترة الأولى من بيان آذار التأريخي من ناحية أخرى، فيما كان الوضع يختلف مع أمريكا التي كانت لها مرتكزاتها السياسية والعسكرية الكثيرة في المنطقة، في ايران الشاه على الخصوص. لقد قاومت أمريكا ومعها ايران، وبكل السبل، تنفيذ بيان آذار بتناغم وتوافق مع العراقيل التي كان يضعها النظام العراقي على طريق تنفيذه. فالاوساط الامريكية لم تتحرك الا بوحي من مصالحها الانانية الضيقة. فكانت تبرر كل شيء في سبيل الوصول الي اهدافها. وكن همها وهمّ حلفائها في المنطقة في كل ذلك هو فرض شروطها على العراق بذريعة تعاونه وصداقته مع الاتحاد السوفياتي وقتذاك وفرض شروط ومطاليب ايران في شط العرب.

لقد أدت حسابات المفاضلة في النهاية الى الوقوف مع الطرف الاخير الامر الذي وضع نهاية لسياسة الموازنة التي اتبعتها قيادة البارزاني لفترة طويلة. ووضع الثورة بالتالي في الزاوية ومن ثم أدى الى انتكاستها بعد اتفاقية الجزائر المشؤومة والمشينة. نعم ان تعقيدات الوضع الدولي وحدّة تصادم المصالح وقيود الجغرافيا السياسية واحكامها آنئذ، كانت اثقل واعقد من ان تتحملها طاقة الثورة وحساباتها. لقد قال البارزاني (كما ذكرت جريدة خبات ـ اذا لم تخني الذاكرة) وهو على فراش المرض، في امريكا بالذات، بما معناه «انني لم اندم على شيء قدر ندمي من الاعتماد على امريكا والركون الى وعودها». أيا كان الامر وبصرف النظر عن كل شيء، وبرغم الموقف الذي سبب ندم البارزاني الشديد، فان البارزاني لم يكن يستوحي، في كل نشاطه وتوجهاته العامة، غير مصلحة الشعب الكوردي وطموحه في تحقيق حقوقه القومية ومن اجل مستقبله المشرق النيّر.

وان المكاسب والنجاحات التي احرزها الشعب الكردي ويعيشها الآن، والتي نأمل ونعمل من اجل تأصيلها وترسيخها اكثر فأكثر، لا يمكن النظر اليها بمعزل عن انتفاضات

وثورات الشعب الكوردي، وبخاصة ثورة ايلول ودروسها، لنجاحاتها واخفاقاتها، والتدريبات الشاقة الواسعة والمتنوعة التي مورست فيها، والنهوض الذي رافقها في الوعي القومي والاستعداد السياسي ونضوج الخبرة والدراية لدى الجيل الجديد من القادة. نعم ان ثورة ايلول، رغم كل ما قيل وكتب عنها، تبقى اكبر حلقة في سلسلة الثورات التي خاضها الشعب الكوردي من اجل نيل حقوقه القومية المشروعة.

قلنا ان المسيرة النضالية للبارزاني الخالد قد استغرقت عشرات السنين ومرت بالكثير من المنعطفات والمحطات التي كانت تحمل معها سمات وملامح تطور الحركة. ففي البدايات من غير الممكن ولا المنصف تجاوز واقع انها بدأت مسيرة محلية وموضعية في الشكل والظاهر ولكنها كوردستانية المضمون في الواقع. نعني انها بدأت وسط مجموعة من الرجال الاشداء المتضامنين المشدودين بعضهم الى بعض، والذين احاطوا البارزاني احاطة السوار بالمعصم وكانوا قوته الضاربة، وهم البارزانيون. انها كانت الخطوات الأولى الصعبة على الطريق. صحيح ان الآخرين ساهموا في هذه البدايات كذلك ولكن لم يكن بالشكل الذي يغير الصورة، نشير الى هذا لكي نسجل بالتقدير والاكبار هذه البدايات والخطوات الأولى واولئك الذين ضحوا وواصلوا التضحية وبشكل لم يسبق له مثيل وحتى الآن من اجل انتصار قضية شعبهم ووطنهم، من اجل مستقبل كوردستان العزيزة.

لقد واصل البارزاني الحركة. ولم يركن الى الهدوء، وكان بامكانه ذلك، ولكنه استقر على عدم الاستقرار، تبعاً لوضع كوردستان. وواصل النضال فيما بعد واجتاز الحدود الايرانية، هو وقوته وانضم الى جمهورية مهاباد واصبح القوة الاساسية المدافعة عنها. وعندما بانت نهاية الجمهورية الفتية للاسباب المعروفة، حاول ان ينقذ ما يمكن انقاذه، وانسحب الى الاتحاد السوفياتي بتلك الصورة البارعة المعروفة. لم تكن ايامه في الاتحاد السوفياتي هدراً، رغم كل ما عاناه من صعوبات، خاصة ايام حكم باقروف. وكانت تلك راحة اجبارية لمحارب عنيد، وان كانت طويلة، وفترة تأمل ودراسة لما كان ولما يجب ان يكون حتى عودته وعودة أنصاره بعد ثورة تموز الخالدة. كانت تظاهرة عراقية جبارة، عربية وكوردية، من اجل الديمقراطية وحقوق الشعب الكردي القومية. لقد ربط الشعب العراقي، بغريزته وتجربته الطويلة والمريرة وبوعيه، الواحدة بالأخرى، هذه من تلك وتلك من هذه وانه كان على كل الحق في هذا الربط.

لم تمر فترة طويلة حتى رفع البارزاني، من جديد، السلاح بيد وراية الثورة باليد الأخرى. واذا كانت البدايات قد انحصرت في منطقة محدودة ووسط مئات من المقاتلين، فقد توسعت في ايلول لتشمل مساحات شاسعة من كردستان العراق وفي حماية الآلاف ثم عشرات الالوف من المقاتلين المناضلين من كل مدن وارياف كوردستان، ومن مختلف

الشرائح الاجتماعية والاتجاهات الفكرية والتنظيمية. فقد وسع البارزاني من دائرة التزاماته لكي تستوعب الثورة وتتسع لكل من يريد الانضمام اليها من اقصى اليمين الى اقصى اليسار. حقاً اغتنت الحركة وتوسعت. ولئن انتكست في النهاية بتأثير العوامل المعروفة فأنها قد تركت لنا وللاجيال القادمة سفراً غيناً بمختلف الدروس والعبر نستخدمها ونستعين بها سلاحاً في نشاطنا المتنوع الراهن.

وماذا عن موقف البارزاني من المفاوضات مع الحكومات العراقية المتعاقبة، وخلال أكثر من عشر سنوات من ثورة ايلول؟ الا يستدعي ذلك القاء نظرة ولو سريعة على هذا الجانب؟ لماذا كان البارزاني يفاوض. ومن أي منطلق ولأي هدف؟ لا نعرف كيف كان يخطط لهذا الامر. ولكن يقيناً انه كان يعرف جيداً الاوضاع التي كانت تتحكم بالقضية الكوردية. وكيف ان حلها كان محكوماً باطاره العراقي في حين لم يكن بين الانظمة العراقية نظام واحد يتفهم هذه القضية، أو يقترب من حلها الا بقدر عجزه عن القضاء عليها عسكريا. وحين يعجز أي نظام عن قهر الثورة الكوردستانية، يتظاهر بالنزوع الى الحوار والحل السلمي، ولكن بنية «الالتفاف على أي اتفاق والتآمر عليه بعد الشعور بالاستقرار واستتباب الاوضاع لصالحه.

كما ان الثورة الكوردستانية، وان كانت تستنزف طاقات الحكومات المركزية، واحياناً بشكل جدي، فانها لم تكن مؤهلة ولا قادرة على احراز نصر عسكري نهائي واسقاط النظام في بغداد الا اذا اقترنت فعالياتها بصعود الحركة الجماهيرية الديمقراطية المتحالفة معها في المناطق الأخرى غير الكوردستانية، وفي بغداد اولاً، الامر الذي لم يحصل قط مع الأسف الشديد، بل المحزن ان القوى الرجعية هي التي كانت تستثمر ضعف وتفكك لنظام في بغداد، تحت تأثير نشاطات الثورة في كوردستان، وتقفز الى السلطة، ولكن سرعان ما تعاود سيرة سابقاتها. ان الثورة في كوردستان لهذه الاسباب، وليس غيرها، كانت بحاجة الى التحلي بنفس نضالي طويل والاستفادة من عامل الزمن والتكتيكات المرنة والملائمة، واقتناص الفرص المؤاتية للحفاظ على قوى الثورة، بل وانمائها وتعزيز دورها وهيبتها تدريجياً بالحصول على المواقع والمكاسب المنعشة لها، وايصال صداها واهدافها الى الرأي العام العالمي، وبكل ما يؤدي الى تعزيز الثقة بالنفس.

يبدو لي ان المفاوضات التي كانت تجري، بين حين وآخر كانت تخدم هذه الوجهة عموماً. فهي تحولت من الناحية العملية الى شكل من اشكال الكفاح. واستهدفت التأكيد على حل القضية في الاطار العراقي الموحد. وكانت ترد في الوقت نفسه على التخرصات والاتهامات التي كانت تكال لأي حركة كوردية بالانفصالية. وكانت تأخذ بنظر الاعتبار كذلك الوضع المعنوي لقوى الثورة، وحاجتها الى فترات للتنفس وتجميع القوى وانعاش

الوضع الاقتصادي في مناطق الثورة وتنشيط الزراعة وتصريف محاصيلها، خصوصاً وان الآفاق لم تكن واضحة أو واعدة، والى جانب كل هذا، فمن اجل اشعار القريب والبعيد ان الانظمة العراقية مكرهة كلها على الدخول في الحوار مع الثورة الكوردستانية بعد ان تفشل في احراز أي نصر عسكري جدي الأمر الذي كان يرفع من وزن الثورة وقدرتها على الاستمرار والصمود في أعين ابنائها وفي أعين الصديق والعدو. وهل من دليل اقوى على هذه الوجهة من هذا التطور الذي شهدته ثورة ايلول في مختلف الميادين من بدايتها حتى آذار ١٩٧٠؟ كل هذا والبارزاني لم يغادر مقر قيادته. إذ ان المفاوضات كانت تجري أساساً في مقره.

وبعد، فان هذه هي اشارات، لا اكثر، لمواقف البارزاني من المفاوضات وهي بحاجة ماسة الى الدرس والتمحيص الدقيقين، لاعطاء التقيم الموضوعي لكل مرحلة من مراحل المفاوضات التي اقدم عليها في اطار الاستنتاج العام الذي اشرنا اليه، بإيجابياتها وسلبياتها.

لقد اهتم البارزاني بالبعد العربي لاهميته الخاصة في نضال الشعب الكردي من اجل نيل حقوقه، وبدأ من وجهة النظر هذه اول ما بدأ، باقامة الصلات مع الزعيم العربي الكبير جمال عبد الناصر وهو في طريق عودته الى الوطن لتقديره الصائب، للتأثير الايجابي الكبير الذي يمكن ان يلعبه عبد الناصر على الساحة العربية كلها، وبقى حريصاً على استمرار هذه العلاقة طيلة بقاء ناصر على قيد الحياة، ولقد خطا خطوة سياسية بارعة أخرى حين أعلن عن استعداده ايقاف القتال ضد النظام العراقي ايام الحرب العربية ـ الاسرائيلية عام ١٩٦٧ وطيلة فترة الحرب لكي لا يتعذر ويتقاعس عن اداء دوره في الجبهة العربية وتقديم قسطه بذريعة انشغاله في الحرب الداخلية مع الشعب الكوردي. وقد بذل البارزاني جهوداً لايصال هذا الموقف الى عدد من القادة العرب. وبرأ بذلك ساحة الشعب الكوردي وحركته التحررية من امكانية اتهامها باستغلال صعوبات العرب وحربهم مع اسرائيل. كان هذا موقفاً رائعاً ومسؤولاً. وانطوى على كثير من بعد النظر.

لقد برزت جوانب أخرى من خصال البارزاني الرائعة كذلك بعيد انقلاب شباط الاسود وبالضبط عندما كانت النداءات بذبح الشيوعيين وسحقهم تطغى على ما عداها من اعلانات ونداءات الانقلابيين، وبالرغم من بعض عبارات الغزل التي مارسها البعض مع الانقلابيين ومع الدخول في المفاوضات فان البارزاني الخالد قد فتح في تلك الايام الصعبة بالنسبة للشيوعيين، ذراعيه واعلن احتضانه لهم وحمايتهم، لم يكن ذلك بدافع انساني فقط، فمثل هذا الموقف الانساني يمكن ان يقفه أي شخص شهم قادر ازاء من يتعرضون الى ما تعرض له الشيوعيون، ولكن الى جانب ذلك، وهو هام جداً، فقد خاطب البارزاني،

بموقفه هذا مستقبل الحركة الديمقراطية في العراق، مستقبل الشيوعيين وحزبهم وامتداداتهم في الخارج، بل وحتى خصومهم في الوقت نفسه، قصد افهامهم وتذكيرهم بأنه هو هناك في الموقع الذي يختاره هو وليس غيره، لقد اتخذ عدد من قادة ثورة ايلول مواقف جيدة، وكانوا ضد اضطهاد الشيوعيين ومع تقديم العون لهم، فيما سلك آخرون مع الأسف الشديد سلوك شامتاً عدوانياً لا يحسدون عليه.

وعلى صعيد نظرته الى بعض الامور الخارجية، فانني لا استطيع ان انسى ما سمعته منه في ١٩٦٢/١١/١٨ عن تقديره وتثمينه لموقف الاتحاد السوفياتي من أزمة البحر الكاريبي، بقوله ان البشرية مدينة لهذا الموقف الشجاع الذي ساهم بشكل جدي في صيانة السلم والأمن في العالم، الى جانب حماية كوبا، هذا في الوقت الذي كان يدور فيه لغط ساخط، حتى لدى بعض الاطراف التقدمية عن تخاذل الاتحاد السوفياتي وتراجعه امام الولايات المتحدة الأمريكية.

لم يكن البارزاني من النوع الذي لا يغير رأيه، أو انه لم يكن يعير اهمية لرأي الآخرين، صحيح ان ذلك لم يكن سهلاً ولكنه كان ممكناً، اذا قدمت له الحيثيات والمعطيات الدقيقة، واذا سبب الموضوع المعني بشكل جيد وبعيداً عن الادعاء والمكابرة، ومن داخل الاطار العام الذي هو فيه وليس خارجه. ان طول الفترة الزمنية التي احتل فيها البارزاني مركز الزعامة والقيادة في الحركة التحررية للشعب الكوردي والتنوع الشديد الذي رافقها وتخللها، واقتران الحركة باسمه واسمه بالحركة في الداخل وفي التعريف بها في الخارج، وصيرورته رمزاً للحركة وقوة ملهمة لها، ان كل هذا جعل من البارزاني ليس زعيماً من ابرز زعماء شعبه فقط بل وكذلك ظاهرة تاريخية تستحق الدراسة بعمق للاستفادة مما تجسده من تجارب غنية بايجابياتها الكثيرة وسلبياتها. ان الحركة التحررية الكوردستانية، تظل بحاجة شديدة لمثل هذه التجارب لمواصلة الايجابيات وتجنب السلبيات وصولاً الى تحقيق مصالح الشعب الكوردي في نيل كامل حقوقه القومية.

الخلود للبارزاني والنصر كل النصر لقضية شعبه العادلة

ايلول ١٩٩٣

* كلمة الرفيق عزيز محمد في الندوة التي نظمها الحزب الديمقراطي الكوردستاني بمناسبة الذكرى التسعين لميلاد الملا مصطفى البارزاني. نشرت الكلمة في خه بات وفي ريكاي كوردستان باللغة العربية.

انتفاضة آذار ١٩٩١ .. هذا النجاح المؤجل !

فالح عبد الجبار

- ١ -

في معاينة الماضي واسترجاعه ثمة خيط رهيف يفصل بين الحنين المَرَضي، والاستذكار. الأول اقرب الى البكاء على الاطلال، العيش في الماضي لاجل نسيان الحاضر، نوع من الهرب المقلوب. الثاني اقرب الى محاولة الانغماس في الحاضر، بفهم ما جرى، والسعي الى الأمساك بالحاضر من تلابيب الماضي.

صحافة المعارضة اختارت موقفاً بين، بين، ووقفت، اذا حكمنا على سيل ما نشر خلال شهر آذار ١٩٩٤، على مبعدة خطوة من البكاء، وخطوة من التفكر. ماذا يصنع المرء في هذه الارض، التي بلا مولى، غير ان يمطر الانتفاضة بسيل من المدائح، ويثقل صدرها بالنياشين، حتى تنوء بأحمال الاطراء.

دعونا نعود الى الماضي من زاوية التفحص، لا النحيب، ولا الاشادة بمناقب.

من سورات الفكر ثباته، أما ثبات الماضي فواحدة من اجمل حسناته. فبفضل هذا الثبات يمكن لنا فحص مختلف الاجزاء المكونة لظاهرة معينة (مثل الانتفاضة) واعادة درسها ودرسها، كما لو كنا ندرس ظاهرة مختبرية. المعلوم ان ظاهرات الطبيعة أيسر على

الدرس بسبب تكرارها، ولأمكان انتاج بعضها مختبرياً، اما الظاهرات الاجتماعية فلا. انها في سيولة دائمة. من هنا أهمية ثبات الماضي، تجمّده في الزمن. فهو يعطي فسحة من اجل حركة الفكر.

- ٢ -

الفشل، كما يقول جراهام جرين، هو «نجاح مؤجل». لعل في هذه القولة اطراء للنفس، أو تسكين التياعات الفشل الذي يلمّ بالذات. لكن فيها ايضاً قدراً من حقيقة يصح على الانتفاضة بحدود.

ما من ريب في ان ظاهرة مركبة مثل الانتفاضة لا يمكن ان تختزل الى عنصر وحيد، رئيسي، مقرر للفشل أو النجاح، كأن يكون، مثلاً، طبيعة الانتفاضة نفسها، أي عفويتها، تشتتها، أو غياب تمركزها ان شئتم، انفصال شقّيها عن بعض (الشمال، الجنوب)، أو جناحيها عن بعض (المدني العسكري)، أو صمت الحملان في بغداد، أو خطأ الشعارات السياسية الدينية مثلاً، أو عوامل اقليمية، عوامل الرفض العربي (رسمياً وشعبياً لأول مرة) سيان ان كان محمولاً بدافع الخوف من «عراق ديمقراطي»، أو دفاعاً عن البطريارك الكبير، وهو في خريفه، أو عوامل دولية «غير» مؤاتية، «تآمراً» أو احجاماً عن مدّ يد العون (لماذا يجب ان يمد الآخرون العون؟). بودي ان اخرج عن مألوف ذلك كله الى حقلين صغيرين، الأول هو طبيعة الدولة العراقية، والثاني هو إشكالات النزعة الوطنية. تنتمي القضية الأولى الى حقل السوسيولوجيا السياسية والتاريخية، وتخص القضية الثانية حقل السوسيولوجيا الفكرية. سنتناول الآن القضية الثانية بإيجاز.

- ٣ -

من باب التكرار القول ان الدولة القومية (أو الدولة الأمة nation - state) الحديثة هي شكل جديد للتنظيم السياسي ـ الاجتماعي والاقتصادي، شكل اصبح شاملاً في عالم اليوم، والانتماء اليه أمر مفرغ منه، مثلما كان الانتماء في الماضي الى مدينة، قبيلة، طائفة، ملّة، هو الشكل السائد في حقبة ما قبل القومي، (كلمة «القومي» هنا ترد بالمعنى السوسيولوجي لا الآيديولوجي).

الوطنية، بهذا المعنى الموجز، هي الانتماء الى وطن محدد، الى دولة ـ أمة nation - state محددة، ويكتسب الانتماء في الميدان السياسي والاجتماعي والاقتصادي معان

متنوعة، من هنا فأن كل جماعة (طبقة، فئة، حزب، فرد) داخل الدولة - الأمة يمكن ان تحمل تصورات وآراء حول معنى هذا الانتماء وشكله. بتعبير آخر ان هذا الميدان هو ميدان صراع، حتى حين ترتفع عقيرة البعض بوجود «ثوابت» وطنية أزلية (رأينا كيف ان اصحاب «الثوابت» انقلبوا مرآت حيال ثوابتهم بالذات!) ولا شك ان النخب الحاكمة هي الاكثر تمسكاً بفكرة وجود ثوابت وطنية عليا.

ويأتي اختبار ذلك في فترات الحروب، ان الحروب (الخارجية طبعاً) تثير، في العادة استجابة داخلية عفوية أو محرضة للتلاحم، سيان ان اضفنا الى هذا التلاحم صفة «الوطني» أو «القومي» أو «الداخلي».

يفترض هذا التلاحم، في صورته الرسمية، انشاء ثنوية بالغة البساطة: «هم» (الاجانب، الاغراب...الخ) و«نحن» (ابناء العراق). الـ«هم» تصبح كتلة لا تمايز فيها، انها العدو، الآخر، الغريم، والـ«نحن» أيضاً تتحول (في الدعوات) الى كتلة صوان، لا تمايز فيها ولا اختلاف، انه «الشعب» أو «الأمة» أو «العراق» أو «السيادة».

هذا الالغاء لكل وأي تفارق وافتراق يكاد يكون نزوعاً ثابتاً في فهم النخب الحاكمة لمعنى «الوطنية» أو «الانتماء للأمة» المعطّل والملغي للتصادمات الاجتماعية والسياسية الداخلية. ويصل هذا التصور للوطنية الى حالة من المماهاة بين الوطن والحاكم، وبين الأمة والسلطان، فهما واحد، أو ينبغي ان يظهرا وكأنهما واحد!

ان دراسة المكونات الاجتماعية والسياسية والثقافية - الشعورية للنزوع الوطني تتيح، في اية حالة مدروسة تمييز النزعة القومية الدولتية، او الحكومية، عن النزعة الوطنية الشعبية.

بمعنى من المعاني يمكن القول ان النزعة القومية الحكومية تتمثل في توجهات وسياسات النخب الحاكمة، بصرف النظر عما اذا كانت هذه السياسة، في شتى الميادين، نافعة أو ضارة، حسنة أو سيئة.

أما النزعة الوطنية الشعبية، فهي في ابسط صورها، انتماء المرء لوطن، لثقافة، لرقعة محددة، لتاريخ، حب المرء لوطنه، الخ.

اذا قبلنا بهذا التقسيم المبسط، فان حالات الالتحام الوطني الشامل تعني اندماج هاتين النزعتين معاً، أو توافقهما الى حد كبير توافقاً يوجه طاقتهما نحو الخارج، نحو «العدو»، سواء الوهمي أم الحقيقي، وسواء تحقق الاندماج طوعاً أو قسراً أو بمزيج الأثنين.

ان القبول بفكرة التوافق أو الاندماج تعني ايضاً قبول احتمال حصول تفارق بل مواجهة بين الاثنين، أي ان تجد النزعة الوطنية الشعبية ان المعنى الذي تنسبه النخبة الحاكمة

للوطنية مغاير، أو زائف، أو مدمر. ويحصل ان تتحرك النزعة «القومية»، الرسمية، الدولتية، لتشد الأعنّة الى الخارج، طالبة من «الجميع» السير وراءها، فيما تنقلب النزعة «الوطنية» الشعبية الى الداخل، وسرعان ما يقود التفارق الى المجابهة بعد ان تشرع النزعة الوطنية الشعبية حرابها ضد دولتها بالذات.

ان انتفاضة آذار ١٩٩١ هي مثال على هذا الانفصال بين النزعتين وتقابلهما في ساحة النقد بالسلاح.

لقد أممت المعارضة أملاً بحصول مثل هذا الانفصال والتفارق خلال سنوات الحرب العراقية ـ الايرانية. فقام الأمل، في جانبه الماركسي، بان يحظى الصراع الاجتماعي الداخلي بالاولوية على الصراع «القومي» الخارجي. وحصلت مغالاة في جانبين: إمكان ان يحصل الانفصال بين النزعتين بصورة تلقائية، أولاً، والتقليل من جبروت الدولة الجديدة، بسبب الفهم الناقص لطبيعتها، ثانياً.

لقد هوجمت النزعة القومية للنخبة الحاكمة (التي احتكرت، داخل العراق، حق تفسير معنى الوطنية في الممارسة) من ثلاثة مواقع ضعيفة تماماً.

أولاً: الموقع الاسلامي الذي يضع الانتماء الديني أو تعبيراته المثالية فوق الهوية الوطنية، في عصر غدت فيه الدولة/الأمة اساس التنظيم السياسي المعاصر، حتى في ايران الاسلامية.

ثانياً، الموقع الكردي، المنطلق من حقوق قومية مميزة تؤكد الثنائية القومية في تضاد مع الواحدية الرسمية.

ثالثاً: الموقع الماركسي، المنطلق من ارضية اجتماعية ـ سياسية (السلام/ الديمقراطية).

هناك تيار رابع يشمل قسماً من الماركسيين رأى في الاندماج مع النزعة القومية الرسمية أما وسيلة لاكتساب مشروعية معارضتها لاحقاً، أو مجرد واجب «وطني» لأن الوطن يتعرض الى «عدوان».

التياران الأول والثاني توجها في ميدان السياسة العملية، الى التحالف العملي مع ايران، أي مع احد طرفي الحرب، فيما رغب الاتجاه الرابع في «التعاون» أو «المصالحة» مع النخبة الحاكمة.

خلاصة ذلك ان الهجوم على التقارب والاندماج «الوطني»، أو الدمج للنزعتين الوطنية/ الشعبية والقومية/الحكومية، كان أضعف ما في المعارضة، فهو مشتت على اربع جبهات آيديولوجية، وعلى ثلاث جبهات سياسية (مع ايران أو مع العراق أو ضد الاثنين).

انتهت الحرب ولم يحصل الانفصال لا بقوة الانتماء الديني، أو النزوع الديمقراطي، أو أية قوة دافعة أخرى.

خرجت المعارضة من الحرب العراقية - الايرانية بخفي حنين. واستقبلت حرب الخليج وهي مثقلة بمخاوف اندماج النزوع الوطني الشعبي بالنزوع القومي الحكومي في «معركة ضد الامبريالية».

حلمت المعارضة بانفكاك الاثنين في الحرب العراقية - الايرانية فحصل تقارب. وخشيت من التحام الاثنين في حرب الخليج، فحصل الانفصال بينهما والتصادم. وفي الحالتين وجدت المعارضة نفسها في الموقع الخطأ. وكانت مباغتة الانتفاضة من دلائل ذلك.

لم تقدّر المعارضة ان النزعة الوطنية الشعبية التي اندمجت (بالمعنى التلقائي) ودُمجت (بالمعنى القسري) بالنزعة القومية الرسمية خلال الحرب العراقية - الايرانية، اخذت اواصرها تتفتت وتتآكل بفعل عوامل داخلية وخارجية شتى. مع ذلك ارتعبت المعارضة من فكرة «تجدد» التجربة. والواقع ان السلوك الآيديولوجي للنظام قدّم الى المعارضة لمحات عن خوفه هو من قدرته على ادامة زخم الاندماج المذكور، أو خشيته من انقطاع الاواصر التي احكم ربطها. وقد ركز الرئيس العراقي خلال تلك الفترة، من بين امور عديدة، على صياغة دعواته الآيديولوجية بالاعتماد على الرموز الدينية (وضع شعار «الله اكبر» على العلم العراقي مثلاً) مستمداً الكثير من ترسانة تحالفاته مع الحركات الاصولية في العالم العربي. لقد تحولت «الوطنية» العراقية، الى مزيج من الرموز الاسلامية، (العربية والكردية ـ صلاح الدين)، والرموز العراقية ما قبل الاسلامية (نبوخذ نصر)، والرموز العروبية. وكان المطلوب من هذا الخليط الميثولوجي ان يشد، في الفكر الاجزاء العراقية المتنوعة في مماهاة قسرية مع النظام.

ولا مغالاة في القول ان المعارضة، أو أي مراقب لم يكن في وضع يتيح الحكم بدقة على مجرى التيارات الظاهرة أو الخفية في المجتمع العراقي. فالكل، عموماً، كان مقطوعاً عن نبض الحياة اليومية في المجتمع العراقي، والكل كان غارقاً في رؤية قوام الدولة والمجتمع بمفاهيم واقانيم ميثولوجية، أو قديمة، لم تعد قائمة.

ـ ٤ ـ

عند هذ الحدّ أود تناول طبيعة الدولة state في العراق.

توصف هذه الدولة في عدد من الأدبيات السياسية والاكاديمية بنعوت شتى: دولة

دكتاتورية، فاشية، دولة تسلطية، دولة الرأسمالية البيروقراطية والطفيلية، الخ.

ان هذه وغيرها من المفاهيم تُستخدم بالارتكاز إما الى نظرة تاريخية - مقارنة (مقارنة الدولة العراقية بالنازية الالمانية أو الفاشية الايطالية - مع وجود عناصر حقيقية للمقارنة) أو بالاستناد الى نمذجة سوسيولوجية (فكرة الدولة التسلطية كما عند الباحث خلدون النقيب) أو الطابع الاجتماعي - الطبقي للنخبة الحاكمة وسياساتها الاقتصادية الاساسية (رأسمالية ـ بيروقراطية ـ رأسمال طفيلي).

ان هذه المفاهيم والمقارنات تخدم في إنارة جوانب وخصائص معينة في طابع الدولة الحالية، وفي سياساتها.

وبودي الانطلاق من نقاط مغايرة.

اولاً: ان الدولة كيان قائم بذاته، مستقل الى حد كبير عن المجتمع الذي تنبثق منه.

وثانياً: ان الدولة في حركة ارتقاء تاريخية صاحبت وما تزال الانتقال التاريخي من المجتمع الزراعي، ما قبل الحديث، مجتمع مرسمل، حديث، صناعي. وان هذه النقلة تسير في ثلاثة اتجاهات متوازية.

أولها: تحول في بنية المجتمع، وبالذات ضمور وتفكك وتحول الفئات والطبقات ما قبل الحديثة، ونشوء طبقات وفئات وجماعات جديدة.

الثاني: تحول في بنية الدولة ومؤسساتها، وعوامل التحامها تحول في وظائف الدولة.

الثالث: تغاير في العلاقة بين المجتمع والدولة.

دعونا نوضح ذلك بأمثلة وجيزة:

لقد نشأت الدولة العراقية الأولى (١٩٢٠)، من مركّب ثنائي حديث - تقليدي، وكانت هذه الثنائية في الوقت ذاته خارجية ـ داخلية، اعني جهاز الادارة والقمع البريطاني، من جانب، ونُخب الجماعات المحلية التقليدية (نقباء اشراف، ملاكون، تجار، رؤساء قبائل، وممثلو طوائف). ينضاف الى ذلك بالطبع عنصر ثالث هو ما اسماه حنا بطاطو بالضباط الشريفيين أي نبتات اصحاب المهن الحديثة (الضباط النظاميون) المنحدرون من فئات متعددة (عليا، وسطى، ودنيا).

وكانت هذه العناصر مجتمعة تواجه مجتمعاً زراعياً، شديد الانقسام والانغلاق، ما تزال عوامل الالتحام الصغيرة، (للطائفة، الملّة، القبيلة، المحلّة ـ داخل المدينة ـ أو للمدينة) اقوى من عوامل الالتحام الكبرى (الأمة). وان تفكك الكيانات الصغيرة كتنظيمات اجتماعية - اقتصادية وثقافية Cultural، كان نتاج بناء الدولة الحديثة المركزية: جيش دائم (نظام سيطرة) جهاز اداري دائم، نظام تعليم مركزي، الخ.

لست بصدد استعراض هذا التطور بل الاشارة بلغة البرقيات الى ما اظن انه الملمح الجوهري فيه.

ولنلاحظ ايضاً ان الدولة الأولى (الحكم الأهلي) حلّت مشكلة تشظّي المجتمع الزراعي باستيراد ملك من عائلة اشراف، وارتكزت ليس على فكرة التمثيل الحديث (الانتخابات) حصراً بل ايضاً واساساً على مفهوم ديني قديم: الخلافة في قريش. ومعلوم ان فكرة ارجاع الخلافة للعرب دارت في المناخ الفكري للمنطقة منذ القرن ١٩ (الكواكبي مثلاً). اذن تعمدت الشرعية بصورة مزدوجة هي الأخرى: الشرعنة الدينية للحاكم، والشرعنة السياسية (الانتخابات).

لقد بقيت الدولة في يد مجموعة صغيرة من طبقة الكبار، دون ان تتكيف مع واقع ان تحديث الدولة، والمجتمع، قد خلق طبقة عاملة كبيرة نسبياً، وطبقة وسطى ضخمة جداً. وكانت هذه الاخيرة عماد الدولة الحديثة، الا انها دخلتها من اسفل وبقيت مُستبعدة من أعلى.

وأريد المجازفة بطرح فرضية مغايرة نوعاً ما لبعض المألوف.

ان الدولة المعاصرة في العراق تعيد انتاج ثنائية الحديث – التقليدي ولكن بصورة مختلفة بعض الشيء.

ان الدولة الجديدة مركّب من عنصرين: تقليدي وحديث، الأول جماعة قرابية ترتبط بأواصر الدم والقربى. والثاني جهاز بيروقراطي وعسكري يقوم على عوامل ضبط والتحام مستمدة من التراتب الهرمي للاجهزة، وخضوع المراتب، ومن علاقات التضامن العضوي الحديث، الى العلاقات السلعية – النقدية (خدمة – اجور).

ان الدولة العراقية هي مزيج جماعة قرابية ومنظومة بيروقراطية/ عسكرية، مما يكسبها تلاحماً فريداً، أو في الأقل، اقوى من المعتاد. وهذا يقف في تضاد مع الطابع الاجتماعي للنخب الحاكمة في بلدان أخرى: حكم الأسر التقليدية، أو حكم النخب البيروقراطية أو العسكرية (حزب واحد، نظام عسكري) المنحدرة عموماً من الفئات الوسطى.

الدولة في العراق تقوم على مزيج من حكم الاسرة وحكم الحزب الواحد.

غير ان ثنائية التقليدي – الحديث مولّدة داخلياً، ولا تعكس تضاداً خارجياً – داخلياً كما كان الحال في العقود الأولى لنشأة الدولة في العراق.

اذا كان هذا هو تركيب الدولة من الوجهة السوسيولوجية، فينبغي الآن الالتفات الى قضايا أخرى:

ان الدولة في العراق تُعيل نفسها كما ترشو قسماً كبيراً من شتى الفئات الاجتماعية

بالاعتماد على الريوع النفطية.

ينضاف الى ذلك، ان الدولة في العراق تتميز، خلافاً للدول الريعية، بأنها أكبر مالك/ منتج في المجتمع. ان هذا الدور، يختلف عن دور الدولة كرب عمل. فكل الدول في العالم هي أكبر رب عمل في مجتمعها ، ان عدد العاملين لدى الحكومة البريطانية مثلاً يصل الى ثلاثة ارباع المليون، حسب مذكرات ثاتشر، وان ميزانية «القيادة المركزية» (سنتكوم) الامريكية توازي ميزانية بلدان الخليج النفطية مجتمعة، حسب قول الجنرال شوارزكوف.

بيد ان الدولة هناك تعيل هذا الجيش الضخم من الموظفين عن طريق تحصيل الضرائب. بتعبير آخر ان الثروة التي تقيم أود الدولة انما ينتجها المجتمع المدني.

في العراق، الحال مغاير. ان الدولة العراقية تنتج الثروة التي تعتاش عليها كدولة (إضافة لما تقدم لفئات واسعة كرشوة) بصورة مستقلة عن الثروة التي ينتجها المجتمع بطبقاته وفئاته. وان تضاؤل عنصر الضرائب في المداخيل الحكومية ينطق لوحده بما يكفي.

ان الدولة العراقية تتجاوز حدود الفعالية المتعارف عليها: احتكار وسائل العنف المشروع، حماية الاقتصاد الوطني، والثقافة الوطنية، الخ. انها تتجاوز هذه الادوار التي تقوم بها الدول عادة لتحتل الشطر المؤثر، والاعظم، من الانتاج الثقافي، وانتاج وتوزيع الثروة المادية، وميدان المؤسسات والتنظيمات الاجتماعية.

انها دولة الاحتكار الشامل، مثلما هي كيان الجماعة القرابية المنظمة في الدولة.

لقد تحدّت الانتفاضة ثلاثة من الاقانيم المقدسة في عالمنا العربي: اولاً تحدّت فكرة الاجماع القومي مع سلطتها وخلقت تعبيرها الخاص عن الوطنية، الوطنية المنفصلة عن مصالح النخبة الحاكمة، وثانياً انها تحدّت النخبة الحاكمة في قلب معركة خارجية، وثالثاً انها واجهت اعتى نموذج من الدولة الجديدة، دولة الاحتكار الشامل، في العالم الثالث.

إيران بعد ١٥ عاماً على الثورة

عادل حبه

مرت ١٥ سنة على انهيار النظام الشاهنشاهي وانتصار الثورة الشعبية في ايران. وتعتبر الحركةالشعبيـة، التي بدأت في اواسط السبعينات وتكاملت في اواخرها حتى الانعطاف العاصف الذي جرى في شباط عام ١٩٧٩، أهم حدث في تأريخ ايران الحديث. هذا الحدث ترك بصماته على التطورات السياسية والفكرية داخلياً واقليمياً وعالمياً. ان التحليل العلمي لهذا الحدث يحتاج الى دراسات عميقة ومتأنية.

وفي الذكرى الخامسة عشرة لا بد من التوقف عند مصير الثورة، وهل تم تحقيق تلك الآمال والشعارات، شعارات الحرية والعدالة ومعاداة الاستبداد، التي رفعها الملايين من الشعب الايراني اثناء المجابهة الدموية مع سلطة الشاه؟ وهل ان النزعة الدينية السياسية أو تذويب الديني في السياسي أو السياسي في الديني قادرة على حل المعضلات الكبيرة في المجتمعات الاسلامية الحديثة؟

مقدمة تأريخية

لا بد ان نتوقف ونلقي نظرة سريعة على وضع المجتمع الايراني قبل الثورة. فقد شهد خلال الستينات والسبعينات متغيرات هامة. ان نمط الحكم الاقطاعي لم يعد يستجيب للتطورات في العلاقات الانتاجية باتجاه الرأسمالية. فالبناء السياسي دخل في تناقض

حاد مع البرجوازية النامية التي تطمح الى التحرر من العلاقات البالية وتوسيع قاعدتها الاجتماعية وفتح الابواب امامها في الميدان الخارجي ايضاً. وضمن هذا السياق جاءت مبادرة الشاه نحو الاصلاحات الجزئية والتي اطلق عليها «الثورة البيضاء». هذه الاصلاحات، التي أضعفت البناء الاقطاعي البالي، لم تحرم الاقطاعيين وكبار ملاك الأرض من الاحتفاظ بمواقعهم الاقتصادية الاجتماعية. ولم تمس هذه الاصلاحات البنية السياسية، فهي لم تتضمن اية مبادرات نحو اقامة قدر من الليبرالية أو الديمقراطية في البلاد. ولا بد من الاشارة هنا الى ان هذه الاصلاحات الجزئية ألحقت ضرراً بمصالح الفئات العليا في المؤسسة الدينية التي ارتبطت بوشائج مع بعض الفئات الاقطاعية. ومن هنا جاءت معارضتها لاصلاحات الشاه وذلك بذريعة انها تضعف «القيم الاسلامية لتقليدية».

ان نمو العلاقات الرأسمالية، واتساعها خاصة بعد ازدياد مداخيل النفط في اواسط السبعينات، أديا الى تغير كبير في تناسب القوى الاجتماعية وحتى بين مختلف شرائح البرجوازية الايرانية نفسها. فطرأت تغيرات على بنية البرجوازية الصغيرة التقليدية في المدن، وتعمقت التناقضات بين البرجوازية المحلية وبين البرجوازية المهيمنة على السلطة والمتكونة اساساً من اركان العائلة المالكة وبطانتها والتي استحوذت على جزء هام من الدخل الوطني. وانحسر دور البرجوازية التجارية التقليدية (البازار) بفعل اجراءات الشاه لتحجيم دورها تفادياً للمعارضة، وجرت هذه الاجراءات لصالح البرجوازية التجارية الكبيرة المرتبطة بقمة النظام. ولم تُوجه المداخيل النفطية الكبيرة نحو تطوير الزراعة. إذ تحولت البلاد من مصدرة للمنتجات الزراعية الى موردة كبيرة للسلع الغذائية. وتدهورت الزراعة المحلية وتبخرت حتى تلك الجوانب الايجابية المحدودة للاصلاح الزراعي في عهد الشاه. واضطرت جمهرة واسعة من الفلاحين الى الانتقال الى المدن للبحث عن لقمة العيش وتحسين ظروفها المادية.

ان التطور الرأسمالي لم يمس الاقاليم القومية، فلم يجرِ تغيير يذكر في مناطق كردستان أو تركمنستان أو بلوجستان وسيستان، وحتى عربستان، اقتصر التطور فيها على الصناعة النفطية بسبب وجود منابع النفط هناك. ويمكن استثناء مناطق آذربيجان من ذلك لاعتبارات تاريخية وسياسية. وعلى العموم فان الشاه اتبع سياسة شوفينية متعارضة مع مصالح الاقليات القومية في ايران والتي تشكل بمجموعها حوالي ٥٠٪ من سكان البلاد.

ولم تكن السلطة الحاكمة، بفعل عقليتها ونهجها السياسي المعادي للديمقراطية، تستطيع التعامل مع المداخيل النفطية الكبيرة ضمن تخطيط منسق وتنمية عقلانية.

وهكذا تفاقمت ظاهرة الفساد الاداري، والتضخم في جهاز الدولة. وتعاظمت ظاهرة هدر المداخيل النفطية جراء هوس الشاه نحو الانفاق على التسلح واجهزة القمع والتدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى، والاوهام حول تحويل ايران الى ما يسمى بـ«القوة السادسة» في العالم.

وتعمقت الأزمة الاجتماعية ـ السياسية بسبب بقاء البنية السياسية للحكم ضمن النمط الاستبدادي القروسطائي. ودخلت هذه البنية في تناقض مع العلاقات الاجتماعية الرأسمالية الجديدة التي تحتاج الى اشاعة قدر من الليبرالية والتحول الى دولة المؤسسات والقانون وقدر من التشريعات الديمقراطية.

إضافة لهذه التناقضات الداخلية، التي شكلت العامل الاساس في تفجير غضب الشارع الايراني والتسريع في عملية الاطاحة بالشاه، فان العامل الخارجي، المتمثل في موقف الادارة الامريكية السلبي، خاصة موقف الحزب الديمقراطي الامريكي، من شخص الشاه، لعب دوراً اضافياً في عملية التغيير. فالحزب الديمقراطي الامريكي، بالرغم من نهجه العام في دعم حكم موالٍ للغرب في ايران، الا انه كان يسعى على الدوام ومنذ ادارة كندي الى استبدال الشاه بشخص آخر اكثر اعتدالاً لتفادي تعرض المصالح الامريكية في ايران الى الخطر. وهكذا سارت ادارة كارتر على هذا النهج فرفعت عملياً غطاء حمايتها للشاه بأمل الاستعاضة عنه بشخصية أخرى كبختيار مثلاً. ويشير رئيس المخابرات الفرنسية السابق كونت دي مارنشيز في كتابه «امبراطورية الشر» الى هذه الحالة ويقول: «في احد الايام اخبرت الشاه بأسماء المسؤولين في الولايات المتحدة من الذين تقع على عاتقهم مسؤولية إزاحته واستبداله. واخبرته انني شاركت عملياً في احد اللقاءات المكرسة لذلك، وعن الشخصية التي ستحل محله. الا ان الشاه لم يصدق كلامي وقال: اصدق كل ما تقول الا هذا، فمن الحماقة التفكير بازاحتي، اذ انني افضل من يدافع عن الغرب في هذا الجزء من العالم».

الا ان الموجة الشعبية العارمة التي بدأت في اواخر عام ١٩٧٧ واستمرت حتى شباط عام ١٩٧٩ قلبت جميع المخططات لاستبدال الشاه بشخصية موالية للغرب.

السلطة بعد الثورة

ومع سقوط الشاه، انتقلت السلطة من ايادي الرأسمالية الكبيرة الموالية للغرب والمتمثلة بالعائلة الشاهنشاهية وبطانتها، الى ائتلاف يضم بعض التيارات من البرجوازية الايرانية ذات النزعة الدينية، واستثنيت التيارات الديمقراطية والعلمانية. وبفعل التناقضات الحادة داخل السلطة الجديدة، الحكومة المؤقتة، وبينها وبين التيارات الدينية

خارج الحكومة المؤقتة لم تستطع هذه السلطة تطبيق برنامج متكامل لمعالجة المشاكل الحادة التي احاطت بالمجتمع قبل الثورة. وبقي الاستياء الاجتماعي والمشاكل الاقتصادية - الاجتماعية دون حل وتفاقمت المشكلة القومية.

ومنذ اللحظات الاولى لانتصار الثورة بدا الفرز واضحاً داخل المؤسسة الدينية. فمن جهة كان هناك تيار يسعى الى موقف متسامح وديمقراطي نسبي ازاء الرأي الآخر والقوى السياسية الأخرى. ومثل هذا التيار رجال دين بارزون امثال آية الله مطهري، اول رئيس لمجلس قيادة الثورة، وآية الله طالقاني وآخرون. ومقابل هذا التيار كان هناك تيار يرمي الى احتكار السلطة والرجوع الى النمط الاستبدادي في الحكم تحت غطاء ديني. وتنشطت تيارات دينية متطرفة مثل جماعة «الفرقان» و«الحجتية» وغيرها والتي نفذت سلسلة من الاعمال الارهابية ضد رموز بارزة من رجالات الثورة. ودشنت اول افعالها في اغتيال آية الله مطهري بعد شهر تقريباً من انتصار الثورة، وتهديد وازاحة وجوه مؤثرة أخرى الى حد التصفية الجسدية. وشملت هذه النشاطات تيارات واحزاباً اسلامية أخرى اضافة الى التيارات العلمانية.

ووفر عدوان صدام حسين على ايران عنصراً اضافياً لهيمنة نزعات الاستبداد ونموذج الحزب الواحد. ان مجموع هذه العوامل، علاوة على عدم وجود اية تقاليد ديمقراطية في المجتمع، ساعدت على عرقلة ثم تصفية اي شكل من اشكال التطور الديمقراطي في البلاد. وبذلك تلقت الثورة ضربة عندما تعرقل تطبيق ركن هام من اركان الثورة، بأعتبارها معادية للاستبداد.

ان احد الاخطاء الكبرى لغالبية القوى المناهضة للاستبداد في ايران يتحدد في عدم توجهها للعمل المشترك وصيانة وحدة قواها من اجل تعزيز التعددية وبناء اساس المجتمع المدني ومعالجة والتعامل مع النزعات الديمقراطية لبعض التيارات التي شاركت في الثورة، اي بعض التيارات الدينية. وركزت فقط على شعار «معاداة الامبريالية» الذي ترفعه هذه القوى والذي تحول الى شعار لفظي بفعل تعاظم النزعات المتمثلة باحتكار السطة من طرف واحد وتصفية الحريات التي كسبتها الجماهير اثر الاطاحة بالشاه.

وتكرر في ايران ما حدث في الكثير من بلدان العالم الثالث، اي نزعة معاداة الديمقراطية، التي شكلت مقدمة لتقهقر الثورة والتخلي عن شعارات الحرية والعدالة والاستقلال وبالتالي عرقلة مساعي التنمية الضرورية لمعيشة الناس وجر البلاد الى مطبات وأزمات عميقة وتفتيت تلك الوحدة التي جمعت فئات اجتماعية مختلفة.

حرب .. حرب .. حتى النصر!!

ان الكارثة التي حلت بالبلاد اثر عدوان صدام حسين قد تفاقمت بفعل عاملين، الأول: سياسة استمرار الحرب تحت شعار «حرب.. حرب.. حتى النصر!!» و«الطريق الى القدس يمر عبر كربلاء» والذي تمسك به النظام الايراني رغم تمكن القوات المسلحة من اخراج قوات صدام من الاراضي الايرانية اثر معارك خرمشهر عام ١٩٨٢. وكانت هذه السياسة بمثابة الفخ الذي اريد به استنزاف طاقات البلدين، والذي ادى الى نتائج عكسية، حيث تمكن صدام حسين من تلقي الدعم الكبير دولياً وعربياً واستمرار حكمه الدموي على الشعب العراقي، وبالتالي جلب الكوارث للشعب العراقي وشعوب المنطقة اثر غزو الكويت. ولم تستطع السياسة الايرانية ان تلعب دورها في ازاحة صدام حسين من الحكم اثر مغامرته في غزو ايران.

وكان الخراب الذي لحق بالبنية الاجتماعية ـ الاقتصادية كبيراً وسيؤثر سلباً على تطور المجتمع الايراني على مدى العقود القادمة. فمن الناحية البشرية قدرت خسائر ايران بأكثر من ٥٠٠ ألف قتيل، ٦١ ألف مفقود، واكثر من ٣٥ ألف اسير وما يزيد على ٥٠٠ ألف معوق. اي خسارة اكثر من ٩٪ من القوى الفاعلة في البلاد. هذا علاوة على تهجير اكثر من ٢,٥ مليون مواطن. ان سنوات الحرب الثمان قد ابعد ملايين الشباب عن «ميدان العمل الانتاجي. وألحقت الحرب الدمار بأكثر من ٥٢ مدينة بينها ٦ مدن كبيرة مسحت كلياً. ودمر أكثر من ٣٠٪ من ريف المناطق الحدودية التي شملتها الحرب. ويقدر مجموع الخسائر المادية في هذه المناطق السكانية بأكثر من ١٨ مليار دولار. ويبلغ مجموع الخسائر المادية التي لحقت بالبلاد رقماً اسطورياً يتجاوز الـ٥٩٢ مليار دولار، حسب الارقام الرسمية الايرانية، وبلغت تكاليف الحرب ٣٢٪ من ميزانية الدولة أي حوالي ٥٦ مليار دولار.

ان الحرب والسياسة العسكرية التي اتبعها النظام ألحقت ضربات هائلة بهيكل البلاد الاقتصادي، وتراجع الاقتصاد عقوداً الى الوراء. ان مجموع الخسائر المادية اثناء الحرب يعادل مداخيل ايران النفطية خلال الـ٤٥ سنة الماضية.

سياسة اجتماعية .. عشوائية

أما العامل الثاني فيتحدد في السياسة الثقافية والاجتماعية للسلطة الايرانية. فقد شجع النظام ظاهرة اجتماعية تكمن في الوتائر السريعة للنمو السكاني. لقد بلغ معدل

النمو السكاني في السنوات التي سبقت الثورة ٢,٧٪. أما بعد الثورة فارتفع هذا المعدل الى ٣,٢٪. وازداد نفوس ايران خلال عشر سنوات من ٣٤ مليون نسمة الى ٥٥ مليون نسمة. واذا استمر هذا المعدل على نفس الوتيرة فسيصبح مجموع سكان ايران ٨٠ مليون نسمة في نهاية هذا القرن.

والسبب الاساس في هذه الظاهرة يعود الى شعار «أسلمة» المجتمع والحفاظ على «القيم الاسلامية». فقد جرى تخفيض سن الزواج الى ٩ سنوات بالنسبة الى الفتيات، والى ١٥ سنة بالنسبة الى الفتيان. ومنعت السلطة مظاهر التخطيط العائلي. ان الزيادة السريعة للسكان قلصت من الدخول الواقعية للعائلة الايرانية.

ثلاث مراحل في السياسة الاجتماعية-الاقتصادية

مرت السياسة الاقتصادية - الاجتماعية لسلطة ما بعد الثورة بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: عملت السلطة على تأميم الصناعات الاساسية والبنوك والتجارة الخارجية وتحقيق قدر من الاصلاح الزراعي والسعي لتضييق الهوة في توزيع الثروة. وبالرغم من تعثر هذه الاجراءات الا انها قطعت شوطاً معيناً في تحسين نسبي لمعيشة غالبية السكان. لقد ازداد الناتج القومي الاجمالي من ٢٥٦٨ مليار ريال عام ١٩٨٠ الى ٢٦٣٩,٤ مليار ريال عام ١٩٨١، والى ٣٠٤٠,٢ مليار عام ١٩٨٢ (بالاسعار الجارية). وشهد توظيف الرساميل اتجاهاً متزايداً في الزراعة، بحيث ازدادت نسبة تكوين الرأسمال الثابت في هذا القطاع من ٤٪ على ١٩٧١ الى ٧,٢٪ عام ١٩٨٣. وازدادت حصة القطاع الصناعي في تكوين الرأسمال الثابت من ٤٩,٩٪ عام ١٩٧٨ الى ٥٩,٧٪ عام ١٩٨٠. وانخفضت نسبة قطاع الخدمات من ٣٦,٦٪ عام ١٩٧٨ الى ٣١٪ عام ١٩٨٠.

وكان من نتائج هذه السياسة ان ازدادت قيمة الناتج الاجمالي، وازدادت حصة الزراعة في تحقيق هذه الزيادة . وتعتبر المرحلة الأولى مرحلة اعادة تشكيل القاعدة الاقتصادية للبلاد. الا ان التحول الذي جرى بفعل استمرار الحرب العراقية الايرانية أدى الى توقف الجهود التي بذلت في تحقيق التوازن في البنية الاقتصادية.

المرحلة الثانية: أدى استمرار الحرب الى نمو الاستيراد بسبب الدمار الذي لحق بالبنية التحتية. وتعاظم دور البرجوازية التجارية التقليدية. وتغير خطاب المسؤولين في السلطة

من الدفاع عن اوسع الفئات المحرومة الى دعم «اصحاب البازار المحترمين». ان من خصائص البرجوازية الصغيرة الحاكمة في كل بلدان العالم الثالث انها تتأرجح في مواقفها السياسية ثم تميل الى الفئة الاجتماعية الاكثر تحكماً في السياسة الاقتصادية. وهكذا انصاعت البرجوازية الصغيرة الحاكمة في ايران لصالح البرجوازية التجارية التقليدية.

هذا التطور في التوازن الاجتماعي السياسي ألحق ضرراً بالاصلاحات الاجتماعية، وانعكس ذلك بشكل خاص بالاصلاحات في مجال الزراعة. وبدأت الدعوات تتردد في ان الاصلاح في الزراعة يتعارض مع «الموازين الاسلامية». وبدأت زيادة الانتاج الزراعي بالتباطؤ من ٧,٩٪ عام ١٩٨٢ الى ١,٦٪ عام ١٩٨٥.

وتحملت الصناعة الكبيرة التراجع اثناء الحرب. فقد كانت هذه الصناعة تستورد ٦٣٪ من احتياجاتها، بما يقدر بـ٧ مليار دولار سنوياً. الا ان الانخفاض في مداخيل العملة الصعبة ولا سيما عوائد النفط أدى الى تقليص هذا المبلغ الى أقل من مليار دولار سنوياً. وانخفض الانتاج الصناعي بنسبة ١٦,٤٪ عام ١٩٨٦ ثم ٦,٣٪ عام ١٩٨٧. ولم تعمل الصناعة الا بمقدار ٤٠٪ من طاقتها الاجمالية.

وشهدت هذه المرحلة تعاظماً في اعمال القمع والارهاب بعد ان بدأت القاعدة الاجتماعية للسلطة بالتقلص، وازداد التذمر والاستياء في الشارع الايراني.

المرحلة الثالثة: بعد وفاة الامام الخميني بدأ احتكار السلطة من قبل البرجوازية الصغيرة بالانحسار، ليحل ائتلاف من البرجوازية التجارية والبيروقراطية. وشرع هذا الائتلاف بالهيمنة علي مفاتيح الادارات الحكومية ومجلس الشورى. وفقد مبدأ «ولاية الفقيه» بريقه. وانفتح المجال لتطورالخصخصة في البلاد.

وبالرغم من الائتلاف القائم في السلطة بين البرجوازية التجارية التقليدية (البازار) والبرجوازية البيروقراطية، الا ان هناك نقاط تناقض بينهما حول مستقبل التطور الرأسمالي في البلاد. فالبرجوازية التجارية التقليدية لها مصلحة في الابقاء على الوضع الاستثنائي والقوقعة الاقتصادية والتمسك «الظاهري» بالعداء للغرب، وهكذا تبقى هذه الفئة على علاقات مع انصار «ولاية الفقيه». اما البرجوازية البيروقراطية فانها ترى ان تعزيز مواقعها يرتبط ارتباطاً مباشراً بالتقارب مع الغرب. ان الخلاف داخل هذا الائتلاف يرجع الى ان البرجوازية التجارية التقليدية تركز أساساً على مبدأ خصخصة الاقتصاد بهدف ازاحة هيمنة الدولة على العملية الاقتصادية. في حين ان البرجوازية البيروقراطية تسعى الى تعزيز سيطرة الدولة خدمة لمنافعها الخاصة. وهي بذلك تمد وشائج لها هي الأخرى مع انصار ولاية الفقيه. وهكذا يجري صياغة السياسة الاقتصادية للائتلاف بشكل مريك بفعل الصراعات بين ثلاث اتجاهات متضاربة.

وبشكل عام فإن السياسة الاقتصادية المعلنة في المرحلة الثالثة تقوم على اساس سياسة الباب المفتوح وخصخصة الوحدات الاقتصادية التابعة للدولة. ان الخطة الخمسية الأولى التي عرضها رفسنجاني تعتمد على القروض الخارجية وزيادة استيراد البضائع والقبول بشروط البنك الدولي وصندوق النقد الدولي. وفي السنوات الثلاث من الخطة الخمسية (١٩٨٩-١٩٩١)، بلغ مجموع الاستيراد ٦٣,٧ مليار دولار. في حين بلغ مجموع الصادرات النفطية وغير النفطية خلال السنوات الثلاث نفسها حوالي ٥٠ مليار دولار. وهذا ما زاد حجم الديون الخارجية الذي وصل الى ٣٠ مليار دولار عام ١٩٩١، وربما ستتجاوز الديون ٥٠ مليار دولار في نهاية عام ١٩٩٣ حسب تقديرات الاوساط الرسمية الايرانية.

بالطبع ان هذه السياسة يمكن ان تؤدي الى انعاش الاقتصاد وقتياً. فالانتاج القومي ازداد بنسبة ٤٪ عام ١٩٨٩ و١٢,١٪ عام ١٩٩٠. الا ان هذه الزيادة تركزت في قطاع التبادل السلعي ولم تزد في الصناعات الكبيرة الا بمقدار ٧,٥٪. وهكذا لم تستوعب الصناعة الكبيرة الا ٨٪ من مجموع القوى القادرة على العمل.

مؤشرات راهنة

واليوم فإن المؤشرات الاقتصادية - الاجتماعية تدل علي الهوة العميقة التي تفصل اكثرية السكان عن الاقلية التي تتحكم بثروات البلاد. ان ٧٠٪ من السكان (٣٥ مليون) تعيش دون مستوى الفقر. وتقلصت القدرة الشرائية للمواطن الايراني الى ٦٠٪ بالمقارنة مع عام ١٩٧٩. ويشير غلام حسين نادي احد نواب مجلس الشورى الاسلامي الى ذلك ويقول: ان ١٢ مليون من سكان ايران يعيشون في حرمان شديد، و٢٢ مليون يواجهون ظروفاً معيشية حرجة، وان ١١,٧ مليون يواجهون ظروفاً خطيرة. أما المرفهون فلا يشكلون سوى ١,٣ مليون نسمة. وتدل مؤشرات وزارة التخطيط والميزانية الايرانية لغاية ١٩٩٢ ان ١٠٪ من سكان البلاد يحصلون على ٣٨٪ من اجمالي الدخل القومي. وان ٥٠٪ من سكان ايران لا يحصلون الا على ١٢٪ من اجمالي الدخل القومي. وتحصل ٦٠ ألف عائلة ايرانية على دخل شهري قدره ٣ مليون ريال لكل عائلة حين لا يزيد الدخل الشهري لعائلة الكادحة على ٣٠ ألف ريال (أي قرابة ٢٥٠ دولار) في عام ١٩٨٦. وحسب الارقام الرسمية الايرانية، بلغ متوسط دخل خمسة آلاف من التجار والوسطاء ٥٠ مليار ريال سنوياً بعد حسم الضرائب. ويلغ عدد اصحاب المليارات ٩٠٠ عائلة بعد ان كان ١٠٠ عائلة قبل الثورة.

ان السلطات المتعاقبة في ايران فشلت في تحقيق الشعارات التي رفعها الملايين من الناس في اعوام ١٩٧١-١٩٧٩، تلك الشعارات المتمثلة في تحقيق الحرية والديمقراطية واقامة المؤسسات المنتخبة شعبياً والسير على طريق العدالة في توزيع الناتج القومي. وينتاب السلطة الايرانية الحالية نفس الهوس الذي انتاب حكم الشاه، فهي تسير في طريق التسليح المنهكة للاقتصاد الايراني، ثم تصريف ازمتها الداخلية الى الخارج عبر شعارات «الدفاع عن الاسلام»، وهكذا تحشر نفسها في الامور اللبنانية والسودانية والافغانية والجزائرية. ولمواجهة حالة الاستياء في الداخل تلجأ السلطة الى اسكات الافواه المطالبة بالتغيير عن طريق بناء مؤسسات القمع والوقوف بوجه اية محاولة للانتقال الي دولة المؤسسات والقانون كشرط اساسي للشروع في تنمية عقلانية تنقل البلاد الى القرن الحادي والعشرين.

المرحلة اللينينية من الماركسية

كانت أسرة التحرير قد وعدت بنشر الحلقة الثانية من مناقشات الرفيق زكي خيري لطروحات عطية مسوح. وقد صرفت النظر عن ذلك لأن الحلقات الثلاث لمناقشاته قد نشرت في كتاب للرفيق زكي صدر في السويد.

ندوة

النزعة القومية، الدولة، الأمة والدين

انعقدت في لندن على مدار يومين (١٥ و١٦ أيار الماضي) ندوة فكرية نظمها «المنبر الثقافي» بعنوان: القومية، النشوء، الأشكال، المشكلات، النظريات.

ضمت الندوة عدداً من الباحثين البريطانيين والعرب من ذوي الاختصاص الاكاديمي أو الكتاب المعنيين بهذه الموضوعات في مؤلفات منشورة.

شارك في الندوة، البروفسور روجر أوين، البروفسور سامي زبيدة، الدكتورة ماريون ـ فاروق سلكليت والدكتور بيتر سلكليت، والدكتور ايبرهارد كينله، والكاتب وليد نويهض، الكاتب عبد الحليم الرهيمي، والكاتب فالح عبد الجبار، والكاتب زهير الجزائري.

في العدد الاسبق (٢٥٦) من الثقافة الجديدة قدمنا خلاصة ومقتبسات من بعض البحوث. ادناه تستكمل تغطية اعمال الندوة بمقتبسات ضافية من بحث البروفسور سامي زبيدة الموسوم: «بين النزعة القومية العربية ونزعة الاسلام السياسي في المنطقة»، ومن بحث الدكتورين ماريون ـ فاروق سلكليت وبيتر سليكلت المعنون: «نزعة العروبة في العراق»، واخيراً من بحث البروفسور ايبرهارد كينله المعنوان. «تكهنات حول مستقبل القومية العربية».

ومن الجدير بالذكر ان الابحاث المذكورة، اضافة الى عدد آخر من المساهمات الفكرية لعدد من المنظرين من امثال أريك هوبزباوم وارنست جيلنر، وبنديكت اندرسن، ستظهر في كتاب موحد عن دار الساقي في لندن.

ويتهيأ المنبر الثقافي، لعقد ندوته الفكرية الثانية حول «مستقبل الماركسية» حيث يتوقع مشاركة باحثين من بريطانيا، وفرنسا والمانيا وبولندا، اضافة الى باحثين عرب،

لمناقشة موضوعات متشابكة بينها: ١ـ الفلسفة الماركسية اواخر القرن العشرين. ٢ـ المنهج كعلم. ٣ـ النظرية الاقتصادية الماركسية والسوق العالمي. ٤ـ الماركسية والعالم العربي. ٥ـ الماركسية والنزعة القومية. ٦ـ التجربة والتحول في أوروبا الشرقية. ٧ـ الاشتراكية واقتصاد السوق في الصين، وهناك موضوعات أخرى.

نزعتا القومية العربية والإسلام السياسي في المنطقة

سامي زبيدة*

«الاسلام السياسي»، ما اعنيه بذلك هو الحركات السياسية الاسلامية الحالية. ويمكن القول ان «الاسلام السياسي» اكثر شمولاً من ذلك، بمعنى ان الكثير من حركات السلفية وأفكار الصوفية كانت ايضاً سياسية، وان هناك انواعاً شتى من الاسلام السياسي. أعلن ان هذا صحيح، ولكنني استخدم هذا التعبير كاختزال. فبدلاً من استخدام تعبير غير نافع مثل: «الأصولية» فإنني استخدم تعبير «الاسلام السياسي».

ظاهرياً يبدو هذا الاسلام تضاداً مع القومية ونعرف ان واحداً من أكبر التناقضات العدائية في التاريخ المعاصر للشرق الأوسط كان بين الرئيس الراحل جمال عبد الناصر والاخوان المسلمين. كما ان الاخوان المسلمين والتيارات الاسلامية كانت على الدوام اكثر صخباً في عدائها للقومية. ويستمر هذا الى يومنا الحالي.

ويتضمن جدل الاسلاميين في العادة ان: (أ) القومية عنصرية بينما الاسلام شمولي. و(ب) القومية في التطبيق جلبت الكوارث للشعوب المسلمة وللعرب. فهي لم تفعل شيئاً في شأن احتلال فلسطين أو بخصوص مشكلة اسرائيل. وهي قادت الى «الهزيمة» عام ١٩٦٧... الخ. وان هذا في الحقيقة، هو السبب في ان الاسلام يشكل أساساً افضل لأن برنامجه هو برنامج «التوحيد». وسنرى ان تعبير «التوحيد يستخدم في معنيين: الأول، هو المعنى الديني الواضح، والآخر، المعنى الذي يحقق الوحدة العضوية لـ«الأمة». وهذا نوع آخر من التوحيد.

وهناك عنصر آخر في القومية يتعرض الى الادانة من جانب الاسلاميين، وهو أنها

* أكاديمي عراقي مقيم في بريطانيا.

تصور غربي، وانها تطورت في أوروبا مع الثورة الفرنسية، ومع توحيد ألمانيا. وانها لذلك فكرة مستوردة، جزء من «الأفكار المستوردة» التي ألحقت ضرراً كبيراً بالشعوب المسلمة والعربية.

ولكن على رغم هذا التناقض العدائي الواضح والخصام الجلي بين الاثنين، فانني أريد ان أجادل بأن هناك أوجه شبه (تماثل) أساسية في بنية الفكر وبنية السياسة بين القومية والاسلام السياسي. أعتقد انه على رغم مجادلة الاسلاميين بأن رسالتهم شمولية، فانها في التطبيق كانت دوماً متضمنة في إطار دولة ـ قومية أو مجموعة من الدول القومية.

ومثال ايران يوضح ذلك بدرجة جيدة للغاية، لأن من الواضح ان رسالة الثورة الايرانية والخميني رسالة شمولية. فهي موجهة الى المجتمع الاسلامي بأكمله، وتدعو فعلاً الى الفكرة القائلة بأنه يجب نشر الاسلام عبر «الجهاد» الى نطاق أوسع من المجتمع الاسلامي القائم. لكن في التطبيق، تم بناء الاسلام في جمهورية ايران الاسلامية ذات القومية الايرانية. والى الحد الذي يبدي فيه اهتماماً بالعالم الاسلامي فإنه ذلك النوع من الاهتمام الذي يريد ان يخدم المصالح الايرانية في تلك المناطق الأخرى من العالم الاسلامي.

وأعتقد ان روسيا في ظل ستالين ربما تصلح كمثال مواز جيد جداً. فالشيوعية، طبعاً، رسالة شمولية. وهي ليست قومية. لكنها، في الواقع، وبالطريقة التي طبقت في الاتحاد السوفياتي أقيمت كقومية روسية. وفضلاً عن هذا المثال الموازي ضمناً الذي يشير الى ان الاسلام عندما يصبح دين الدولة يتحول ايضاً الى قومية، اعتقد ان هناك ايضاً بعض الأمثلة الموازية الأخرى أو أوجه الشبه بين بنية الفكر القومي وبنية الفكر الاسلامي السياسي.

فأحد العناصر الأساسية للقومية هي ان تؤلف لنفسها تاريخاً. دعوني هنا، في البداية، اتحدث عن نوعين مختلفين أساساً من القومية. فهناك احد أشكال القومية، وهو قومية المواطنة التي جاءت مع الثورة الفرنسية، فكرة «الوطن»، الوطن الأم الذي يعتبر فيه كل السكان الذين يعيشون في أراض محددة مواطنين بغض النظر عن أصولهم العرقية أو اللغوية.

ويقدر، على سبيل المثال، أنه في أيام الثورة الفرنسية كان أكثر من ٥٠ في المئة من سكان فرنسا لا ينطقون باللغة الفرنسية. ولكن ذلك لم يكن اطلاقاً، على ما يبدو، مصدر قلق للثوار، إذ انهم لم يحاولوا ان يجبروا الشعوب الأخرى على تعلم الفرنسية باستثناء ما يتطلبه نظام التعليم الموحد الذي أقاموه.

وفي مقابل هذه الفكرة باعتبار القومية هي المواطنة للسكان الذين يقطنون بصورة

مشتركة أرضاً هي «الوطن»، هناك ذلك النوع من القومية الذي يرتبط بدرجة أوثق بألمانيا وايطاليا وبإعادة توحيدهما. وهذا وضع يختلف تماماً. فهذه البلدان تتألف من دويلات عدة مختلفة. أي انها مفتتة. وفي الحقيقة، يرى القوميون العرب في هذا النوع نموذجاً لهم، بالضبط لأنهم يعتقدون ان وضع الأمة العربية مماثل، حيث توجد دول كثيرة ولكن أمة واحدة، أو كما تقول أغنية محمد عبد الوهاب: «أمم شتى ولكن العلى جمعتنا أمة».

لذا، في هذا النموذج الألماني للقومية يجري التأكيد على العرقية (الأصل العرقي). والتأكيد هو على ان هناك شعباً ألمانياً، هو الآن ممثل في عدة دول، وان ذلك مأساة تاريخية كبرى، وما يجب علينا القيام به هو معالجة ذلك واقامة دولة موحدة تتولى تمثيل هذا القوم، و«روح الشعب» هذه. أي هؤلاء الناس الذين يمتلكون تأريخاً مشتركاً، تراثاً مشتركاً، ولغة مشتركة. وانه يجب توحيدهم في اطار وأن يكون لديهم دولة تكون تعبيراً لهذا الوجود التاريخي.

كذلك، وكي يمكن الدعوة لتبني هذا النوع من القومية، يجب ان تؤلف تاريخاً يظهر ان هناك «أصلاً ألمانياً»، ليس فقط كحقيقة تعود الى الطبيعة، بل أيضاً كحقيقة ترتكز الى الثقافة والارادة، وان الناس الذين يمتلكون أصلاً عرقياً مشتركاً وينطقون بلغة مشتركة يجب أن تكون لديهم، بشكل ما أيضاً، إرادة مشتركة، وان هذه الارادة المشتركة يجب التعبير عنها في صيغة دولة خاصة بهم، دولة موحدة.

بالتالي، ليس من المثير للاستغراب ان تمارس أفكار الفلاسفة الألمان من أمثال هايديغر وفيخته تأثيراً مهماً على القوميين العرب، بصورة مكشوفة في حالة ساطع الحصري، وبصورة مستترة (ضمنية) في حالة ميشيل عفلق وزملائه من المنظرين.

والمثال الموازي لذلك في الاسلام السياسي هو انه بدلاً من وجود هذه الوحدة العرقية التي كانت قائمة على امتداد التاريخ وتأليف تاريخ يظهر وجودها المستمر وارادتها، فإن هناك «الأمة» الاسلامية.

لذلك فإن الفكرة القائلة ان هذا الاسلام الأصيل الذي إقامه النبي محمد لمجتمع المدينة مستمر على امتداد التاريخ، لا يعني فقط ان هناك اناساً مسلمين على الطريقة نفسها التي يوجد فيها اناس مسيحيون، بل انه تجسيد للارادة. أي أنه على امتداد التاريخ كانت هناك إرادة لاقامة وحدة وامتلاك دولة تقوم على أساس الوحدة، على «توحيد» هذه «الأمة»، وان ذلك أحبط من قبل الأجانب والحكام الفاسدين... الخ. وتتابع الفكرة قائلة اننا وصلنا الآن الى المرحلة التي يجب علينا فيها ان نعيد فرض الاعتراف بوجودنا، وان مصير الأمة الاسلامية هو أن تقام دولة، ومن الأفضل ان تكون دولة موحدة في النهاية،

يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، عندئذ، ستنهض دولة الخير من المجتمع».

وهنا ايضاً تطرح هذه الفكرة التي تقول ان علينا ان نصلح الناس، وان هناك حاجة لـ«الاصلاح». من هم اولئك الذين نتولى اصلاحهم؟ الناس لا يتكيفون مع فكرتنا عما ينبغي ان يكون عليه المسلمون الحقيقيون. لا يتكيفون مع أفكار ومُثل الاسلام التي تتجسد في مجتمع الاسلام الأصيل. لذا يجب أن نقوم باصلاحهم.

ونجد هذا فعلاً، في السياسة العملية للحركة الاسلامية. فما يسمى «الاسلام الاجتماعي» والطريقة التي تفرض بها الجماعات الاسلامية في مصر، على سبيل المثال، سيطرتها على الاحياء المدنية في القاهرة، مثل عين شمس، أو اجزاء من أسيوط، لا يرمي الى جعل سكان هذه الاحياء يشاركون في ادارة شؤون مناطقهم، بل انهم يتولون ادارتها بالانابة عنهم. وجزء من برنامجهم هو الاصلاح، أي العمل لتحقيق التحول الى الاسلام الاخلاقي، الى الاسلام الحقيقي، لابعاد الناس عن قيم الانحلال القديمة وعن الأفكار المتنوعة والسائدة شعبياً في شأن الدين.

من الناحية التاريخية، ينطلق الاسلام السياسي والقومية معاً من الادراك السياسي لـ«التخلف» في مواجهة التقدم. وقد أصبح هذا واضحاً مع التأثير الاوروبي على الامبراطورية العثمانية وايران. ذلك ان مجتمعات الشرق الأوسط والمجتمعات الاسلامية كانت متخلفة الى حد كبير قياساً بالغرب في القرن التاسع عشر. وكان أول تجل لهذه المسألة، بالطبع، في المجال العسكري، حيث كان (الغربيون) متفوقين عسكرياً، واستولوا على الكثير من الأراضي التي كانت تابعة للامبراطورية العثمانية ولايران. كما انهم كانوا متفوقين اقتصادياً.

وأدرك المثقفون الذين أصبحوا على معرفة بأوضاع فرنسا وأوروبا خلال القرن التاسع عشر ان هذا التفوق العسكري والاقتصادي يستند على دستور اجتماعي وسياسي، وانها ليست فقط مسألة تكنولوجيا. وهناك أحداث مثيرة للاهتمام في فترة حكم محمد علي في مصر الذي كان مجرد قائد عسكري، واعتقد ان التكنولوجيا والتقنية الغربية متفوقة الى درجة كبيرة بحيث انه حاول محاكاة كل هذه الأساليب الغربية والصيغ الاقتصادية للسيطرة والاستغلال. ولكن، في النهاية، كان ذلك بلا جدوى.

بالطبع، يقول القوميون ان السبب وراء فشل محمد علي هو ان البريطانيين والفرنسيين تكالبوا ضده. لكن إذا نظرنا الى بعض الدراسات الأكثر عمقاً نرى ان بعض البنى التي أقامها محمد علي لم تكن قابلة للتطبيق، ولم يكن بالامكان ادامتها. وعلى رغم انه من الصحيح ان السلطات البريطانية لم تكنّ الود لمحمد علي آنذاك، فانها حتى لو لم تحاربه وتحاول ان توقف توسعه العسكري، فإن امبراطوريته كانت ستنهار من الداخل.

لذا شعر كثير من الناس، وهم محقون تماماً في ذلك، انه لم يكن كافياً امتلاك التكنولوجيا، ولم يكن كافياً ان تستورد التكنولوجيا. لم يكن كافياً ان يتم استئجار ضباط فرنسيين لتدريب الجنود. فأنت بحاجة الى اعادة تنظيم اكثر جذرية للنسيج الاجتماعي.

وهذا هو الشيء الذي أدركه جيداً الشيخ محمد عبده. فعلى رغم انه ومعلمه (الملهم) الافغاني اعتبرا الامبريالية الأوروبية والهيمنة الأوروبية العدو الرئيسي، فقد اعتبر انه، فقط عبر اصلاح جذري عميق للمجتمع والحكم والتعليم والوعي، يمكن تعزيز «الأمة» بالشكل الذي يمكّنها من مواجهة التحدي الأوروبي (...).

نزعة العروبة في العراق

ماريون - فاروق سلكليت

بيتر سلكليت*

(...) إذا ما تركنا جانباً للحظة الحقيقة المهمة المتمثلة في ان الاكراد، الذين شكلوا في الواقع ما بين خمس وربع السكان، لم ولن يكونوا عرباً، ولم ولن يتم اعتبارهم على هذا الاساس، يمكن القول ان الولايات الثلاث التي جمعتها بريطانيا لم تشكل بأي حال من الاحوال وحدة سياسية - جغرافية أو اقتصادية (...) وبالتالي، وعلى الاقل حتى افتتاح قناة السويس في عام ١٨٦٩ كانت البصرة تتجه الى الخليج والهند، وكانت بغداد محطة تجمع مهمة على الطريق البري بين سورية وايران. أما الموصل (...) فقد اتجهت لاقامة علاقات اقتصادية مع الاناضول وحلب اوثق من علاقاتها مع بغداد.

وإذا امكننا التعميم حول تطلعات اولئك الذين كانوا نشطين في الحركة التي سنطلق عليها اسم «العروبة» قبل الحرب العالمية الأولى وخلالها، فلعل من السليم القول انهم ارادوا تحرير العالم العربي من الهيمنة العثمانية أو اخراج المناطق التي جاؤوا منها من

* اكاديميان بريطانيان مختصان بشؤون الشرق الأوسط.

نطاق الحكم العثماني. فقد اعتقد البعض من هؤلاء النشطين وليس جميعهم، ان بريطانيا وفرنسا مستعدتان لمساعدتهم في تحقيق هذا الهدف. وفي أعقاب التسوية السلمية (١٩١٨ ـ ١٩٢٠) التي لم يتمخض عنها انشاء الدولة المستقلة التي تمناها أو قاتل من اجلها هؤلاء الافراد العرب، بدأ شكل جديد من العروبة أو من القومية العربية بالظهور، وهو شكل كان في جوهره قد لقي تأييداً من جميع الممثلين على المسرح السياسي تقريباً خلال فترة ما بين الحربين ومباشرة بعد الحرب العالمية الثانية. وتألف هذا الشكل، الذي انتشر من خلال قنوات تطورت بسرعة الى ما اصبح يمثل التعليم العام، من اعادة اكتشاف شعبية لـ«التراث العربي المشترك» والقول ان «الأمة العربية» كانت قائمة في السابق، ويشكل العراق (أو سورية أو فلسطين) جزءاً لا يتجزأ منها.

وفي حالة العراق (وكانت هناك ميول مشابهة في مصر قبل تطور نزعة العروبة في عهد عبد الناصر) رافق نشوء هذا الشكل انتشار موضوعة تقول ان عراقيي القرن العشرين هم الاحفاد المباشرون لشعوب ما بين الرافدين وللبابليين، وذلك بهدف ترويج مشاعر الولاء والفخر بالانتماء الى البلاد الجديدة. وفي الوقت الذي تم فيه التعبير بشكل واسع عن هذين الرافدين، القومية العربية والخصوصية العراقية، في الكتب المدرسية آنذاك، بدأ شعور جديد من الوعي الوطني والقومي بالتغلغل في اوساط السكان بصورة عامة (أو على الاقل في اوساط اولئك الذين مروا من خلال النظام التعلمي)، وتطور بصورة تدريجية ليصبح القاسم الآيديولوجي المشترك الذي حاول جميع الممثلين السياسيين توجيه انفسهم حوله.

من هنا، وعندما ظهرت الاحزاب الآيديولوجية، وجدت ان استقطابها لقاعدة واسعة من التأييد لا يمكن ان يتم الا من خلال دمج برامجها مع المفاهيم العامة، سواء للاستقلال العربي أو العراقي، وذلك حسب مقتضيات وضرورات المرحلة.

ونشير هنا الى ضرورة اخذ قدر من الحذر في نظر الاعتبار، وخصوصاً ان حاملي تطلعات القومية العربية ومضمون هذه التطلعات نفسه قد شهدا بمرور الوقت تغيرات مهمة. اذ يعود الجزء الاكبر من التشوش الذي نشأ في معرض مناقشات هذا الموضوع الى مطاطية ومرونة المصطلحات، التي تم بواسطتها دمج افكار ونزعات مختلفة ومتشابكة تتعلق بـ«الوطنية» و«القومية العراقية» و«القومية العربية» ضمن كلمة واحدة هي «القومية»، التي تفترض وجود درجة أكبر من التماسك والاستمرارية في الفكر القومي مما هو موجود بالفعل. ومن الواضح ان الرابط الآيديولوجي يكاد يكون معدوماً بين الاهداف السياسية لقادة مثل ياسين الهاشمي في العشرينات والثلاثينات، وعبد السلام عارف في الخمسينات والستينات، وصدام حسين.

دعونا الآن نأخذ حالة الضباط الشريفيين الذين رموا بثقلهم مع فيصل والدولة العراقية بعد عام ١٩٢٠. فقلما كانت اصالة مواقفهم الوطنية أو العراقية أو القومية أو المعادية للعثمانيين موضع شك أو ريبة. وقد كان ايضاً بامكانهم التأكيد، على الاقل في بداية العشرينات، على ان العراق مهما بدا بعيداً عن مشابهة أية دولة عربية مستقلة، الا انه كان دولة على اقل تقدير، وبالتأكيد فهو «اكثر عروبة» في ادارته مما كان عليه تحت الحكم العثماني. بيد انه بحلول نهاية العشرينات بات من الواضح ان هؤلاء القادة (نوري السعيد وجعفر العسكري واصدقاؤهما) اصبحوا مرتبطين بالبريطانيين الى درجة اسقطت معها في اعتبارات العراقيين أي مصداقية قومية أو وطنية قد يكونون امتلكوها في السابق. إذ انتقل التيار الاساسي للوعي القومي العربي والعراقي الى مجموعات، اعتبرت وبصورة عامة، بغض النظر عن طروحاتها السياسية الأخرى، ان الطريق الوحيد بالنسبة للعراق يكمن في الحصول على الاستقلال الناجز عن بريطانيا.

وتتمثل العقبة الأخرى امام التوصل الى فهم اوسع لهذه التطورات في اتجاه هذا النوع من التحليل الى التركيز على تصرف وتفكير نخبة سياسية ضيقة بشكل عام، في حين ان مجمل التراث السياسي الذي ظهر في اواخر الثلاثينات والاربعينات والخمسينات من بين اوساط الطبقات المدينية الوسطى وشرائحها الدنيا والعاملة كان في الواقع متركزاً حول تحقيق هذا الهدف. وبوقوع هذا التراث تحت التأثير الفعلي للحزب الشيوعي، خضع (هذا التراث) للرغبة في تخفيف حدة الفقر أو استئصاله، وتحقيق قدر أكبر من العدالة الاجتماعية. ومثلما اكد الاعتقاد السائد آنذاك، لم يكن بالامكان تنفيذ تلك الاصلاحات حتى يحصل العراق على استقلاله عن بريطانيا، وبالتالي فان اولئك الذين آمنوا بتلك المبادئ اعتبروا ان النضال من اجل العدالة الاجتماعية لا يمكن فصله بأي شكل من الأشكال عن النضال من اجل الاستقلال الوطني.

ومما هو جدير بالتأكيد في هذا الصدد هو انه صحيح ان الاستقلال الوطني كان هدف الجزء الاغلب من العراقيين الواعين سياسياً، الا ان اقلية صغيرة ممن تبنى هذه المشاعر كانت «قومية عربية» بالمعنى المحدد لكونها مؤيدة لدمج العراق بكيان عربي أكبر.

غير ان هذه النزعة لم تتمتع بشعبية واسعة في العراق مثلما لاقته، على سبيل المثال وفي الوقت نفسه، في سورية تحت الانتداب، حيث تم قمع الحركة القومية بشدة ولم يكن هناك أي تقدم ملموس في اتجاه تحقيق الاستقلال. وبما ان العراق كان مستقلاً، على الاقل بصورة اسمية، بعد عام ١٩٣٢، فقد كان له جيشه الخاص، وخدم جميع ضباطه الكبار في واحد من الجيشين العثماني والشريفي أو في كليهما. وكانوا جميعهم وبصورة قاطبة من السنة، وهي نقطة سنعود اليها بعد قليل. من هنا كانت مجموعة الضباط العراقيين

متفتحة بشكل خاص على هذه الأفكار، على رغم ان اعضاءها في هذه المرحلة ربما تخيلوا «العروبة» بمعنى وحدة الهلال الخصيب تحت الحكم الهاشمي، بدلاً من معانيها الحماسية والعاطفية التي صاغها ساطع الحصري وسامي شوكت.

غير انه وباستثناء تمتعها بدرجة من الشعبية في اوساط اعضاء نادي المثنى، الذين جاؤوا من خلفية مشابهة بشكلها العام لخلفية الضباط القوميين العرب، الذين غالباً ما كانوا مرتبطين معهم بأواصر عائلية أو علاقات صداقة (وهنا يجب ان نتذكر ان المجتمع كان لا يزال من ذلك النوع الذي يعرف فيه اعضاء الطبقات الوسطى والعليا بعضهم البعض من خلال التعارف الاجتماعي)، فان هذه الافكار لم تجد انتشاراً واسعاً خارج صفوف الجيش قبل اواخر الثلاثينات. وحتى بعد ذلك الوقت، تمثلت القضية الاساسية الأكثر الحاحاً، وعلى الدوام، بتأمين الحصول على الاستقلال الحقيقي عن بريطانيا. ولعل من السليم، بوجه عام اذن، القول انه طوال الفترة حتى صعود عبد الناصر، وعلى الاخص بعد أزمة السويس والغزو الثلاثي لمصر في ١٩٥٦، انحصرت جاذبية القومية العربية في العراق وبشكل واضح في قطاعات من العرب السنة المدينيين من الطبقات الوسطى والشرائح الدنيا منها، وذلك لسببين.

ففي المقام الأول، كانت نزعة القومية العربية دوماً ظاهرة مدينية في الغالب، وخلال الاربعينات والخمسينات من هذا القرن شكل السنّة اغلبية السكان المدينيين. والسبب الثاني، هو ان العالم العربي خارج العراق سني بشلك ساحق، في حين ان ما لا يقل عن ربع العراقيين هم من الاكراد وما يزيد عن نصفهم من الشيعة.

من هنا، على رغم مجازفتنا بزعزعة هذه الفكرة، فأن القومية العربية ونزعة العروبة لم يكن لهما صدى واسع في العراق على الاطلاق. أما شعبية الناصرية قبل ثورة ١٩٥٨ في العراق فلم تكن لها علاقة بمضمون العروبة بل انها نشأت بسبب كونها قد مثلت رمزاً للاستقلال العربي عن الغرب، وايضاً بسبب مضمونها الاجتماعي التقدمي.

فالحزب الشيوعي العراقي، الذي تمتع وبلا شك بقاعدة من الاتباع أوسع بكثير من أي تنظيم سياسي آخر في سنوات الخمسينات، دعم، هو وناصر، الاستقلال العراقي والعربي، وبالطبع صاغ ايضاً برنامجاً اجتماعياً واقتصادياً مهماً. لذلك ففي ١٩٦٨ عمد تجمع تآمري صغير ومحبوك بشكل محكم، هدفه الاستيلا على السلطة والاحتفاظ بها، عمد الى تعبئة هذه المشاعر - التي كانت لا تزال تشكل جزءاً من الغذاء الفكري للعناصر الواعية سياسياً من السكان - لغرض اضفاء الشرعية على حكمه. وهذا يشكل على الاقل جزءاً من تفسير حقيقة كيف استطاعت النجاح مجموعة صغيرة وبشكل جلي غير شعبية، وذلك من خلال تضليل الجماهير وحجب انظارها، من جهة، وتعبئة التطلعات السياسية

الشعبية والاستجابة اليها، وعلى الاخص بالطبع، تأميم الصناعة النفطية في ١٩٧٢، من جهة أخرى (...)

وبصورة عامة يمكن التمييز بين ثلاثة نماذج، تتشابك في أزمانها ومحتواها.

الأول، يمكن اجماله بكونه «القومية من الاسفل» أي خلال فترة النضال من اجل الاستقلال الوطني التي تمتد من الثلاثينات والاربعينات حتى اواسط الستينات.

الثاني، هو نموذج القومية العربية، المفروضة جوهرياً من «الاعلى»، والتي سُخرت بالدرجة الأولى ولا تزال لخدمة شرعية الانظمة الديكتاتورية في السلطة. وقد نجم عن ذلك، في ما بعد، اثر سلبي على تعبئة الجماهير، اقتضى المصادرة الكاملة على الميدان السياسي من قبل النظام.

الثالث، هو النوع الجديد من القومية الذي يصعب تمييزه عن نظيره الاسلامي المعادي بشكل متساو للغرب. وعلى الرغم من هذا النموذج لا يزال يستخدم اللغة المعادية للامبريالية نفسها والتي تعود الى فترة التحرر الوطني، الا انه يبدو وكأنه تعبير عن الشعور القوي بالاحباط الذي يحسه الكثير من العرب سواء الموجه منه ضد حكوماتهم أو ضد الغرب الذي يُنظر اليه باعتباره داعماً لهذه الحكومات. هذا النموذج من «القومية من الاسفل» قد تم استغلاله بدهاء من قبل صدام حسين في ١٩٩٠ لتصوير غزوه الامبريالي للكويت باعتباره عملاً معادياً للامبريالية وللغرب. انه لانعكاس مروع لخيبة الامل واليأس المنتشرين بين اوساط العديد من العرب غير العراقيين ان يكون مثل هذا الزيغ والانحراف لا يزال قادراً على ان يلقى الدعم الواسع.

تكهنات حول مستقبل القومية العربية!

ايبرهارد كينله*

ليس بمقدوري عرض الكثير من التفاصيل، على رغم تطرقي الى بعض الشواهد والأحداث التاريخية التي تعزز الآراء المختلفة في ما يتعلق بالحدس حول مستقبل القومية العربية، بل سأكتفي بعرض بعض الآراء حول مستقبل الحركة القومية العربية. وهي الآراء التي تعكس، برأيي، التوقعات المستقبلية لهذه المسألة وهي نابعة من الحدس فقط.

لن يكون مستقبل القومية العربية لامعاً ولا كارثياً، كما كان الأمر في الماضي.

وهناك عدة اسباب لذلك. فالقومية العربية، كما اعتقد، ستبقى في الوجود، لكن بصورة مختلفة عما كانت عليه من الثلاثينات حتى الستينات. وستكون هناك قومية عربية جديدة تماماً.

ومركز دراسات الوحدة العربية في بيروت منهمك في توضيح الطروحات الجديدة حول القومية العربية، وهي طروحات براغماتية متبلورة بصياغات افضل مما نجده في نهاية الخمسينات والستينات. أي انها قومية عربية مختلفة وجديدة وليس بالامكان اطلاق تسمية القومية العربية عليها على رغم اني لست متأكداً من هذه النقطة. وستكون القومية العربية اكثر علمانية.

(...) وعند الحديث عن القومية العربية، اعني باختصار اضفاء الشرعية على العمل السياسي، وأحدد القومية العربية بالاشارة الى مصالح الأمة العربية المفترض وجودها، كمبدأ لاضفاء الشرعية على العمل السياسي. وهذا يتضمن ان الذين يستخدمونها، وهم في معرض الاشارة الى مصالح معينة للأمة العربية، يؤمنون بوجود «أمة عربية»، وان الناطقين بالعربية في العالم يشكلون أمة تعتبر عربية. وهذا أهم عامل في تحديد هويتهم الجماعية.

سنتطرق هنا الى ثلاثة أسباب تقف وراء ما أطلق عليه زوال النسخة أو بالاحرى النسخ القديمة التقليدية للقومية العربية (...).

أولها، اخفاقات القومية العربية، اذا اتخذنا موقفاً اقل تفاؤلاً، فإن السبب الأول يكمن في النفاق التام للكثيرين ممن اضفوا الشرعية على مواقفهم السياسية بأسم الأمة العربية. لقد اخفق القوميون العرب في انجاز توحيد العالم العربي سياسياً في دولة واحدة. وبالطبع لم يهدف كل القوميين العرب لذلك.

(...) كذلك اخفق هؤلاء في توحيد الصفوف أو توحيد أنفسهم حول هدف محدد. ونعرف ان هناك سلسلة من التعريفات المختلفة للوحدة العربية، مثل تعريف جمال عبد الناصر لها خلال الخمسينات والستينات مثلاً. وحتى الأخير اخفق في هذه المسألة. أما الذين كانوا يدافعون عن مثل هذا التعريف، فلم يواصلوا سياسته.

إن سياسةً ما تستخدم دوماً لأهداف غير معلنة تفقد بمرور الوقت جاذبيتها، ولا تعتبر، آيديولوجيا سارية المفعول. ربما كانت هذه الآيديولوجيا نافعة بحد ذاتها، لكن تطبيقها يتصف بسمة التراجع عن روحها، وحتى اولئك الذين يستخدمونها لأهداف تختلف عن الأهداف التي يتوجب استخدامها، يأخذون في الاعلان عن انعدام اهليتها. وهذا ينطبق على أية آيديولوجية، ومن ضمنها القومية العربية.

ان الاخفاق الرئيسي يتمثل في عدم قدرة القوميين العرب على انجاز الوحدة العربية.

وما حدث في الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٨ مثال على ذلك. إذ جرى تبرير عمليتي الوحدة والانفصال على أساس القومية العربية. وكان هم السياسيين أو العاملين في دوائر الدولة في سورية يكمن في حل قضية سياسية حرجة اواخر الخمسينات، لذلك ان هؤلاء يتحدثون دوماً عن القومية العربية بوصفها هدفاً يرشد خطاهم في العمل السياسي، لكن الأمر، بالطبع، لم يكن كذلك، لأن لهؤلاء مصالح متباينة. فالحكومة الانفصالية الجديدة في سورية بعد انتهاء دولة الجمهورية العربية المتحدة، لم تمتلك ما تقوله في بياناتها الأول إلا ان تحركها جاء دفاعاً عن الوحدة العربية (...).

والاخفاق في حشد القوى العربية في الصراع العربي الأسرائيلي وعدم طرح حل لهذا الصراع يأخذ في الاعتبار مصلحة الفلسطينيين بالدرجة الأولى، ومصلحة العرب عموماً، يمثل الاخفاق الثاني للقومية العربية.

لقد عكس الصراع العربي الاسرائيلي منذ ١٩٤٧ تأريخاً من الاخفاقات العربية. يلقي البعض اللوم على القوى الخارجية، باعتبارها الصانع الغائب لهذه الاخفاقات. ولعبت هذه القوى دوراً معيناً من دون شك، لكن القومية العربية ذاتها عجزت عن ان تواجه اسرائيل مواجهة فعالة في أزمات عسكرية كبيرة، كما فشلت على المستوى الديبلوماسي في تحمل واجبها كما ينبغي لها، مما جرد هذه الأيديولوجيا من مشروعيتها. ومن الغرابة ان نرى اليوم حلاً يلوح في الأفق، قد لا يكون مقبولاً بالضرورة للفلسطينيين أو العرب، لأنه حل يحقق بشكل كبير مصلحة اسرآئيل، لكنه اذا ما تحقق، فلا يمكن لأحد القول انه انجز بفضل القومية العربية أو بفضل العمل السياسي الذي يستلهم المثل القومية العربية. فالمتفاوضون حالياً يمثلون مصالح أخرى، ربما كانت مصالح أكثر اعتدالاً، أو لمجرد التخلص من الاحتلال الاسرائيلي المرعب للضفة الغربية وقطاع غزة، لكن لا علاقة لذلك بالقومية العربية، بل له علاقة بحالة الدفاع عن النفس في فترة صعبة جداً بعد مرور خمس سنوات على الانتفاضة.

بدأت هذه المفاوضات في اللحظة التي هزمت فيها الدولة التي تدعي انه القوة القومية الرئيسية، أي العراق اثر غزوه الكويت. وبمعنى ما فليس للقومية العربية أي فخر في أنها السبب في اجراء هذه المفاوضات.

ويمكن ربط هذا الاخفاق الأخير بالأول على رغم الاختلاف بينهما. ويتمثل في الهوة الفاصلة بين الاغنياء والفقراء التي لم ولن يجري التغلب عليها. ولا يعني ذلك بالضرورة ارجاع هذا الاخفاق الى القومية العربية. الى ذلك فإن اللوم قد ألقي على القومية العربية لعجزها عن تقديم برنامج أكثر عدالة.(....)

السبب الآخر لاضمحلال القومية العربية راهناً أو مستقبلاً كآيديولوجيا، يتمثل في

اختفاء العدو بعد إبرام اتفاقية سلام. وإبرام مثل هذه الاتفاقية سيجعل من الصعب على الدول العربية، ان تعارض اسرائيل عبر العمل السياسي. فالقضية الفلسطينية لن تعود قادرة على ان تبقى بؤرة لتحشيد العواطف القومية العربية، كما استخدمت في الماضي. وهذا لا يعني ضمناً ان القضية الفلسطينية قد عملت على توحيد العرب في الماضي، لعلها فعلت ذلك في بعض اللحظات، مثلما أدت الى نتائج معاكسة تماماً في لحظات أخرى.

ان هذه القضية لن تفعل في المستقبل، لأن اتفاقية السلام ستجعل ذلك مستحيلاً. وقد يخطر للبعض ان ايران تمثل خطراً جديداً على الأمة العربية، كما كانت في الماضي، غير اني لست متأكداً من ان خطراً إيرانياً مزعوماً أكثر مما هو حقيقي، بمقدوره ان يلعب مثل هذا الدور. هناك بالتأكيد اعداء آخرون، غير ان في الأمر تبسيطاً متهافتاً. فهناك، اذن، عامل قوي يعمل ضد بقاء القومية العربية في شكلها الحالي كآيديولوجية تلعب دوراً مهماً في عملية زوال القومية العربية في شكلها الحالي كايديولوجية مهمة.

المنافسة الآيديولوجية تلعب دوراً مهماً في عملية زوال القومية العربية بصيغتها القديمة، هذه القومية التي عاشت دوماً في اطار يتحدى آيديولوجيات أخرى قائمة على مجموعة مراجع أو هويات، تستخدم لتبرير العمل السياسي وشرعنته.

كما أسلفنا، فإن للقومية العربية منافسين منذ الأيام الأولى لتشكلها في أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، مثل (العثمانية، أو القوميات الاقليمية كالقومية السورية، والقومية السورية الكبرى مثل الفينيقية في لبنان، وكذلك الفرعونية في مصر). كانت لهذه القوميات قواعد محلية في العالم العربي منذ البدايات الأولى. وغدا هؤلاء المنافسون أكثر قوة في العقود الأخيرة، وقد عكس فؤاد عجمي في كتابه «المحنة العربية» اسباب اكتساب هؤلاء المنافسين القوة، اذ قال ان هزيمة ١٩٦٧ ليست هزيمة لجيش محدد أو حكومة محددة بل هزيمة آيديولوجيا كاملة، هزيمة، بهذا القدر أو ذاك، للاشتراكية العربية والأنواع المختلفة من القومية العربية.

هذه الآراء مهمة ويمكن الجدل فيها. كذلك يذكر فؤاد عجمي ايضاً انه بعد هزيمة ١٩٦٧ اصبح الاسلام السياسي القوة السياسية الأبرز، ويمكن قول الشيء ذاته عن الطروحات الاكثر براغماتية لحل المشاكل التي تواجه المجتمعات العربية. ويضيف عجمي ايضاً انه بعد الهزيمة بفترة فإن وجود الدولة العربية ذاتها بضمن الحدود الموجودة غدا اكثر شرعية، وقبلت هذه الحدود كحدود لاجزاء سياسية يجب ان يدور النقاش والعمل السياسي داخلها.

وربما هناك آيديولوجيتان متنافستان، الأولى هي القومية الآخذة في الظهور والقائمة

على اساس الدولة «القطرية» القائمة، والثانية هي آيديولوجيا الاسلام السياسي.

وهاتان الآيديولوجيتان منافسان قويان ظهرا على خلفية اخفاق النزعة القومية العربية. وهناك قبول متزايد لدول قائمة ليس باعتبارها اجزاء من كيان سياسي أكبر، بل باعتبارها كيانات قائمة بذاتها. ان لغة الميزان تمثل الآن لمصلحة «الوطنية» التي تبتعد عن «القومية» العربية (...).

وهكذا فان لهذه الآيديولوجيات المتنافسة طابعاً وطنياً أو قطرياً أو اقليمياً وليس قومياً عربياً كما كان سائداً. وهناك آيديولوجيا ثالثة تنبع هنا وهناك، ألا وهي البراغماتية، وتتعلق بالاصلاح الاقتصادي. فقد جرت محاولات مختلفة في مصر وسورية والعراق قبل حرب الخليج الثانية لتغيير وجهة الاقتصاد ومنح فرص للرأسمال الخاص والقطاع الخاص. ولا أريد ان أبالغ في تقدير النتائج. وهناك ضغوط على بعض الحكومات لربط الرأسمال الخاص بعجلة التنمية الاقتصادية.

ويدور خطاب عملي حول كيفية جذب الاستثمارات وطرح التمييز بين الرأسمال العربي والأجنبي. هذا الخطاب يحوي قضايا براغماتية مما يضفي الشرعية على العمل السياسي اعتماداً على المردود المباشر للمنافع المادية.

هذه التحديات تضفي طابعاً سلبياً على النزعة القومية العربية التي ستزداد صيغتها القديمة افولاً على مر السنين. والنسخة القديمة للقومية العربية، لن تبقى في شكلها السابق أو الحالي، بل ان انصارها لا يتحدثون عن هذه الآيديولوجيا بالطريقة نفسها التي كانوا يتحدثون بها قبل سنين أو عقود.

وعلى رغم ذلك، فإن هناك فرصاً متاحة لجوانب أخرى، مثل التضامن العربي، أي بعث جديد للتضامن العربي يعمل بطريقة مختلفة. ولعل النجاح يحالفه، بمرور الوقت. ومن جانب آخر فإن البراغماتية، ستترك فراغاً آيديولوجياً اذ ليس لها القدرة على البقاء بذاتها في الساحة الآيديولوجية.

إن امكانية التواصل عن طريق ايجاد لغة مشتركة تساعد كل انواع استراتيجيات التنمية، واعتقد ان التعاون العربي الداخلي اخذ بالازدياد في السنوات الاخيرة. فهناك اليوم كثرة من الشركات المشتركة أكثر من السابق بين مصر وسورية، أو تونس وسورية، أو تونس وسورية. وهناك احداث وتطورات لم نشهدها في الماضي. وكذلك استعداد اكبر لأصحاب الرأسمال العربي الذين يعيشون في الخارج لاستثمار أموالهم أو اعادة استثمارها في الدول العربية. وهناك من يرى ان ذلك مفيد تقنياً لأسباب عديدة، وترافقه روابط اقتصادية متنامية بين مختلف الدول العربية. ولهذا نتائج اجتماعية وثقافية متزايدة.

هذا يجري بالطبع على مستوى القاعدة لا في القمة فالتداخل الاقتصادي والاندماج المتزايد للناس في المنطقة العربية يقودنا الى تفحص موقع اللغة العربية، والثقافة المشتركة، كعوامل لها تأثيرها على كل من يعمل داخل هذه البلدان. والحركة الصاعدة من القاعدة الى القمة ستتيح فرصة لعودة ظهور شكل جديد من التضامن العربي، والنزعة القومية. لست متأكداً من ان ذلك الشكل هو القومية كما نفهمها، إلا ان شيئاً ما سيحل محل الصيغة القديمة للقومية العربية، على قاعدة الاحساس بالتضامن والتفاهم. وهذا باب جديد يجب ولوجه لاكتشاف ما يختبئ وراءه.

هذا الأمر يختلف تماماً عما حدث في الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٨ وعام ١٩٦١. إذ ان الاندماج الاقتصادي لم يلعب وقتذاك أي دور، بل كان ذلك مجرد لعبة استراتيجية من جانب العروبيين السوريين الذين اندفعوا الى اقامة الجمهورية العربية المتحدة انطلاقاً من احساسهم بأنهم محاصرون على الحدود (اسرائيل، تركيا)، لذلك كانت الوحدة، بمعنى من المعاني، لعبة سياسية تماماً. وكذلك الحال في ما يخص جمال عبد الناصر اذ لم تكن هناك تصورات ومشاريع حول الاندماج الاقتصادي أو تكامل المجتمعين، ويعرف الكل ان العملتين السورية والمصرية بقيتا على حالهما في كل بلد من دون تغيير. أما الاندماج الاقتصادي فلم يتقدم خطوة واحدة البتة. وعلى رغم ان قوانين التأميم المصرية طبقت في سورية، فإن ذلك جرى لأسباب سياسية لا اقتصادية. وإذا ما تم البدء بمشروع الاندماج البراغماتي والتكنيكي والاقتصادي، فإن هناك فرصة لتبلور وظهور نزعة قومية أخرى، من نوع ما.

(ترجمة سعدي عبد اللطيف)

---

* اخصائي ألماني في شؤون الشرق الأوسط.

مشاكل البيئة والمياه و«النهر الثالث»

د. حسن الجنابي

تثير قضية التنمية الاقتصادية الكثير من المشكلات التي يتطلب حلها جهوداً وامكانيات ضخمة لمعالجة النتائج الجانبية لعملية التطور نفسها. فلكي يستمر تحقيق مستويات أعلى من التقدم لا بد من ان تكون البرامج وخصوصاً البرامج الهندسية المتعلقة بتغيير البيئة ملتزمة، تصميماً وتنفيذاً، وبالتحديدات الفيزيائية والطبيعية، وبالنتيجة طبعاً، الاجتماعية. فلكل برنامج أو مشروع هدف اجتماعي يسعى لتحقيق فوائد مادية للمجتمع المعنى ولتسخير الطبيعة لخدمة التطور البشري اذا تحدثنا بشكل أعم. ويمكن القول ان أي نشاط ذي طابع هندسي ينطوي على ادخال عنصر أو عناصر تغيير عديدة على نظام الاشياء بصورته البدائية التي وجد عليها. ولقد تعاظمت قدرة الانسان على ذلك عن طريق التطور التكنولوجي الهائل الذي تحقق في هذا القرن مما جعل حجم التغيير في البيئة كبيراً ومحسوساً وذا ابعاد كونية. كما ان من المعروف ان للطبيعة قدرة ذاتية كبيرة في المدى البعيد على استيعاب التغييرات التي يحدثها الانسان، وبالتالي استعادة حالة التوازن البيئي القائمة منذ الازل. ان مشكلة التنمية أو التطور الاقتصادي تتأتى من ان الكثير من البرامج الاقتصادية الطموحة تتجاوز الحدود الطبيعية التي تسمح للبيئة باستعادة توازنها والمحافظة على عناصرها الاساسية. بمعنى آخر ان للبيئة قدرة محدودة، مهما كانت كبيرة على استيعاب وهضم التغييرات التي يحدثها البشر. ان معرفة تلك الحدود وتقديرها هي من أولى مهام التخطيط الاقتصادي الذي يسعى الى تحقيق نمو

مستمر للخيرات المادية دون احداث تأثيرات سلبية على البيئة.

لقد اعتمدت خلال العقود الاخيرة في مختلف انحاء العالم سياسات وبرامج لم تكن تهتم، لا من بعيد ولا من قريب، بالنتائج البيئية للنشاط الاقتصادي، ولا بالمحافظة على المصدر بما يضمن استمرار استغلاله. ويمكن الاشارة هنا الى ان الدول الصناعية الكبرى تتحمل القسط الاكبر مما آل اليه الحال عالمياً، رغم انها قد تمكنت خلال الثلاثين سنة الماضية من تطوير آليات ووسائل لتحقيق تطور مستديم (أي ما يصطلح عليه Sustainable development) واستغلال افضل للمصادر الاولية. أما الدول النامية فهي بالاضافة الى كونها لم تحقق اكتفاءاً ذاتياً وتطوراً معقولاً يتناسب مع حاجة سكانها، فأنها ما زالت بعيدة كل البعد عن تطبيق مقاييس بيئية على برامجها الاقتصادية. واذا استبعدنا عنصر عدم الاستقرار السياسي والارتجالية في اتخاذ القرارات المتعلقة باستغلال المصادر الاولية في هذه البلدان، يمكن القول هنا ان استعمال التكنولوجيا الحديثة في العالم الثالث غالباً ما يتعارض مع مبادئ البيئة نظراً لعدم توفر مستوى التطبيق الفعال والادارة الكفوءة أو رؤوس الاموال أو الهياكل المطلوبة، أو بكلمة أخرى افتقاد ما يستلزمه التطبيق الناجح لتلك التكنولوجيا، وبالتالي تكون النتائج الجانبية السلبية أكبر، في معظم الحالات، من الفوائد المتحققة. ومن نافل القول هنا ان المسؤولية في ذلك لا تتحملها البلدان النامية، وحدها، بل غالباً ما كانت تلك البلدان تدفع (بيئياً واجتماعياً واقتصادياً) ثمن التطور المتحقق في العالم الصناعي، سواء جراء السيطرة الكولونيالية المباشرة أو السيطرة الاقتصادية التي ضمنت وتضمن وجود مصادر أولية رخيصة في بلدان العالم الثالث سمحت لها بتطوير قاعدة صناعية متينة دون الاخذ بنظر الاعتبار التدهور البيئي العالمي حتى تنبه العالم المعاصر على تآكل طبقة الاوزون وغيرها من المظاهر الأخرى التي نتجت عن استعمال التكنولوجيا الملوثة. وفي الوقت الذي تجاوزت فيه الدول الصناعية، في العديد من الحالات، تلك التكنولوجيا، ابتدأ استخدامها ينمو في البلدان النامية دون أن يلوح في الأفق أي بديل معقول وقابل للتطبيق في الظروف السائدة في هذه البلدان، وان هذه البلدان تحتاج الى حوالي مائة مليار دولار حتى نهاية هذا القرن للمحافظة على البيئة، حسب تقديرات البنك الدولي.

الوعي البيئي

ان مشاكل البيئة الحالية، وخاصة تلوث المياه العذبة، جاءت نتيجة للتصنيع المتسارع في مناطق عديدة من العالم. وارتباطاً بذلك تطور الوعي البيئي المعاصر الذي نتج عن

التنمية الاقتصادية، وتراكم الثروات، وتطوير التكنولوجيا والمعرفة الانسانية بهذا الميدان. أما في ظروف الفقر أو المجاعة والقهر، فهناك الكثير مما يشغل البال ويصرفه عن البيئة، فاذا عرفنا بأن ثلاثة ارباع سكان الارض يعانون من مشاكل السكن والعمل والمساواة، أي انعدام العدالة الاجتماعية، فيمكن الاستنتاج بأن قضية البيئة أو الاهتمام بالتلوث تتراجع الى مراتب دنيا ان لم تنعدم على الاطلاق لدى غالبية هؤلاء.

ان قيام حركة بيئية تدعو للمحافظة على الارض وعدم التدخل في مسار العمليات الطبيعية، وتطوير التكنولوجيا بهذا الاتجاه يمثل خطوة متقدمة كبيرة للامام فيما يخص مستقبل البشرية. وينتظر ان تتطور هذه الحركة وتنتشر انتشاراً واسعاً في المستقبل ارتباطاً مع التطور الاقتصادي العالمي، وتتميز العمليات الاقتصادية اكثر فأكثر بطابع كوني مما يؤدي الى ان الجزء الاكثر تقدماً من العالم، ان صح التعبير، يتأثر سلباً هو الآخر بتدهور البيئة. وهناك من يعتقد بأن اصحاب رؤوس الاموال والصناعيين الكبار في العالم سيجدون ان من مصلحتهم تقديم مساعدات مادية كبيرة للمحافظة على البيئة في مناطق العالم الثالث المهددة بالتدهور، مثل مناطق القرن الافريقي أو الأمازون وغيرها، لأنهم سيكونون أكبر الخاسرين من تدهور ظروف الحياة على الكرة الارضية!! وبغض النظر عن الاتفاق أو الاختلاف مع وجهة النظر هذه، إلا انها لا تبدو خاطئة رغم برائتها. وفي الواقع فان المنظمات المختصة التابعة للأمم المتحدة وغيرها من المنظمات العالمية، تسعى بهذا الاتجاه. وهناك ألتزامات عديدة اتخذتها الدول على عاتقها بدءاً من مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة في ستوكهولم عام ١٩٧٢ وانتهاءاً بمؤتمر قمة الأرض في ريو دي جانيرو عام ١٩٩٢. ويمكن تلخيص اكبر اتجاهات الحركة البيئية بما يلي:

١ـ اقرار الدول المتقدمة بدورها في تلويث الأرض ومسؤوليتها في الجهد العالمي لحمايتها.

٢ـ ان للدول الفقيرة الحق في تحقيق نهضة اقتصادية وانجاز مستويات أعلى من المعيشة لشعوبها.

٣ـ على الدول الغنية ان تساعد على تحقيق الاهداف التنموية للبلدان النامية.

٤ـ على الدول الغنية ان توفر التكنولوجيا الخاصة بحماية البيئة ومنع التلوث بأسعار رخيصة ومشجعة.

٥ـ تخصيص برامج ومساعدات خاصة لحماية الغابات القائمة وزراعة غابات جديدة، ولإقامة انظمة تصريف حديثة تمنع تلوث مياه الانهر والمياه العذبة الأخرى.

٦ـ انجاز تشريع عالمي يمنع التلوث والالتزام بأنظمة صارمة لتحقيق ذلك.

٧ـ تطوير مصادر بديلة للطاقة كالطاقة الشمسية والطاقة النووية (تكون خاضعة

لمراقبة دولية صارمة).

ويمكن ذكر العديد من الخصائص الأخرى الاقل اهمية ولكن في جميع الاحوال فان اعلان الموافقة على لائحة ما شيء، وتطبيقها شيء آخر. ولا يمكن الركون الى النوايا الطيبة المعلنة فقط في هكذا مناسبات. فتطبيق القرارات يخضع دوماً الى اعتبارات عديدة. وحتى مع افتراض حسن النية لدى الدول الموقعة على اعلان ريو دي جانيرو (مثلاً) فان تحقيق الاهداف المتوخاة يفترض وجود نظام اقتصادي عالمي عادل بعيد عن علاقات السيطرة والاستغلال. وفي غياب هكذا نظام يكون التطبيق مشكوكاً فيه.

شيء عن المياه

بقدر تعلق الأمر بالمياه فان مستوى التطور التكنولوجي المعاصر ينعكس بأكثر اشكاله جلاءً. فالعلم الحديث يوفر اكبر قدر من الامكانية لتدخل الانسان بالدورة الطبيعية للمياه، نظراً للخواص الفيزياوية المتميزة للماء من حيث امكانية تخزينه وتحويله وقطعه أو تلويثه، أو باختصار عملية التحكم به. وتعود محاولات الانسان في السيطرة على حركة المياه الجارية وتحويلها لفائدته الى عدة آلاف من السنين. وتتمثل بالعديد من الشواهد في العراق، وفي روما القديمة، وجنوب الجزيرة العربية، وبلاد فارس وغيرها.

ويؤكد الواقع المعاصر ان التحدي الذي واجهه الانسان القديم بصدد علاقته بالماء ما زال قائماً مع اختلاف في شكل العلاقة تلك، اذ انه كان يعاني من زيادة كميات المياه التي تهدد حياته. فلجأ الى اساليب عديدة لدرء خطر الفيضان. أما الآن فانه في العديد من مناطق العالم يعاني من نقص المياه الكافية والضرورية لاستمرار الحياة بمستوى حضاري يتناسب مع ظروف نهاية القرن العشرين، من حيث مقاييس الصحة العامة والثقافة والاقتصاد، أو طبيعة العلاقة مع البيئة نفسها والتي يشكل الماء جزءها الحساس. ان اغلب الانشطة في هذا الميدان مبنية على افتراضات أو نظريات كان يعتقد في حينها انها صحيحة. ولكن بعد مرور الزمن تتبدى نتائج غير مرضية. وهكذا الامر بشكل خاص مع مشاريع المياه التي أقيمت على اساس معرفة وافتراضات معينة يكتشف الآن انها كانت غير صحيحة بسبب اختلاف حاجة الانسان للماء، وكذلك مداركه ووسائله. لقد استمرت حتى سبعينات هذا القرن اقامة مشاريع كبرى ومنشآت ضخمة. وكان حجم المشروع وحده سبباً كافياً لاقامة الاحتفالات والمهرجانات وتدبيج المقالات والتحقيقات الصحفية التي تبرز الحدث كأكبر دليل على التطور الاقتصادي، ان لم يكن ذلك التطور قد حدث فعلاً!!! لقد مورست هكذا سياسات في غالبية اقطار العالم لكنها برزت بشكل

اكثر جلاءً في الدول الاشتراكية (سابقاً) والعديد من دول العالم الثالث. وما زال هذا التوجه قائماً في تركيا (مشروع GAP) أو مشروع النهر الصناعي في ليبيا، وكذلك مشروع النهر الثالث في العراق.

لمحة عن تجربة العراق

لا يمكن الحديث عن العراق، وخاصة فيما يتعلق بمصادر المياه أو الزراعة فيه، دون الاشارة ولو بشكل مختصر الى الماضي المجيد لهذا البلد العريق وسكانه الذين اقاموا واحدة من اعرق الحضارات البشرية. وهي تعود اساساً الى وفرة المياه والتربة الخصبة. وتذهب بعض المصادر التاريخية حتى الى القول ان سكان العراق قارب الـ ٣٠ مليون نسمة في فترات الازدهار القديمة(١)، فقد كانت انتاجية الارض مرتفعة جداً، وتطورت منذ القدم قوانين وآليات السيطرة على المياه وتوزيعها. ويعتبر السومريون اول من اقاموا هيئة «حكومية» للاشراف على اعمال الري وتنظيمها. كما تحتوي مسلة حمورابي (١٦١١ ـ ١٦٦٩ ق.م) على حوالي ٣٠٠ إشارة الى امور تهم قضايا الري والمياه. وان اعمال الملك الآشوري سنحاريب في مجال المياه هي من الاعمال العظيمة حقاً، وخاصة حفر قناة بطول ٨٠ كيلومتر والسد الذي اقامه وما زالت آثاره قرب مدينة الموصل(٢). ويمكن الحديث طويلاً عن تاريخ العراقيين وعلاقتهم بالمياه وكيف ان الصيانة الدائمة للانهار والقنوات وتشغيل انظمة الري كانت الرافعة الأولى لحضارة وادي الرافدين.

وجدير بالذكر هنا انه رغم التطور الهائل في مجال السيطرة على المياه في العراق القديم، الا ان السكان لم يتوصلوا الى معرفة الكيفية التي يمكن بها التخلص من الملوحة التي تترسب في الترب المزروعة. فهم قد تعرفوا على المشكلة والمصاعب الناتجة عنها. وكانت سبباً في ترك حقولهم واللجوء الى اماكن أخرى. وترد اشارات الى «السهول التي اختنقت بالملح» وأوامر آشور بانيبال بـ«رش الملح على حقول الاعداء»(٣).

ان المعرفة العملية الوحيدة لمعالجة التملح التي اكتسبها العراقيون القدامى وامتدت حتى الوقت الحاضر تتمثل في النظام الزراعي المعروف بنظام النيرين. وبموجبه تقسّم الأرض المزروعة الى نصفين، يزرع احدهما ويترك النصف الآخر ليستعيد خصوبته بصورة طبيعية. وقد كانت لهذا النظام البدائي فوائد بقدر ما كانت له من مضار لسنا الآن بصددها. أما اقامة شبكات البزل فلم تكن معروفة حتى اواسط القرن الحالي وان تنفيذها عملياً ابتدأ في الستينات(٤).

وتعتبر مشكلة الملوحة في العراق السبب الاساسي في انخفاض انتاجية الأرض وتفحّلها وتركها. وهي نتجت اساساً من الاستعمال المكثف للمياه في الري دون عملية صرف كافية. وبذلك تأكد ان اساءة استعمال المياه والتربة أدى الى سقوط تلك الحضارة العظيمة فتحول العراق من بلد مزدهر الى بلد من افقر بلدان العالم من حيث انتاجية الأرض.

أهوار العراق

ان سكان العراق مدينون بحياتهم وحضارتهم لمياه الرافدين العظيمين دجلة والفرات، والمعروف عن هذين النهرين هو انهما يمتازان بفترات فيضان وجفاف غير منتظمة (٥)، وكانت تلك الفيضانات مدمرة وعنيفة عبر التاريخ (وتشير الدراسة (٢) الى ان طوفان نوح احدث تدميراً كبيراً في مدينة اور على الفرات في جنوب العراق). وبسبب تلك الفيضانات تكونت الاهوار العراقية في الاراضي المنخفضة في الجنوب، وتتغذى هذه الاهوار سنوياً من مياه الفيضان في مواسم ذوبان الثلوج في المرتفعات التركية عن طريق شبكة من الفروع التي تتفرع عن دجلة والفرات.

تغطي الاهوار مساحة مقدارها ١٧٠٠٠ كيلومتر مربع من الارض كمعدل، وقد تطورت تلك المنطقة بشكلها المميز عبر كل هذا الزمن ، وهي تشكل ظاهرة فريدة من نوعها في المنطقة، وتمثل قيمة تاريخية كبرى اضافة الى خصائصها الهيدرولوجية والايكولوجية والثقافية، واعتبرها فريد بيرس (٦) اكبر منطقة ايكوسيستم Ecosystem(نظام ايكولوجي) في الشرق الأوسط. ان اهوار العراق ليست هي المياه فقط بل هي مياه ونبات وحياة بايولوجية وبشر. أنها كل تلك العناصر المتكاملة والتي لا توجد بدون بعضها.

كان العراق يحصل من مياه الرافدين حتى وقت قريب على حوالي الـ ٦٥ مليار متر مكعب سنوياً وهي تزيد عن احتياجات العراق، بما فيها احتياجات الاهوار. الا ان هذه الكمية انخفضت كثيراً بعد استكمال بناء السدود العديدة على النهرين وخاصة الفرات الذي فقد العراق من مياهه حوالي الثلثين. ويبين الجدول التالي اهم السدود المنجزة على النهر وطاقتها التخزينية.

أهم السدود المنجزة على نهر الفرات

السد أو المنشأة المائية	السعة التخزينية (مليون متر مكعب)	الدولة
سد كيبان	٣٠٧٠٠	تركيا
سد قره قايا	٥٠٠	تركيا
سد كو لوكويا	١٧٠	تركيا
سد اتا تورك	٥٠٠٠٠	تركيا
سد الطبقة	١٧٠٠	سورية
سد البعث	٩٠	سورية
سد تشرين	١٩٠٠	سورية
سد حديثة	١١٣٠٠	العراق
خزان الحبانية	٣٧٠٠	العراق

يظهر الجدول حجم الاعمال المنجزة على نهر الفرات مما يدعو للاعتقاد أن كل قطرة من مياهه خاضعة للسيطرة، وبالتالي فقد النهر أهم صفة من صفاته وهو جريانه الطبيعي الذي اعتاد عليه منذ الأزل. وهذا تغيير كبير في الدورة الهايدرولوجية للنهر ستترك آثارها على مجمل الحوض النهري بما فيها منطقة الاهوار، وتشير التقديرات الى ان مساحة الاهوار تقلصت بنسبة ١٠٪ في الفترة (١٩٨٥ ـ ١٩٩٠) بسبب انخفاض منسوب المياه في النهرين (للمزيد من المعلومات عن الاعمال التركية راجع مقالينا في العددين ٢٤٢ و٢٤٨ من الثقافة الجديدة).

أما الحرب العراقية ـ الإيرانية فكان لها اكبر الاثر على منطقة الاهوار التي شهدت في اواسط الثمانينات ردم مساحات واسعة من خلال حملة وطنية نظمتها السلطات العراقية لمنع التسلل الايراني، وشهدت الحياة الاجتماعية انقلاباً حقيقياً من خلال تجنيد الآلاف من ابناء تلك المناطق في الجيش النظامي و«الشعبي» بعد ان عاشت المنطقة آلاف السنين بعيدة عن سيطرة السلطات مكتفية غذائياً بما تنتجه ومحافظة على تقاليدها العريقة. وهي تعيش الآن مأزقاً حقيقياً يتمثل في خطورة تجفيف مياهها وكونها اصبحت ساحة مواجهات عسكرية خاصة بعد حرب الخليج الثانية. حيث ألتجأ اليها عدد كبير من المعارضين السياسيين، كما شهدت مؤخراً ظهور مأزقها الى الرأي العام العالمي عن طريق

بعض نشطاء منظمات حقوق الانسان كالبرلمانية البريطانية أيما نيكولسن وماكس فان ستول المبعوث الخاص لمنظمة حقوق الانسان التابعة للأمم المتحدة ومنظمة «ميدل أيست ووج». وتظهر التقديرات الاخيرة حسب تلفزيون الـBBC البريطاني ان حوالي ٤٠٪ من مساحة الاهوار قد تم تجفيفها نتيجة لما يسمى بالنهر الثالث في العراق.

مشروع النهر الثالث

يعتبر مشروع النهر الثالث واحداً من اهم مشاريع استصلاح الاراضي التي نفذت في العراق. الهدف الاصلي للمشروع هو استصلاح الاراضي العراقية ابتداءاً من بغداد وحتى اقصى الجنوب، وقد اشرنا الى ان هذه الاراضي تعاني من مشكلة مزمنة هي الملوحة وارتفاع مناسيب المياه الجوفية، وكانت عمليات الاستصلاح الجارية تقذف مياه البزل المالحة في نهري دجلة والفرات مما عمل على خفض نوعية المياه الى درجات خطيرة خاصة مع انخفاض كميات المياه الجارية في النهرين.

من هذا المنطلق نشأت فكرة اقامة قناة كبيرة بين دجلة والفرات لتصريف مياه البزل والاستصلاح. وابتدأت الدراسات الخاصة بذلك في الخمسينات بإشراف بريطاني، وتغطي مقالة بيرس (٦) بالأسماء والتواريخ بداية تلك الاعمال. لقد استمرت الاعمال في المشروع كل تلك المدة عدا فترة توقف خلال الحرب العراقية ـ الايرانية، وهو يسمى في الصحافة العراقية بمشروع المصب العام. واستناداً الى الفكرة الخاطئة والقاضية باعتبار ان المياه التي تذهب الى الاهوار هي مياه ضائعة وضعت الخطط لاستغلال مشروع النهر الثالث لتجفيف مياه الاهوار واستصلاح الاراضي التي تغطيها تلك المياه (وواقعاً فان مثل هذه الافكار كانت سائدة حتى في استراليا خلال الخمسينات والستينات واقيمت مشاريع حجز المياه والسيطرة عليها ومنعها من تغذية بعض الاهوار في العمق الاسترالي. ثم تبين الآن انها كانت خاطئة).

لقد تحمس لموضوع تجفيف مياه الاهوار عدد من العاملين والقائمين على وزارة الري واصحاب القرار السياسي الاعلى، وبالتالي سيحمل النهر الثالث الى الخليج ليس المياه المالحة الناتجة عن استصلاح الاراضي بل كذلك مياه الاهوار ايضاً، وتبين الخارطة المرفقة مواقع المبازل الرئيسية كما يقترحها عميد كلية الهندسة في جامعة الموصل آنذاك (الدراسة ٤)، والتي تؤدي في النهاية الى ان تصب في الاهوار نفسها، وهو باعتقادي حل مناسب اذا درست كميات الاملاح التي ستضاف الى الاهوار ومدى الضرر الذي يمكن ان تحدثه لو توفرت ادارة جيدة للمياه في المنطقة مما يؤدي الى تطويرها وتقليل الاضرار

على الاقل.

انه لمن المستحيل اعطاء تقديرات عن كلفة المشروع وخاصة بعد الحرب الأولى والثانية حيث شهدت تكشيفاً منقطع النظير للعمل في سبيل انجاز المشروع، وبسبب الظروف غير الطبيعية التي وجدت فيها العملة العراقية، وقد تم منذ حوالي السنة افتتاح المشروع والاعلان عن انجازه، وباعتقادنا هناك دوافع عديدة للاستعجال في انجازه اهمها العاملان التاليان:

١- اخضاع منطقة الاهوار لسيطرة السلطة.

٢- النهوض بالقطاع الزراعي ورفع انتاجية الارض لتوفير الغذاء.

العامل الأول هو هدف غير معلن ولن اخوض به تاركاً اياه للمحللين السياسيين المهتمين بانشطة السلطة العراقية. اما العامل الثاني فهو الهدف المعلن للرأي العام في ظل حالة الحصار الاقتصادي وشحة المواد الغذائية في الاسواق، وبالتالي لا بد من اجراءات عاجلة لتحسين الوضع المعيشي للسكان. ولا يمكن الاعتراض هنا (اذا كان المرء محايداً) ولكن لا بد من إثارة النقاط التالية:

١- ان المنطقة مكتفية غذائياً وتشتهر بزراعة الرز الذي يفيض عن حاجتها وبالتالي فهي لم تشكل عبئاً اقتصادياً على الدولة بل بالعكس.

٢- ان ظروف ما بعد الحرب وتدمير القدرة الاقتصادية العراقية وتطبيق الحصار الدولي لا يمكن ان تكون مؤاتية لضمان انجاح المشروع بحيث يحقق الاهداف الاقتصادية المتوخاة نظراً لما يحتاجه ذلك من مواد واجهزة ومعدات لم تعد متوفرة في العراق ولا يمكن بسهولة استيرادها.

٣- ان الحصار هو حالة مؤقتة ولا يمكن مواجهتها باجراءات تؤدي عاجلاً أم آجلاً الى خسائر مادية واجتماعية وثقافية كبرى (في حال تجفيف الاهوار).

٤- ان انجاز (النهر الثالث) ومهما كانت الدعاية التي ترافقه والاحتفالات أو الاسماء التي تعطى له لا يعني بأي شكل من الاشكال ان الاراضي اصبحت مستصلحة وجاهزة للفلاحة، اذ يتطلب ذلك تنفيذ شبكات الري والبزل وتوفير مستلزمات الزراعة الأخرى.

٥- ان المشروع لا يأخذ في الاعتبار الظروف الاجتماعية السائدة في المنطقة ولا يعير اهمية للقيمة التاريخية لمنطقة الاهوار وهو ينجز بظروف غير طبيعية وبادارة عسكرية (هيئة التصنيع العسكري).

٦- ان «الفوائد» الاقتصادية التي سيحققها المشروع لا تبرر الثمن الباهض المتمثل في القضاء على تلك البقعة الرائعة وسكانها الطيبين وحيواناتها الفريدة.

ان التغييرات في البيئة العراقية الناتجة عن الحروب او السياسات الخاطئة يجب ان تكون محط اهتمام المعنيين بمستقبل العراق من مثقفين وسياسيين وكتاب. ولا يكفي رفع شعارات أو اصدار بيانات الهدف منها تحقيق مكاسب سياسية مؤقتة فقط، بل ان تدخل قضية البيئة كركن اساسي في برامج الحركات السياسية وفي مقدمة أي جدول عمل يستهدف مستقبل العراق. وحبذا لو بادرت مجموعة من المثقفين المختصين والكتاب وبايولوجيين ومهندسين ومؤرخين وغيرهم لاقامة نوع من التعاون والتنسيق فيما بينهم بغرض جمع المعلومات والوثائق والدراسات وتبادل الخبر والآراء. وليكن المنطلق هو قضية الاهوار ثم يتم توسيع دائرة الاهتمامات لتشمل مناطق أخرى.

سيدني - ٢٢ تشرين الثاني ١٩٩٣

الهوامش

1-Dawood A. 1983 "Ancient and Modren Irrigation in Iraq" ICID Bul.Vol.32, No.2

2-El-Yousif F.1983 "Condensed History of Water Resources in Mesopotamia" Water International J., Elsevier , The Netherlands.

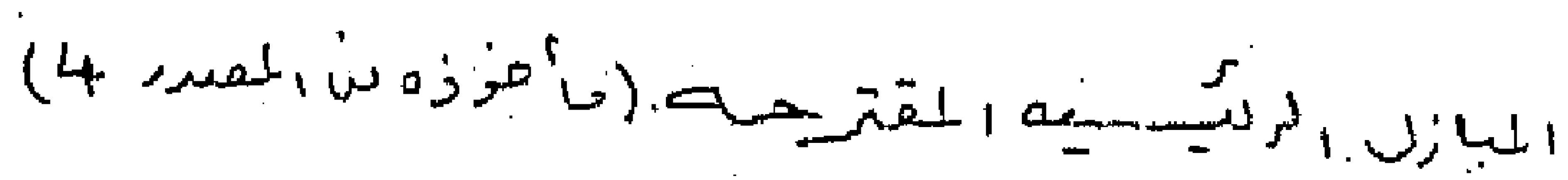
3- Garbrecht G.1983 " Ancient Water Works - Lessons From History " Impact of Science on Society , UN Pub. No.1

4- Al-Layla A. 1978 "Effect of Salinity on Agriculture in Iraq " J.Irr.& Drain.Div.ASCE Vol. 104, No.IR2.

5. وصف الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري حالة نهر الفرات قائلا:

هو الفرات وكم في امره عجب ... في حالتيه وكم في آية عبرُ
بينا هو البحر لا تستطاع غضبته ... اذا استشاط فلا يبقي ولا يذرُ
إذا به واهن المجرى يعارضه ... عودٌ ، ويمنعه عن سيره حجرُ

6- Pearce F. 1993 "Draining Life From Iraqi Marshes" New Scientist, April.



المبازل الرئيسية المقترحة (مأخوذة من المصدر 4)

سياسة التحالفات ودبلوماسية المصالحة الوطنية

لطفي حاتم

احياناً تبدو المراجعة لبعض التوجهات النضالية، التي اعتمدتها القوى الديمقراطية في حقبة نضالها المنصرمة، ضرورية لبناء سياسة لاحقة، تستمد واقعيتها من الظروف الوطنية المعاشة، والتطورات الدولية المرافقة لها. وفي هذا السياق لستُ ميالاً الى مراجعة الماضي بعقلية الحاضر، بل محاولاً عرض أسباب بعض الموضوعات الفكرية، ونتائجها السياسية، والنظر اليها برؤية جديدة قد تساهم في تنشيط الحوار الفكري الدائر في صفوف مناضلي الحركة الوطنية والديمقراطية.

الجبهات الوطنية ومعاداة الامبريالية

لغرض ملاحقة نشوء وتطور مفهوم الجبهات الوطنية، لا بد من تناوله أولاً بمستوى تاريخي، متمثلاً بالدعوة الى المصالحة المؤقتة بين جناحي الحركة العمالية ـ الشيوعية والاشتراكية الديمقراطية ـ والتي تبلورت في ظل ظروف دولية مأزومة، استلزمت مواجهة صعود الفاشية الى الحكم، وسعيها لاشعال حرب عالمية جديدة.

وبهذا الاتجاه كرس الكومنترن مؤتمره السابع عام ١٩٣٥ لصياغة مضامين وأشكال

الجبهات الموحدة المعادية للفاشية والحرب. وعلى الرغم من واقعية، وأهمية هذا النهج الجديد فأن استجابة العديد من الدول والحركات الاشتراكية الديمقراطية لهذه الدعوة، اتسمت بالبطء، والتردد لخشيتها من فك العزلة عن الدولة السوفيتية المحاصرة.

لقد انعكس تطور الاصطفافات الطبقية الجديدة في اوروبا والتحالفات الدولية الناشئة بقوة على الحركات الشعبية في بلدان العالم الثالث، التي دعت بدورها الى تشكيل جبهات وطنية لمواجهة افرازات الحرب. وهنا لا بد من الاشارة الى ان الفسحة الديمقراطية، التي اضطرت الدول الموالية للغرب، الى التنازل عنها للقوى اليسارية والوطنية، جاءت تلبية لمتطلبات التحالف الدولي المعادي للفاشية، اضافة لضراوة النضال المطالب بحرية النشاط السياسي.

أما المستوى الآخر لمفهوم التحالفات، فقد نشأ بمعناه الفكري - السياسي نتيجة للانتصار الكبير الذي احرزته دول التحالف على المانيا الهتلرية، والذي لعب فيه - الاتحاد السوفييتي - دوراً أساسياً، حيث اعاد هذا الانتصار صياغة الخارطة السياسية والجغرافية لاوروبا والعالم، تجسدت في بروز المنظومة الاشتراكية، التي اصبحت عاملاً دولياً موثراً، وحركة تحررية وطنية جبارة، تستمد العون والمساعدة من دول هذه المنظومة. ولأجل دفع التطورات السياسية المشار اليها الى مرحلة أعلى، تبلور مفهوم الجبهات الوطنية بمعناه الاشمل، والهادف الى تشكيل تحالفات سياسية لقوى اجتماعية متباينة المصالح والاهداف في البلدان المتحررة أو الرازحة تحت السيطرة الكولونيالية، لمواجهة السياسية الامبريالية، وتعزيز الجبهة العالمية المعادية لها. وقد استند مفهوم التحالفات الوطنية على موضوعات فكرية عديدة تمحورت حول نظرية انهيار الرأسمالية، والانتقال الحتمي الى الاشتراكية بنموذجها السوفيتي.

وتبعاً لذلك، وبسبب اتساع رقعة النضال التحرري المعادي للامبريالية، انتهجت الدول الغربية، وفي مقدمتها امريكا، سياسة استخدام القوة وتأجيج الحروب الاهلية والاقليمية وتشجيع الارهاب، وكبت الحريات العامة في بلدان عديدة من العالم، دافعة بذلك الوضع الدولي الى حافة المواجهة احياناً، والحروب الباردة احياناً أخرى. ازاء هذه الانتصارات والتحديات، حاولت الدبلوماسية السوفيتية تعديل مسار سياستها الخارجية بهدف الخروج من العزلة الدولية المفروضة، وتليين سياسة الابواب الموصدة، حيث رسم المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفيتي سياسة جديدة عكست الميل الموضوعي لحاجة الاشتراكية الى التعايش السلمي والمباراة الاقتصادية. وقد شجع على رسم تلك السياسة، سعة التأييد الجماهيري للافكار الاشتراكية، والرغبة المتزايدة لدى القادة الوطنيين للتعامل مع المعسكر الاشتراكي.

وعلى أساس ذلك اقترنت دبلوماسية التعايش السلمي بمفاهيم جديدة ازاء البلدان النامية تتلخص في محاولة تسريب بعض جوانب التجربة السوفيتية الى الدول المتحررة، عبر اختراع انظمة اجتماعية - اقتصادية للتطور - طريق التطور اللارأسمالي، دولة التوجه الاشتراكي - تلازمت مع فكرة تهميش الصراعات الاجتماعية، والغاء التعددية الحزبية بهدف تحويل التحالف الوطني الى حزب سياسي حاكم، يشكل ضمانة سياسة لصيانة الانظمة الوطنية الوليدة. وعلى الرغم من تباين الاستجابة لهذه الدعوة، فقد افرز هذا الخط - الفكري السياسي - سلسة من النجاحات، والتراجعات تلخصت في صيانة الاستقلال الوطني، والمحافظة على الثروة الوطنية من النهب الكولونيالي، وتطوير التعاون المثمر بين الدول الوطنية والعالم الاشتراكي، الامر الذي وفر لهذه الدول فرصة مقاومة الاخطار الخارجية. وبالضد من تلك النجاحات، فقد اصبح غياب الديمقراطية، وتصعيد وتيرة القمع والارهاب، الذي أذكته هواجس خطر الشيوعية المزعوم، ممارسة ثابتة ضد حلفاء الدولة الوطنية وخصومها السياسيين.

أخيراً لا بد من التأكيد على ان سياسة القطبين المتمثلة في سباق التسلح، والحصار التكنولوجي، والضجيج الاعلامي الذي واصلته الدوائر الامريكية والغربية ومظاهر الركود الاقتصادي، واصرار البيروقراطية السوفيتية على تغييب الديمقراطية والترويج لنموذج الاشتراكية الاوحد اعاقت تجديد المناخ الدولي بما يخدم وحماية التطور السلمي والديمقراطي لدول العالم والذي وفرته عوامل التوازن النووي الاستراتيجي وفشل سياسة استخدام القوة في العلاقات الدولية. (١)

تلخيصاً ارى ان سياسة التحالفات الوطنية التي دافع الشيوعيون والديمقراطيون من خلالها عن الاهداف الوطنية والديمقراطية لبلدانهم اعاق تطورها عاملان رئيسيان أولهما اخضاع الوظيفة الايديولوجية لمتطلبات السياسة الخارجية للدولة الاشتراكية، التي عدلت مسارات نهجها تبعاً لطبيعة وشكل الصراعات الدولية والمخاطر الأمنية الناتجة عنها. وثانيهما ضعف المطالبة بالديمقراطية السياسية الذي نتج عن سيادة العامل الآيديولوجي المستند الى افتراض موديلات نظرية للتطور الاقتصادي الاجتماعي، تستمد ملامحها من نموذج الاشتراكية المحقق الذي عرقل بدوره انتاج طريق للعدالة الاجتماعية يستلهم الخصوصية الوطنية والقومية.

ان سيادة العوامل الآنفة الذكر في العلاقات الوطنية والأممية أفضت الى اسناد الأحزاب الوحدانية الحاكمة والأنظمة اللاديمقراطية، الأمر الذي ساعدها على احتكار السلطة ومواصلة اضطهاد القوى الوطنية والديمقراطية وهدر حقوق المواطنين، تلك

السياسة التي شجعها الغرب الامبريالي، وتجاهلها العالم الاشتراكي.

المصالحة الوطنية في عصر الهيمنة

ان مفهوم التحالفات الوطنية ذات المضامين الطبقية والتي شكلت السلطة السياسية فيها ـ سواء السعي لاستلامها أو تطوير الأنظمة من خلالها ـ محوراً اساسياً تعرض الى اصابة قاتلة عندما ازاحت الدبلوماسية السوفيتية في مرحلة ـ البريسترويكا ـ القشرة الايديولوجية عن «سياستها الخارجية، ونادت بمفاهيم الوفاق الدولي، والأمن المتبادل بين القوتين العظميين، والتركيز على المصالح الوطنية، والتي تلخصت بالتخلي عن مساعدة البلدان النامية، وفك الارتباط بحركة التحرر الوطني. وبهذا المنحى عرضت الدبلوماسية السوفيتية مفهومها الجديد للتحالفات الوطنية الذي تجرد هو الآخر من مضامينه الطبقية والفكرية على البلدان التي تدور فيها نزاعات مسلحة أو حروب أهلية على أساس الاقرار بالمصالح المتبادلة للأطراف المتخاصمة والغاء العنف المتبادل بين السلطة ومعارضيها، والدعوة الى مصالحة وطنية ترتكن على الديمقراطية السياسية وحقوق الانسان.

ان هزيمة الدول الاشتراكية وما تبعها من اختلال في ميزان القوى، وانتصار العلاقات الرأسمالية على النطاق العالمي شجعت الدول الغربية وامريكا على تبني موضوعة المصالحة بعد تجريدها من اطارها الانساني والحضاري، واخضاعها لمتطلبات مصالحها الدولية.

لقد دللت تجربة السنوات القليلة الماضية على ان دبلوماسية الولايات المتحدة ونهجها السياسي ازاء المصالحة الوطنية والدولية اتخذ مسارين أساسيين، اقترن الأول برفض تدويل المصالحة مع البلدان التي لا زالت تصر على انتهاج طريق مستقل للتنمية الاقتصادية وصيانة مصالحها الوطنية، وشكلت الدعوة الى «الديمقراطية» والعقوبات الاقتصادية، والتلويح باستخدام القوة عناوين بارزة في الحملة المعادية للعديد من البلدان ـ كوبا ـ الصين ـ كوريا ـ ليبيا ـ ايران ـ وتسعى الولايات المتحدة الامريكية من خلال السياسة المذكورة الى الحاق الهزيمة بالقوى الوطنية الحاكمة ـ تساعدها في ذلك عوامل احتكار السلطة وغياب الديمقراطية في هذه البلدان ـ واستبدالها بقوى موالية لها ارتباطاً بنهج الهيمنة والتبعية.

لقد اتضحت ازدواجية النهج هذا بملموسية صارخة في البلدان التي انتهجت طريق المصالحة الوطنية حيث اصرت القوى اليمينية وبتشجيع من الولايات المتحدة على رفض نتائج الممارسة الديمقراطية التي اكسبت السلطة السياسية طابعاً شرعياً. (٢)

وتجسد المسار الثاني من السياسة المذكورة بتجاهل احتكار السلطة وانتهاك حرية المواطن في الدول الارهابية والمحافظة التابعة للولايات المتحدة، والتي اصبحت محيطاً

حيوياً لأمنها الوطني. وتعمل الدول الامبريالية بقاعدة «إعط من الوعود ما شئت فان الغد كفيل بتغيير كل شيء» ازاء الدعوات المطالبة بالمصالحة المبنية على أساس الديمقراطية والشرعية الانتخابية.

من خلال هذا العرض السريع نستطيع القول ان موضوعة المصالحة الوطنية المرتكزة على الديمقراطية وحقوق الانسان والتي كادت ان تصبح وعاء حاضناً لتفقيس علاقات انسانية حضارية بين القوى المتصارعة، قد افرغت من محتواها التقدمي هذا، وتحولت الى اداة ايديولوجية ترمي الى صياغة العالم بما يتناسب ووحدانية التطور الرأسمالي المفضي الى الخراب الاقتصادي والخصومات الوطنية والاقليمية ووسيلة سياسية لتركيع القوى الوطنية والديمقراطية.

تقدمية وإنسانية المصالحة الوطنية

ان تعرضنا لارتباط التحالفات والمصالحات الوطنية بآيديولوجية وسياسة المعسكرين المتناحرين، وتطور الاخيرة الى شكل من اشكال فرض الوصاية لوجهة التطور الاقتصادي اللاحق يدفعنا الى التساؤل: أية مصالحة وطنية نريد؟ وما هي مقومات ديمومة وتطور المصالحة المنشودة؟ ولغرض الاجابة على التساؤلات المطروحة، لا بد من العودة من جديد الى تحديد الموقف من السلطة السياسية وطريقة استلامها، بمعنى آخر هل تلجأ الاطراف المتنافسة الى تكتيك العنف المتبادل؟ أو تسلك طريق المنافسة السلمية؟

وانطلاقاً من هذا التحديد يبدو ان أغلبية الحركات الشعبية قد قطعت خطوات جادة في طريق التحول نحو قبول فكرة الصراع السلمي والمباراة الديمقراطية (٣). ولتعزيز هذا التوجه بات من الضروري صياغة افكار عامة تشكل مدخلاً مناسباً لتبني سياسة المصالحة الوطنية والتي تتجسد في:

أولاً: اعتبار الديمقراطية السياسية إطاراً للنظام الدستوري المستند على القانون والشرعية الانتخابية.

ثانياً: التخلي نهائياً عن مبدأ العنف في العلاقات السياسية الذي يقود الى النزعة الانقلابية والانقلابية المضادة. وهذا المبدأ يتطلب تحييد المؤسسة العسكرية، وجعلها ضمانة مادية وأمنية لصيانة المجتمع المدني.

ثالثاً: التخلي عن فرض العقيدة الكلية الجبروت، والآيديولوجية الشاملة على الدولة والمجتمع، في حالة تبوء القوى المختلفة للمواقع القيادية في سلطة الدولة.

رابعاً: تغليب المصلحة الوطنية والدفاع عنها ضد سياسة النهب الجارية للثروات

الوطنية، والبحث عن طريق لتطور يعزز استقلال بلادنا، ويضمن العدالة الاجتماعية لشعوبنا. ان هذه الافكار ستكسب مفهوم المصالحة مضموناً تقدمياً حضارياً يستند الى موازنة المصالح الانسانية - بين الفئات والطبقات الاجتماعية - ويقوض المحاولات الرامية الى جعل المصالحة اداة شكلية لديمقراطية مشوهة تضفي الشرعية على الارهاب، وتكرس اسلوب الهيمنة والتبعية في العلاقات الدولية.

ايلول ١٩٩٣

الهوامش

(١) أدت الهزيمة العسكرية للولايات المتحدة الامريكية في جنوب شرقي اسيا، وتزايد النضال التحرري والديمقراطي في افريقيا وامريكا اللاتينية، وانهيار الانظمة الديكتاتورية في اسبانيا والبرتغال الى التوقيع على معاهدة هلسنكي للأمن والتعاون، والتي اعتبرت تجسيداً قانونياً لسياسة الانفراج الدولي والتفاعل الحضاري بين المعسكرين.

(٢) تؤكد التجربة المعاشة على ازدواجية السياسة الامريكية والمتمثلة في:

أولاً: الضغط المتواصل على الاطراف المتنازعة في الشرق الأوسط وحملها على القبول بمصالحة دولية على اساس مكافأة المحتلين واختزال الحقوق القومية للشعب الفلسطيني الى حكم ذاتي كسيح، والسعي لتجميد قرارات المنظمة الدولية المتعلقة بالنزاع العربي - الاسرائيلي.

ثانياً: اصبحت المصالحة الوطنية التي جرت في العديد من البلدان اداة تستخدمها القوى المدعومة من الولايات المتحدة لطرد القوى الديمقراطية من السلطة - نيكاراغوا - أو مواصلة القتال ضد الحكومة الشرعية ودفعها للتخلي عن نهجها الوطني - أنغولا.

(٣) في بلادنا بات من الملح عقد مصالحة وطنية بين اطراف المعارضة العراقية، باعتبارها البديل الديمقراطي القادر على حكم البلاد بطريقة شرعية.

منـــاقشـــات

«بيان المثقف الجديد»

كانت المجلة قد نشرت في العدد ٢٥٦ مادة للباحث الفنان محمود صبري تحت عنوان «المثقف والسياسة والاستبداد» خلافاً لعنوانها الاصلي «بيان المثقف الجديد» الذي ينسجم، في الواقع، مع المادة من ناحية الشكل والاسلوب والمضمون، ذلك انها دعوة موجهة الى المثقف العراقي من أجل دور ثقافي - سياسي جديد في المجتمع. ونظراً لما تضمنه البيان من طروحات فقد كان موضع نقاش (نأمل ان يتواصل ويتعمق) في أوساط المثقفين. في العدد الحالي نقدم ملاحظات تضمنتها رسالة الى كاتب البيان من الباحث فالح عبد الجبار والملاحظات التي ردّ بها الكاتب، كما نقدم مساهمة الشاعر عواد ناصر.

ملاحظات على «بيان المثقف الجديد»

فالح عبد الجبار

قرأت الوثيقة/ الدعوة حول دور المثقفين بعناية. الهواجس التي تقف وراءها تعتمل في صدري منذ فترة، أو بتحديد أدق منذ تحول «القفزة الكبرى» الى «سقطة كبرى»: أين نحن؟ في أي فضاء معومون؟ أين نسير، إنْ كنا نتحرك اصلاً؟

أجد في الدعوة عنصراً ايجابياً للمستقبل: انشاء منتدى فكري للبحث والنقاش. ثم

حاجة الى بحث/نقاش ذي طبيعة فكرية/اكاديمية، بعيداً عن العواطف الرخوة (التحول من الماركسية الى شكل من النزعة القومية ـ تحت اسم «الوطنية» أو البحث عن ماركسية ذات جغرافية أخرى!)

رغم ان الدعوة تبدو موجهة الى كل المثقفين بعامة، فانها تؤلف في جوهرها نداء الى المثقف الماركسي.

ماركسياً ثمة اسئلة حارقة تجدها مطروحة بقوة في الفكر الماركسي الغربي، أي المتطور في أوروبا الغربية خارج قيود نطاق المؤسسات البيروقراطية سواء في الاتحاد السوفيتي السابق، أو في بقية الدول الاشتراكية. لا فرق في ذلك بين دولة آسيوية وأخرى أوروبية. فنحن ازاء ماركسية تطورت خارج نظام المؤسسات. خارج حيطان الخطاب الرسمي السائد. ان حجم التطور المنجز في هذا الباب، أو هذه الابواب، لهائل حقاً يصعب الأمساك بخيوطه المتشعبة في عجالة كهذه. وأود إثارة بضع نقاط تتعلق بالنظرية الماركسية:

١ـ نظرية المعرفة

ثمة محاولة لالغاء التضاد بين المادية والمثالية بتركيب synthesis يجمع الطرفين. الاطار المقترح للتركيب هو فكرة المجال field الفيزيائي، باعتباره أعمق (أو ادنى) مستوى للوجود، حيث يمكن ألغاء ثنائية المادة/الفكر.

ان التمسك بمفهوم المجال field لحلّ اشكالية المعرفة قد لا يقود الى أي مكان. لأن مشكلة المعرفة تقوم لا في المستوى دون الفيزيائي أو الفيزيائي، ولا المستوى الكيمياوي أو البايولوجي، بل في مستوى ما بعد عضوي، انه مستوى اجتماعي/ تاريخي بالغ التعقيد، بات يجمع الآن في حقبتنا الذكاء البشري والذكاء الاصطناعي (الكومبيوتر).

هناك أيضاً مستويان داخل المعرفة، فمن جهة هي نظام بالغ التعقيد حجيرته الاساسية تتألف من ثنائية الماضي الزراعية: ذات/ موضوع، الثنائية التي اكملتها الهيغلية وتقبلتها الماركسية في طور نشوئها الأول.

ان الحجيرة الجديدة (فتجنشتيان، أو ليونارد) رُباعية:

ذات عارفة ---> موضوع معرفة ---> نظام اشارات معرفي (قَبْلي بالمعنى الكانطي apriori) ---> ذات أخرى تُنقل اليها المعرفة عبر نظام الاشارت والعلامات (المتفق عليه بلا مراء).

المستوى الآخر للمعرفة هو الثقافة culture بالمعنى السوسيولوجي للكلمة، أي ثقافات الشعوب والجماعات ذات الخصائص المحددة، والمتباينة، والتي تحملها وتنقلها

اجهزة اتصال محددة (اللغة عبر النقل الشفهي، التدوين الخ).

ان كل معرفة محمولة في ثقافة مجددة، مما يجعل نظام الثقافة culture ذا طبيعة مزدوجة: حامل لعناصر معرفة شاملة (فالعقل البشري شامل)، وحامل لعناصر خاصة (محلية، قومية).

الخلاصة: ينبغي لنا نقل مشكلة المعرفة في عصر ما بعد ماركس من حقل الفيزياء المجردة الى حقل الفيزياء الاجتماعية وتفاعلاتها. ذلك ان فكرة «المجال» لا تحل لنا اشكاليات المعرفة (زوغان المعرفة عن موضوعها، أو عن نظامها الاشاراتي ـ المعلوماتي، أو انقطاع عن الذات المتلقية سواء في اطار نظم التربية والتعليم (مدارس، معاهد) أو في اطار نظم المعلومات (اجهزة اعلام، برامج كومبيوتر، الخ)، ولا تحل لنا مشكلة نسبية المعرفة، أو تعدد القراءات للواقع الواحد (على طريقة هرم مانهايم متعدد الأوجه، حسب مفهوم الاختلاف التفكيكي ـ دريدا مثلاً).

٢ـ بنية الانتاج العالمي

في عهد ماركس ثمة نقلة من المانيفاكتورة الى المعمل، أي من العمل اليدوي الى العمل الآلي، توازيه انتقالة من تقسيم عمل الى تقسيم عمل آخر يلغي فوارق الجنس والسن (عمل النساء والاطفال). أيضاً ثمة نقلة من الاقتصاد القومي الى القاري (التجارة الدولية) بنية الاقتصاد تقوم على فرعين اساسيين:

أـ الفرع الأول (انتاج وسائل الانتاج).

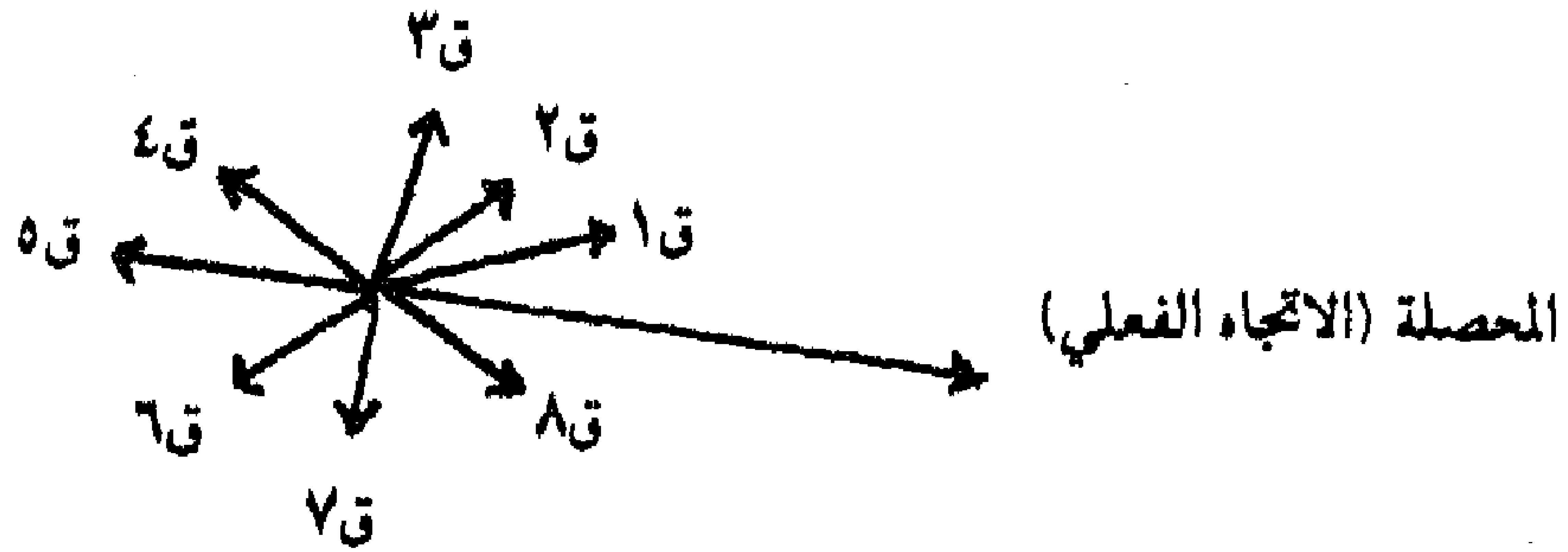
ب ـ الفرع الثاني (انتاج وسائل الاستهلاك).

واليوم : نقلة هائلة الى الاقتصاد الكوني global ، الى تدويل وتشابك هائل لا مثيل له.

في السابق الاقتصاد الرأسمالي العالمي يرتكز على قاعدة اقتصاد أو مركز قومي (دولة قومية). بريطانيا قامت بهذا الدور خلال القرن ١٩ وبداية القرن العشرين. الولايات المتحدة ظلت تقوم (اقتصادياً) بهذا الدور حتى انهيار اتفاقية بريتون وودز ـ ١٩٧٦).

اليوم الاقتصاد الرأسمالي العالمي يفتقر الى ركيزة قومية محددة (دولة قومية) تلعب دور مركز الثقل.

القرار أو الوضع الاقتصادي اليوم هو حصيلة تفاعلات قوى، حيث المحصلة هي خارج ارادة كل طرف من الاطراف المشاركة كما في محصلة القوى في الفيزياء:



ثمة الآن فوضى شاملة، بمقدار ما تتوفر وسائل كبرى للتنظيم (المعلومات، نظم الاتصالات، الخ)، أي بعض عناصر السيطرة الواعية على العمليات.

ان بعض المنظرين الاقتصاديين يصف الحصيلة أو المحصلة في المجالات الاقتصادية بأنها: القرار غير المقرر. حالة الفوضى الشاملة.

ولنتذكر ايضاً التطور القطاعي في بنية الانتاج. اولاً: ظهور قطاع الخدمات (القطاع الثالث)، فقطاع المعلومات (information) (أو صناعة الثقافة culture industry)، أو القطاع الرابع. يحتل هذا القطاع اليوم ٤٠٪ من بنية الانتاج و(رأس المال + قوى العمل) في اليابان، و(بنسبة أقل) الولايات المتحدة. من المفارقات الكثيرة في هذا القطاع ان السلعة لا تخضع فيه للمحددات الكلاسيكية (سميث/ريكاردو/ماركس) للقيمة، أي القيمة بوصفها علاقة اجتماعية جوهرها هو: مقدار العمل الاجتماعي الضروري وسطياً. ما قيمة دقيقة اعلان؟ لماذا نصف مليون دولار في حالة، وخمسة ملايين دولار في أخرى مثلاً؟ أهي سلعة من نوع جديد، أشد تغريباً، وصوفية وخبالاً (جنوناً)؟

٣ـ المجتمع/الدولة

لنترك ميدان الاقتصاد ولندخل موضوع علاقة الدولة بالمجتمع المدني.

لقد اهمل الماركسيون فكرة ومفهوم المجتمع المدني مع انه كان نقطة انطلاق تطور ماركسي (نقد فلسفة الحق عند هيغل) الماركس الوحيد الذي تابع هذه القضية بعد ماركس هو غرامشي.

هناك اليوم رحلة معاكسة تحاول التعويض عن هذا الاهمال، مع ذلك يصدّ الماركسيون (أو عبّاد الدولة منهم) هذا التحول.

لماذا الجبروت الهائل للدولة عندنا؟ لقد درس ماركس الدولة من زاويتين، اولا من ناحية مضمونها الطبقي، وثانياً من ناحية علاقتها بالمجتمع. لقد جرى اغفال البعد الثاني

مع تركيز مفرط واحادي على الجانب الأول.

ان العلاقة بين الدولة والمجتمع تقرر، الى حد كبير، طبيعة هذه الدولة وشكلها.

ان التحولات الاخيرة، وبالذات التحركات المدنية في أوروبا الشرقية كما في خارجها (بصرف النظر عن تقيمنا لمحتواها وتوجهاتها) تشير الى انبثاق علاقة جديدة بين الدولة والمجتمع المدني، علاقة جديدة نشأت عن: مستوى التمدين الهائل (السكن في المدن)، وتطور نظم المواصلات والاتصالات، وارتفاع مستوى التعليم... انه مجتمع جديد، ضخم، يتجاوز قدرة نظم السيطرة السابقة (بما فيها من قوى قسر ـ شرطة، الخ وقوى اقناع، المحتوى الثنائي للهيمنة الغرامشية) في فرض الرقابة والضبط. ان نظام السيطرة control system القديم لا يناسب المجتمع المدني، الجديد، الناشيء.

لعل بالوسع الحديث عن هيمنة مقلوبة من المجتمع المدني على الدولة انها عملية ما تزال في بدايتها.

ولعل من بين عواملها الكثيرة تضاؤل ميدان العمل الجسدي لصالح العمل الفكري (الذي يجد التعبير عنه في تعاظم القطاع الرابع ـ صناعة المعلومات). ان بعض الماركسيين في أوروبا يدعو الى مجتمع مدني عالمي.

هذه بعض اشارات لثلاث محاور من المفيد بحثها جماعياً.

لعلنا بحاجة الى ورشة عمل فكرية من ١٠ ـ ٢٠ باحثاً للتداول وتنسيق النقاش الاخوي.

ان تقسيم العمل الاجتماعي في تشعب مستمر، يستحيل معه جمع العمل الفكري بالنشاط العملي في فرد واحد أو حتى مجموعة أفراد، بل يصعب معه وقف التقسيم المتواصل للعمل الفكري نفسه، المتشعب ابداً. وعليه ينبغي التفكير بكيفية جديدة لجمع الاختصاصات الفكرية، المتوزعة عند كثرة من الافراد لخلق المنتوج الفكري الشمولي، وليس المنتج الفكري الشمولي الذي هو الآن حلم من احلام الماضي.

وان المنتوج الفكري الشمولي عملية يلتقي فيها الذكاء البشري والاصطناعي، كما تلتقي فيها شتى الاختصاصات التي تتجاوز التداخلات الفظة للقائد الحزبي، الذي ما يزال يتصور نفسه ملماً بالماضي والآتي، مواصلاً اوهام العصمة البابوية للبيروقراطية السوفيتية، مثلما تتجاوز التصورات المتسرعة لبعض المشتغلين في غير حقولهم.

كما اننا بحاجة الى استعادة اخلاق الحوار. فبعد كل هذه المآسي ما زلنا نسمع البعض يلوك لغة «التخوين» وسيلة للبحث والنقاش، ناقلاً فكرة اصولية من حقل الايمان الى حقل المعرفة. ان شرط استمرار هذا الحقل الاخير هو الجدل ولا شيء غير الجدل.

ملاحظات على ملاحظات

محمود صبري

قسّمت الملاحظات في اربعة أبواب للسهولة:
أولاً: حول مفهوم المجال.
ثانياً: حول الماركسية.
ثالثاً: حول المنبر الثقافي.
رابعاً: متفرقات.

أولاً: حول مفهوم المجال

الصورة الكلاسيكية للعالم كما صاغها نيوتن هي صورة مجزأة: العالم نظام من وحدات مستقلة تتحرك في فضاء مطلق محايد وتؤثر على بعضها البعض بسبب وجود قوة حالّة فيها تمارس فعلها عن بعد على نحو فوري وفقاً لقانون التربيع العكسي. هذه الصورة انهارت في مطلع القرن العشرين بسبب انجازات العلم الحديث (خاصة النظرية النسبية وميكانيكا الكم).

الصورة الجديدة التي يرسمها العلم الطبيعي الآن هي صورة كلية: (أ) ان العالم هو مجموعة مجالات طاقة. (ب) ان هناك نقاط تركيز في هذه المجالات تقترن بما يسمى بالجسيمات الأولية للمادة. (ج) ان المجالات تتفاعل فيما بينها، وهذا يعني تفاعل الجسيمات الأولية التي تقترن بها.

بكلمة أخرى، العالم لم يعد يوصف كنظام من جسيمات واشياء واجرام، والخ، تسبح في فضاء، كما افترض العلم الكلاسيكي، بل من مجالات متفاعلة. هذه الصورة مماثلة بوجه عام للصورة الدايلكتية التي رسمها انجلز للعالم، والقائلة بأن العالم ينبغي ان لا ينظر اليه كنظام من اشياء/مواضيع مستقلة بل من عمليات. في أطار هذه الصورة فان مفهوم الجسيمات كنقاط تركيز في مجالات، يتطابق الى حدّ كبير مع المفهوم الذي ترسمه الموضوعة الرابعة حول فيورباخ، بأن الانسان هو مجموعة علاقات اجتماعية. المجتمع لم

يعد يفهم كنظام من «افراد» بل كمجال من «الارتباطات والعلاقات التي يجد الافراد انفسهم فيها».

لهذا ينبغي ان لا ينظر الى مفهوم المجال كابتداع في فرع معين من العلم الطبيعي، بل كتغيير جوهري في رؤية الانسان للعالم (بجانبيه الطبيعي والاجتماعي).

المفهوم الكلاسيكي للعالم، كنظام من وحدات مستقلة، تتحرك في فضاء محايد مطلق (الذي ساد حتى نهاية القرن التاسع عشر) هو ليس إلا ذروة معرفة الانسان الزراعي وفهمه لعلاقة الأجسام (في الطبيعة والمجتمع) بالفضاء المحيط بها، وسببية الحركة والتطور والاحداث. الانسان تحرّى تاريخياً هذه العلاقة مفترضاً السببية حالّة في الاجسام ذاتها.

الانسان في عصرنا يقلب العلاقة بين الموضوع والفضاء المحيط به، فيعطي الأولوية الى الفضاء ويبدأ بتحريه (كما تحرّى الاجسام/المواضيع ـ قبلاً) باعتباره في التحليل النهائي مصدر وسبب الحركة والتغيير والوجود. الخطوة قد تبدو، ظاهرياً، صغيرة، ولكنها تمثل انقلاباً فريداً في علاقة الانسان مع الطبيعة والمجتمع. فهو يخالف كافة المدلولات الحسية المباشرة للانسان حول علاقة الاجسام بالفضاء المحيط بها.

جرى انقلاب مماثل (ولكن على نطاق اكثر محدودية بكثير) في نظرة الانسان الى (وعلاقته مع) الكون مع الثورة الكوبرنيكية، التي نقلت مركزية الكون (المعروف في حينه) من الأرض الى الشمس. وانظر اي النتائج التي ترتبت على ذلك في علاقة الانسان مع الطبيعة والمجتمع ومع نفسه: ثورة في علوم الفيزياء والكيمياء والاركيولوجيا والبيولوجيا والاجتماع اضافة الى الفن والأدب، الخ، بين القرنين ١٧ ـ ١٩. وهذه اصبحت، مع ما اقترن بها من تحولات في قوى الانتاج، الأساس لقيام وتطور الرأسمالية.

السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما الذي سيؤدي اليه نقل مركز اهتمام الانسان وتحرياته من الموضوع/ الشيء المادي، الى الفضاء (المجال) المحيط به، في ميادين المعرفة المختلفة وفي ميدان التطبيق الاجتماعي؟

ثانياً: حول الماركسية

(١) مسألة تطوير الماركسية

واضح ان النظرية التي لعبت (ولا تزال) دوراً مركزياً في الثورة الاجتماعية للقرن العشرين، هي الماركسية. احد اهم المفاهيم التي تقترن بهذه النظرية، كما هو معلوم، هو المفهوم الدايلكتي: العالم بجوانبه الطبيعية والاجتماعية والفكرية، هو نظام كلي موحّد

في عمليات متطورة وترتبط فيما بينها بعلاقات متشعبة وكونية. وفي مركز هذه الصور يقف الانسان (في سياق المجتمع) كتجسيد للعلاقات الانتاجية ـ الاجتماعية.

مفتاح هذه الصورة هو نشاط الانسان الانتاجي: «الانسان يعمل على العالم الخارجي (الطبيعي والاجتماعي) ويغيّره، وبهذا فانه يغير نفسه». بكلمة أخرى، عملية الانتاج تربط الانسان والمجتمع والطبيعة في كل واحد متطور. لهذا عندما يقوم الانسان خلال عمله على الطبيعة باختراقها الى مستوى جوهري مكوّناً صورة جديدة لنسبيتها وقوانينها فان هذه الصورة الجديدة لا بد وان تنعكس في (وتلّون) الصورة التي يكوّنها الانسان عن نفسه وعن المجتمع ايضاً.

الدايلكتيك الماركسي (المادي والتاريخي) صيغ قبل الاختراق الثوري الذي تحقق في ميدان العلم الطبيعي منذ نهاية القرن التاسع عشر. لهذا: (أ) ينبغي تطويره في ضوء المدلولات والمفاهيم التي اقترنت بهذا الاختراق. (ب) اختبار الصيغة الدايلكتية الجديدة في التطبيق في ميادين النشاط المعرفي ـ الاجتماعي. فالماركسية ينبغي التعامل معها قبل كل شيء، كعلم. وبالتالي ان تكون قابلة للتغيير / للتطوير، خاصة مع كل تجديد ثوري في العلم الطبيعي.

مع ذلك ينبغي التأكيد هنا بقوة: ان الدايلكتيك الماركسي حتى في صيغته التي وضعها وانتهجها ماركس منذ منتصف القرن التاسع عشر لم يجرِ تطبيقه (خاصة في تقاليد الماركسية السوفيتية) بادراك كاف لجوانبه الدقيقة الاختلاف عن الفكر الكلاسيكي. مثلاً: مفهوم العالم كنظام من عمليات، أو مفهوم الموضوع (أو «الواقع») «كنشاط حسي بشري»، أو مفهوم الانسان كنظام من علاقات اجتماعية... الخ. هذه المفاهيم الهامة عوملت لا كمنطلقات جديدة، للبحث والتطبيق في ميادين النشاط البشري المعرفي المختلفة (على ضوء اكتشافات العلم الطبيعي الجديدة في القرن العشرين)، بل كصيغ مجردة تردد في الدراسات والابحاث على نحو مدرسي (سكولاستي).

(٢) نظرية المعرفة

تشير الى ثلاثة اقتراحات: (١) ثنائية الذات ـ الموضوع. (٢) ألغاء الثنائية. (٣) حجيرة رباعية لكيان عضوي معرفي: «ذات عارفة ←—— نظام أو جهاز اشارات معرفي ←—— موضوع المعرفة ←—— ذات أخرى تنقل اليها المعرفة».

من بين هذه الاقتراحات الثلاثة، فان الأول (ثنائية الذات ـ الموضوع) هو خارج الصدد. انه مفهوم كلاسيكي. وقد انهار كلياً مع الثورة العلمية الحديثة. انا مع الاقتراح الثاني:

وحدة الذات ـ الموضوع. انها أبسط علاقة معرفية. وبهذا المعنى يمكن تسميتها بـ«عملية» أو «حدث» أو «كمّ» معرفي. ماركس في الموضوعة الأولى حول فيورباخ اطلق على «الشيء»، «الموضوع» اسم «نشاط حسّي بشري». وبذلك فانه من ناحية يرسم صورة العالم المحيط بنا كوحدة ذات ـ موضوع. ومن ناحية أخرى يقيم هذه الوحدة على اساس «الممارسة» (ولول ان هذه النقطة يمكن مناقشتها على مستويات مختلفة). من ناحية أخرى، «البساطة» تتعلق بجانب أساس في المنهج الماركسي، أعني، «نقطة البداية». فتحليل أي موضوع ينبغي ان يقودنا من المحسوس الى المجرّد، أو بالاحرى الى أبسط علاقة مجرّدة يمكن الابتداء/ الانطلاق منها ثانية عبر التفكير نحو المحسوس. أبسط علاقة عندئذ ينبغي ان تكون بين جانبين أو تحديدين، وبالتالي تؤلف وحدة بينهما.

كما تعلم جيداً، في «الرأسمال» ماركس يبدأ بـ«البضاعة» كأبسط علاقة في الاقتصاد السياسي. (لينين يعتبرها «حجيرة المجتمع البرجوازي»). انها وحدة من جانبين «قيمة استعمال + قيمة تبادل». وخلال تحرّي هذين الجانبين وعلاقتهما يجري الكشف تدريجياً عن العلاقات والتناقضات التي تقترن بهما والتي تمتد الى كامل المجال الاجتماعي. طبعاً يمكن القول ان تحليل تركيب البضاعة هو مسألة تتعلق بالمنهج (الماركسي). غير ان «البساطة» تبقى عاملاً اساسياً وهدفاً (حتى في ميدان العلم الطبيعي) عند تحديد تركيبة نظام – أو شيء ما كما هو الأمر مع «الحجيرة المعرفية» مثلاً.

وحدة الذات ـ الموضوع تبقى ابسط علاقة ممكنة. اما الجانبان الآخران (أعني «النظام الاشاراتي» + «الذات الأخرى التي تنتقل اليها المعرفة») فانهما يتبعان منطقياً من تحليل تلك العلاقة البسيطة. اللغة مثلاً هي جزء من معدات «الذات الأخرى التي تنتقل اليها المعرفة» فانها تقع في (أو بالأحرى تمتد الى) هذا النسيج (الذي يسمه ماركس بمجموعة العلاقات الاجتماعية) والذي يضم العمليات الجوهرية الاجتماعية والتراكيب الفوقية التي تقوم عليها. (انني لم اقرأ كتاب ليونارد ـ غير انني أود ان أرى كيف يقدّم أو يناقش هذه العلاقة «الرباعية»).

تجدر الاشارة الى ان «موضوع» المعرفة (في الحجيرة المعرفية) هو الميدان الذي حدث فيه هذا التحول الثوري في علاقة الانسان مع الطبيعة في هذا القرن ـ حيث انتقلت هذه العلاقة من مظهر الطبيعة الى جوهرها (مستوى الجسيمات الأولية والمجالات). هذا الاخير اصبح اساس «موضوع المعرفة» الجديد. هذا التحول انعكس في فروع النشاط المعرفي والعملي الأخرى. وقد ترتب عليه مثلاً: ألغاء ثنائية الذات ـ الموضوع، تشوير مفهوم «جهاز الاشارات المعرفي»، زوال مفهوم أولوية المثالية أو المادية، الخ.

(٣) بنية الانتاج العالمي

(أ) تقول هناك «نقلة من الاقتصاد القومي - القاري الى الكوني». هذا صحيح. غير ان هذه النقلة هي جانب واحد من التثوير الذي تحقق في بنية الانتاج العالمي. انها تمثل الجانب الأفقي من العملية. هناك جانب آخر، عمودي. وهذان الجانبان يمثلان المحورين اللذين يمكن خلالهما اعطاء صورة أدق - وأصّح - لعملية الانتاج الحديث وامكانياتها. واظن ان الجانب العمودي هو الاكثر أولية. فالثورة العلمية التكنولوجية، التي اقترنت باختراق المادة الى عمق جوهري وبلورة فهم جديد للعالم الطبيعي، هي اساس النقلة الكونية (الأفقية) للاقتصاد. اقرب مثال: الثورة المعلوماتية. لولا التكنولوجيا الالكترونية لما امكن بناء اقمار اصطناعية. ولولا هذه لما حدث ما نسميه بالثورة المعلوماتية. هذا يكشف ايضاً عن ان مفهوم ثنائية العلم الطبيعي - العلم الاجتماعي لم يعد نافذاً. هناك وحدة فعالة تصهر علاقة الانسان بالطبيعة وعلاقته بالمجتمع خلال الانتاج. وبالتالي تؤكد وحدة العلم الطبيعي والعلم الاجتماعي. ماركس أكد هذه الوحدة في كتاباته الاولى.

(ب) تشير الى «غياب أي مركز ثقل» للاقتصاد العالمي. ربما يمكن تناول هذه المسألة من زوايا النظر التالية:

١- انتهاء التفوق الاستثنائي الامريكي الذي اعقب الحرب العالمية الثانية وبروز قوى أخرى، مثلاً، اليابان واوروبا كمراكز ثقل أخرى الى جانب أمريكا.

٢- ان المؤسسات الاقتصادية الكونية متعددة الجنسية اخذت تدرك بأن اللامركزية اكثر فائدة لها في عملها على المستوى العالمي (من المركزية). حتى اتخاذ القرار نُقل الى المناطق المختلفة التي يمارس فيها النشاط الاقتصادي - الانتاجي دون الرجوع الى المركز الرئيس. الدور الاساسي للمركز اصبح رسم سياسة واهداف عامة، الخ، وليس اتخاذ القرار. (وهذا تطور هام حقاً).

٣- غير ان هناك ايضاً الفهم العلمي الجديد للعالم الطبيعي كنظام من عمليات ومجالات لا مركزية تمتد الى كامل الكون. وهو فهم اصبح يغذي وعي وسلوكية كثير من الناس الذين يملكون سلطة اتخاذ القرار (من سياسيين الى رجال اعمال تنفيذيين الى مهندسين اداريين، الخ). وهذا يجد صدى في القرارات الاقتصادية - الانتاجية.

(ج) اشكالية القرار «كحصيلة تفاعلات قوى».. «خارجة عن ارادات كل الاطراف المشاركة».

هناك رسالة من انجلز الى بلوخ (٢١ سبتمبر ١٨٩٠) اعتقد انها يمكن ان تلقي ضوء على هذه الاشكالية. الرسالة تتناول دور الافراد في تقرير احداث التاريخ، وكذلك دور عناصر البناء الفوقي في تقرير شكل الصراعات التاريخية بالمقارنة مع العامل الاقتصادي. انجلز يرسم صورة كالتي تعطيها في رسالتك «للمحصلة» كنتيجة «خارجة عن ارادات الاطراف المشاركة في لعبة القوى... الخ». فهو يتكلم ايضاً عن «صراعات بين ارادات فردية كثيرة...»، عن «قوى متقاطعة لا تحصى، مسلسلات لا نهاية لها من محصلات القوى التي تؤي الى حصيلة واحدة ـ الحدث التاريخي» ... «ما يريده كل فرد يعرقل من قبل كل فرد آخر وما يظهر هو شيء لم يرده أيّ فرد».

انجلز يرسم هذه الصورة في اطار التفسير الماركسي لتركيب المجتمع كنظام في مستويين: فوقي وقاعدي. هذا الاخير – الذي يسمه «مستوى الضرورة» – هو الذي يقرر «في التحليل النهائي» سير التاريخ، وبالتالي يحبط رغبات القوى المتفاعلة.

(٤) حول صناعة الثقافة Culture Industry و/أوصناعة المعلومات Information Industry

ان نشوء وتطور هذا القطاع الانتاجي بهذا الشكل المذهل خلال جيل واحد فقط (بحيث اصبح كما تقول «يحتل ٤٠٪ من قوى العمل في الولايات المتحدة واليابان، ويشكل نسبة مقاربة من الدخل القومي») يفرض اعادة نظر في فهمنا التقليدي للبدائل الممكنة امام التاريخ العالمي أو طوبوغرافية الصراعات الاجتماعية القائمة. مثلاً: الاستنتاج الماركسي الخاص بالدور التاريخي القيادي للبروليتاريا في الانتقال الى الاشتراكية. أو، مثلاً: الاستنتاج القائل بأن «عصر البرجوازية.. جعل التناحر الطبقي اكثر بساطة». أو: ان حركة البروليتاريا هي حركة «الاغلبية الساحقة»، الخ. فهذا التطور الثوري في نمط الانتاج، الذي أدى الى تنوع وتعقيد تركيب القوى العاملة (القوى التي ترتبط بالانتاج الصناعي، وصناعة الثقافة والمعلومات والخدمات، الخ. وعلاقاتها ومواقعها في عملية الانتاج) لم يعد يسمح باستنتاجات كهذه. انها استنتاجات آيديولوجية أكثر مما هي علمية. لهذا فانها تتطلب تعديلاً يأخذ نتائج التطورات الجديدة بنظر الاعتبار. ان مفهوم «التكافؤ» الذي انطلقتُ منه في «بيان المثقف...» والذي يقوم على وحدة «العمل الجسدي ـ الفكري»، أو وحدة «العمل ـ الثقافة» هو خطوة في هذا الاتجاه.

(٥) حول «المجتمع المدني» و«الدولة»

أ ـ هناك اهتمام متزايد بالأطر النظرية الاجتماعية للقرن الثامن عشر، وخاصة اطار «المجتمع المدني ـ الدولة». الاهتمام دون شك يرتبط بالبحث عن صيغ مناسبة للعلاقات التي تربط الاشكال والمؤسسات السياسية والقانونية والآيديولوجية فيما بينها ومع مختلف جوانب الحياة المادية للافراد، في ظروف هذا الارتداد العالمي الى مفاهيم وممارسات الليبرالية الاقتصادية، واضح ان هذا الارتداد هو نتاج لانهيار التجارب «الاشتراكية»، وتفسير هذا الانهيار كفشل الفكر الماركسي. ولكن هل ان مفاهيم وصيغ القرن الثامن عشر يمكن ان تصحّ لحل مشاكل تتعلق بنهاية القرن العشرين؟

الإطار المفهومي الماركسي هو في جوهره تطوير وقلب للأطر المفهومية للقرن الثامن عشر. ورغم ان هناك نواقص في هذا الاطار فانه يبقى قفزة معرفية بالمقارنة مع الأطر المفهومية للقرن الثامن عشر. لهذا فان الموقف الأكثر صحة في أية محاولة لتحديد وفهم علاقات ووظائف الاشكال والمؤسسات السياسية والقانونية، الخ، هو في تطوير الإطار المفهومي الماركسي ذاته، اخضاعه الى تحليل دقيق من زاوية نظر مدلولات الحاضر (ورؤية المستقبل) وليس من زاوية نظر الإطار المفهومي للقرن الثامن عشر.

المجتمع المدني، بالنسبة لماركس، هو نظام «علاقات الانتاج» ـ أو ما يسميه بـ«التنظيم الاجتماعي».. «الذي يؤلف اساس الدولة وبقية التركيب الفوقي».

غرامشي يعطي مضموناً آخر مختلفاً لـ«المجتمع المدني». فهو ينقله الى «التراكيب الفوقية». انه يتكلم عن مستويين من هذه التراكيب: الأول: يسميه «المجتمع المدني» ـ وهو تلك المجموعة من الأجهزة والمؤسسات، الخ. التي تدعى بالمؤسسات «الخاصة» كالجمعيات والأحزاب والكنيسة الخ.، والتي تمارس ما يسميه وظيفة «الهيمنة» (hegemony) السياسية ـ الآيديولوجية. والثاني: يسميه «المجتمع السياسي/ الدولة». وهو مجموعة الاجهزة والمؤسسات الرسمية التي تمارس «السيادة المباشرة» أو الحكم والقمع. (احياناً يتكلم غرامشي عن الدولة بكونها تشمل هذين المستويين معاً. فهي = «المجمتع المدني» + «المجتمع السياسي». اي انها جهاز هيمنة آيديولوجية ـ سياسية وجهاز قمع في آن واحد. ربما هذا يصحّ على اقطار العالم الثالث).

كل هذا يعني توسيعاً لمفهوم «التركيب الفوقي» و«الصراع الآيديولوجي»، وكذلك بصورة خاصة، لدور المثقفين في الصراع المجتمعي (السياسي). غير ان هذا التوسيع (الذي يأخذ بنظر الاعتبار تطور وتنوّع المؤسسات الفوقية وزيادة تعقيد دورها في حياة المجتمع) يبقى في اطار المفهوم الماركسي لتركيب المجتمع كنظام من بناء قاعدي وفوقي.

ب - ينبغي التريث في الحكم على الاتجاهات الجديدة في بلدان اوروبا الشرقية والاتحاد السوفياتي سابقاً. هدف التحولات - كما هو معلوم - هو بناء مجتمع يقوم على التداول الحرّ للبضائع والافكار، أو، اقتصاد حرّ + مؤسسات /اجهزة «مجتمع مدني». هذا يعني فتح الباب امام تناقضات كالتي تقوّض استقرار المجتمعات الغربية. غير ان البلدان الشرقية جربّت حياة من ضمانات مادية - اقتصادية في ظل الاقتصادات المخططة السابقة (حتى وان كانت تقترن بنهج بيروقراطي مبتذل). هذا يعني وعياً بضرورة توسيع جدول عمل هذه المجتمعات ليشمل - الى جانب «المجتمع المدني» - ضمانات كهذه، وخاصة بالنسبة لميداني العمل اليدوي والفكري. وهو شيء يمكن ان يصهر وحدة تاريخية بين هذين الميدانين تقوم على التكافؤ. عندئذ فقط يمكن الحديث عن اساس واقعي لوهيمنة مقلوبة». فهي تعتمد على امكانية تطوير الأجهزة والمؤسسات الخاصة التي يمكن بواسطتها أو، خلالها، الهيمنة على «المجتمع المدني» (آيديولوجياً، فكرياً). من هذه الناحية لا يختلف موقف هذه الاقطار كثيراً عن الاقطار الغربية. غير انها مع ذلك تبقى «اضعف الحلقات».

ثالثاً: حول المنبر الثقافي

المسألة لا تتعلق بوضع تمايز بين «الثقافي» و«الفكري» بحيث ان الخيار يصبح بين «انشاء جماعة ثقافية» أو «جماعة فكرية» ،بالمعنى الذي تصبح فيه الأولى «نقابة مثقفين»، والثانية «ستوديو للبحث والاستقصاء...» بل اتخاذ موقف جديد تجاه الدور الاجتماعي للمثقف.

«بيان المثقف...» يتكلم عن دور جديد اجتماعي - سياسي في اطار دور ثقافي فكري مستقل للمثقف. العنصر الجديد في هذا الدور هو الاستقلاليّة. أي ان دور المثقف ينبغي ان يُرى، لا كملحق بهذه القوة الاجتماعية.. السياسية أو تلك (كما هو الأمر حتى الآن) بل كقوة لها مصلحتها وموقفها الفكري (الآيديولوجي) الخاص الى جانب القوى الأخرى.

كل هذا يعني كياناً يجمع بين الفكري والثقافي/ المهني والسياسي معاً. اننا نتكلم هنا عن دور جديد في طور التكوين مما يتطلب وحدة وتماسك كافة هذه الجوانب. الصيغ السابقة التي تفصل الفكري عن الثقافي/المهني (والسياسي) تقوم على نمط من العمل يفترض ويستند الى ارتباط المثقف عضوياً بقوى خارجة عنه. بينما النمط الجديد من العمل ينطلق من استقلال دور المثقف عن هذه القوى.

الثورة العلمية ـ التكنولوجية (التي دفعت الانتاج نحو عالم من الصناعة المعلوماتية ـ الثقافية والذكاء الاصطناعي، وبالتالي وضعت الأساس لدور جديد لمثقف كقوة مستقلة في القرن العشرين) عنت شيئين رئيسيين بالنسبة لموضوعنا: (١) تأكيد الرؤية الدايلكتية للطبيعة والمجتمع، وبالتالي مفهوم وحدة المعرفة والثقافة الواحدة. (٢) خلق وعي بالتكافؤ بين الانتاجين المادي والفكري/ الثقافي. مثل هذا الوعي يدفع في اتجاه رؤية «العمل» كحليف طبيعي لـ«الثقافة» في الصراع من اجل تحقيق مجتمع انساني من العدل والحرية. فهاتان القوتان (بسبب علاقتهما القانونية المتماثلة مع وسائل الانتاج) لا تفقدان (اذا وسّعنا مقولة ماركس قليلاً) سوى قيودهما وتربحان عالماً جديداً بكامله.

مفهوم التكافؤ بهذا الصيغة الجديدة يعني ان وحدة «الثقافة ـ العمل» هي الوحدة التاريخية التي يكون لها الدور الحاسم في عملية التغيير الاجتماعي. وهذا يعطي لشعار «وحدة شغيلة الفكر واليد» مضمونه الحقيقي.

بكلمة أخرى: المسألة ليست تكوين جماعة ثقافية/مهنية أو جماعة فكرية («ستوديو فكري») «للبحث والاستقصاء.. الخ»، بل تكوين تجمّع واسع للمثقفين، كمنبر ثقافي، يمارس «الستوديو الفكري» عمله في اطاره. مهمة «الستوديو الفكري» عندئذ تكون المساهمة (خلال «البحث والاستقصاء... الخ») في صياغة الموقف الجديد للمثقف كقوة اجتماعية ذات دور جديد مستقل في الصراع الاجتماعي ـ الثقافي ـ السياسي يتطابق مع ويعكس دوره المتطور في الانتاج الاجتماعي كمنتج افكار (واشكال وعي)، اضافة الى بلورة اهداف المنبر الأخرى الثقافية والسياسية (الآيديولوجية).

رابعاً: ملاحظات متفرقة

أ ـ حول «اشكالية المعرفة» والمجال

تمسكي بمفهوم المجال يتعلق طبعاً باشكالية المعرفة. فهو يعني رؤية وفهم العالم (الطبيعي والاجتماعي) على نحو آخر جديد – اعني كنظام من مجالات اساسية تقترن بتكوينات مظهرية فوقية – لرسم صورة اصدق واكثر صحة للعالم.

ان اشكالية المعرفة تكمن بدرجة رئيسية في انها لقرون طويلة (وخاصة منذ ظهور العلم الكلاسيكي) تعاني من التجزئة: تجزئة في النظرة الى العالم (الطبيعي والاجتماعي) كأشياء/ ظواهر/ وحدات منفصلة. وتجزئة في ميدان المعرفة ذاته الى ميادين جزئية، فرعية ودون فرعية (اجتماعية، طبيعية، فنية، الخ).

مفهوم المجال هو الطريق الى حل هذه «الاشكالية» وتحقيق وحدة في النظرة / الرؤية

وفي ميدان المعرفة ليس فقط ضمن العلوم الطبيعية والاجتماعية ذاتها بل وفيما بينها ايضاً. فهو يعني فهم العالم على نحو كلي على مستوى عملياته وعلاقاته الجوهرية، لا تكويناته الظاهرية.

انجلز تكلم عن اهمية وضرورة ازالة هذه التجزئة خلال فهم العالم كنظام من عمليات وتطبيق هذا الفهم في ميادين النشاط المعرفي المختلفة. لأنها، أي التجزئة، كما قال، مناقضة للفهم الدايلكتي. ماركس تكلم عن «علم واحد» مستقبلي، يجمع «العلم الطبيعي» و«علم الانسان» معاً. القرن العشرين شهد ظهور تقاليد معرفية كليّة (holistic) انطلاقاً من انجازات الثورة العلمية ـ التكنولوجية.

ب ـ تقول ان «مشكلة المعرفة تقوم لا في المستوى دون الفيزيائي أو الفيزيائي، أو المستوى الكيميائي أو البيولوجي، بل في مستوى ما بعد عضوي. انه مستوى اجتماعي ـ تاريخي» ما تقوله صحيح. فالمعرفة هي من زاوية نظر الانسان. غير ان هذا يفترض التعامل مع المعرفة على نحو كلي ـ اعني لكافة هذه المستويات وعلاقاتها المتبادلة، وخاصة الطبيعية. هذه الاخيرة تكتسب اهمية استثنائية في عصرنا.

فالتعامل بين الانسان والعالم (على مستوياته المختلفة من الفيزيائي الى الاجتماعي ـ التاريخي) كان دوماً على مستوى المظاهر. وقد اعطانا في ذروته ما يسمى عادة بالمعرفة الكلاسيكية.

ما حدث في القرن العشرين هو ان الانسان اخترق حاجز المظاهر. واخذ خلال اجهزته وادواته المعقدة يتعامل مع ويتحرى العالم على مستوى جوهري عميق. المعرفة تمدّ الآن جذورها الى مستوى من الوجود كان حتى وقت قريب خارج نطاق التحري ولم يكن يعرف عنه الانسان شيئاً. وهذا هو اساس الثورة العلمية ـ التكنولوجية.

مشكلة المعرفة المعاصرة، ببساطة، هي في قدرتها على استيعاب وتقييم هذا الامتداد العميق الى جوهر الطبيعة على نحو صحيح.

باختصار، ما تم اكتشافه في ميدان العلم الطبيعي هو جزء من المعرفة على المستوى الاجتماعي ـ التاريخي. بل انه يصبح الآن مقياساً وأساساً لهذه المعرفة. نلمس هذا بوضوح في تأثير مفاهيم نظريتي النسبية وميكانيكا الكم على العلوم الأخرى (بما فيها الاجتماعية ـ التاريخية). مثلاً، مفهوم نسبية قياسات الطول والزمن، الخ. (بالنسبة لحركة الاجسام)، أو مفهوم ثنائية الخصائص الجسمية ـ الموجية للمادة الذرية، أو مبدأ الريبة (Uncertainty Principle). لهايزنبرغ، أو مبدأ بوهر في الـ(Complementarity). أما مسألة نشاط الذات في عملية التعرف أو وحدة الذات

ـ الموضوع فقد تكلم عنها ماركس (وقبله كانط) مثلاً. غير انها لم تصبح جزءً من وعينا الا بعد تجارب النسبية وميكانيكا الكم التي اثبتت على نحو قاطع العلاقة المتبادلة التأثير بين الذات والموضوع (المشاهد والمشاهَد). كل هذه المفاهيم وغيرها اصبحت جزءً من ترسانة العاملين في فروع المعرفة الاجتماعية ـ التاريخية (الفلسفة، التاريخ، السايكولوجي، علم اللغة، الانثروبولوجي، الخ) كعنصر أساسي في نهجهم في البحث.

أما مفهوم المجال فان الكلام حوله كان بوجه عام اقل شيوعاً (من مفاهيم ميكانيكا الكم) في الأطر التي رسمها الانسان لمعرفته في المستوى الاجتماعي ـ التاريخي لأسباب تتعلق باتجاه تطور المفاهيم الفيزيائية في القرن العشرين. مثلاً ان بعض استنتاجات النظرية النسبية العامة بقيت مثار نقاش لفترة طويلة (من أواخر الكتب التي ظهرت حول الموضوع هو ?Was Einstein Right - نشر Oxford University - 1988 Press). أو مثلاً، ان مشكلة توحيد كافة المجالات في مجال موحّد (وهي المشكلة التي كرس لها اينشتاين آخر ربع قرن من حياته) لا تزال حتى الآن طموحاً (مستقبلياً) كبيراً بالنسبة للعلم الطبيعي.

جوهر الماركسية كأنجاز معرفي هو بالضبط في كونها نظرية مجال. الموضوعة الرابعة تتكلم عن الانسان «كمجموعة علاقات اجتماعية». انجلز يتكلم عن ضرورة فهم العالم لا كما يبدو في اشكاله المظهرية المنفصلة، بل في عملياته وعلاقاته الجوهرية. ماركس يعبّر عن كل ذلك في الصورة التي يرسمها للمجتمع كتركيب من مجال قاعدي وآخر فوقي (الاساس المادي الاقتصادي، واشكال الوعي والمؤسسات الفوقية التي تعبر عنه). ماركس ثوّر معرفتنا للمجتمع وتطور التاريخ بهذه الصيغة. المشكلة الآن هي تطوير هذه الصيغة على ضوء المعرفة الجديدة في ميدان العلم الطبيعي. فكما يقول ماركس: «فقط عندما يبدأ العلم من الطبيعة فهو علم حقيقي».

ج ـ تقول «اتمنى ان تنتقل مشكلة المعرفة من حقل الفيزياء المجردة الى حقل الفيزياء الاجتماعية وتفاعلاتها... الخ».

غير واضح ماذا تعني تماماً. فهذا هو بالضبط ما قمت به في عملي الفني (التطبيقي والنظري) خلال ربع القرن الأخير. في (واقعية الكم) حاولت تطبيق معرفة فيزيائية مجردة (مفاهيم في فيزياء الكم والنسبية + مدلولات ذرية) في ميدان الفن. افترض اننا لا نختلف في ان المعرفة الفنية هي جزء من المعرفة البشرية. وان اشكال الوعي الفنية (كجزء من البناء الفوقي الآيديولوجي الذي يوثر على [ويتأثر بـ] البناء القاعدي) تدخل ضمن «حقل الفيزياء الاجتماعية وتفاعلاتها». فأين المشكلة اذن؟ هل هي في الشكل؟

في (واقعية الكم) الشكل لا يتطابق مع الشكل الطبيعي المألوف. ويبدو للمشاهد

الاعتيادي «تجريدياً». غير ان هذا «التجريد» هو بالضبط صورة جوهر عالمنا الطبيعي. وهو ما يميزه عن عالم المظاهر.

(هناك اشارة لماركس بصدد العلم حول «اللا ـ تماثل» بين المظهر والجوهر. اشعر انها تصحّ هنا ايضاً. يقول، لو كان جوهر الاشياء يطابق مظهرها لما كانت هناك ضرورة للعلم).

د ـ حول تقسيم العمل

فيما يتعلق بتقسيم العمل اتفق معك ان هذه العملية في تشعب مستمر. غير ان هناك في الوقت نفسه اتجاهاً آخر معاكساً نحو ما يسمى بالموقف الكلي (Holistic) أو تعدد الاختصاص المعرفي (multi-Disciplinary) في الثقافة. هناك الآن مثلاً جامعات انكليزية وأمريكية تتبع هذا المنهج، ومعاهد تنظم كورسات دراسية مختلطة، مثلاً حول (Art-Physics)، ومراكز ابحاث علمية تمنح تسهيلات خاصة لفنانين يقومون بأعمال فنية ذات علاقة بالعلم الطبيعي والتكنولوجيا. من ناحية أخرى هناك اعداد متزايدة من الندوات والحلقات والمجلات والكتب، الخ. حول علاقة العلم والفن والتكنولوجيا (لاحظت مؤخراً مثلاً، اعادة طبع كتاب The 2 Culture تأليف C.P. Snow الذي كان قد صدر في منتصف الخمسينات. وهو ربما أول وأهم كتاب باللغة الانكليزية حول وحدة الثقافتين الفنية والعلمية).

لهذا تأكيدي في «بيان المثقف...» على مفهوم وحدة الثقافة. هذا التأكيد هو ليس اجراءاً تكتيكياً، بل انه يقترن بالوعي المتزايد الآن بحقيقة ترابط ووحدة فروع المعرفة المختلفة (وهي صيغة أخرى للتعبير عن الفكر الماركسي) هذا لا علاقة له بمسألة صعوبة خلق «المفكر الشمولي» بل بخلق الموقف الشمولي/ الكلي تجاه الثقافة.

أما مشكلة خلق «المفكر الشمولي»، فانا اعتقد ان السنوات القادمة (أو العقود القادمة) ستضع الحل المناسب لها خلال الاستعانة المكثفة بالذكاء الاصطناعي. عندئذ سيمكن للذكاء الانساني (حتى الاعتيادي) ان يستعيد مجدداً تلك العلاقة التي كنا نجدها قبلاً بين الفكر والمعرفة، والتي كانت تجعل في الامكان خلق مفكرين انسكلوبيديين. فالتكنولوجيا، كما قال ماركس، تطيل قامة الانسان. وهي مقولة تصحّ على التكنولوجيا الذكية الجديدة بقدر ما تصح على التكنولوجيا اليدوية التقليدية (ان لم يكن أكثر). لهذا لا اعتقد ان «المفكر الشمولي» يمكن ان يصبح «حلماً» من احلام الماضي. انه نموذج انسان المجتمع اللاطبقي ـ متعدد الاختصاصات والهوايات.

أما مسألة خلق الموقف الشمولي/ الكلي تجاه الثقافة، كموقف نقيض لتشعب تقسيم العمل، فانه يرتبط بنوع المستقبل الذي يطمح اليه البشر ونشاطهم من اجل تحقيقه.

أعني، اذا كنا نعتقد مع ماركس في رؤيته لمجتمع لا طبقي مستقبلي، فان هذا الاعتقاد ينبغي ان يشمل ايضاً اعتقاداً بزوال تقسيم العمل. فلا يمكن الكلام عن (أو تصور) مجتمع لا طبقي يقوم على تقسيم العمل. انه تناقض في الصيغة.

مفهوم «زوال تقسيم العمل هو (كمفهوم «تلاشي الدولة») ليس هدفاً محدد الملامح قائماً هناك ينتظرنا كي نصله في زمن مستقبلي معين. انه الطريق ايضاً.

بكلمة أخرى، ان تحديد الهدف يتطلب قبل كل شيء تحديد الطريق والسير فيه. حقاً ان التفكير بهدف ما يعني (كما يقول ماركس بصيغة أخرى) ان الطريق موجود سلفاً بشكل ما، أو انه على الاقل في طور التكوين.

هذا يعني ان عملية «زوال تقسيم العمل» (كجزء من عملية تحقيق مجتمع لا طبقي) ينبغي ان تبدأ معنا من الآن. اعني، حتى في هذه المرحلة من الرأسمالية التي تقوم على شكل متشعب معقد من تقسيم اعمل.

هذا يتم بالانطلاق من المفهوم النقيض، الذي نشهد ميلاده وطفولته الآن، اعني مفهوم الثقافة الكلية (أو وحدة الثقافة). ولا يهم ان كان هذا المفهوم يبدو غريباً أو مناقضاً للاتجاه السائد. فهو البداية البسيطة، الصورة الأولية لنمط العمل اللاطبقي المستقبلي الذي سيقوم على زوال الاختصاص. ان ملامحه تتكامل وتتخذ شكلها المنطقي تدريجياً خلال الصراع الفكري والعملي ضد مفهوم وواقع تقسيم العمل في المجتمع القائم.

فردانية المثقف بمواجهة الكورس

عواد ناصر

يطرح الفنان محمود صبري السؤال القديم ـ الجديد بشأن دور المثقف العراقي الذي يصفه بأنه «المثقف الذي يعي دوره الاجتماعي (المثقف المجاهد)». وفي مقاله ـ البيان: «المثقف والسياسة والاستبداد» تطرق الكاتب الى مفاصل جوهرية في موضوعة الثقافي والسياسي داعياً الى وعي مختلف بحقيقة الترابط بين فعاليتين تاريخيتين: الثقافة والسياسة، ودورهما في الحياة العامة متلمساً طريقه، في صفاء ذهن واضح، من خلال ضرورة ما يمكن تسميته «وحدة المعرفة» بعد التطورات التكنولوجية العظيمة التي فرضت

على حياتنا معارف جديدة ووسائل جديدة لفهم العالم وتغييره على ضوء ترابط المنجزات الفكرية - العلمية جدلياً من أجل «اختراق هذه الأزمة من المعاناة واليأس والألتباس (...) هذا ممكن فقط باعادة تقييم مفهوم المثقف وموقعه ودوره المجتمعي، في سياق المعرفة الجديدة التي تقترن بالثورة العلمية - التكنولوجية».

أول ما يلفت الانتباه ويستحق التنويه هو دعوة صبري، في أكثر من مكان في المقال، الى استقلالية المثقف واعتباره طرفاً في الصراع.

هذه الدعوة - أو قل التوصيف - كفيل بأحداث رجفة في أوصال اولئك الذين تمسكوا بالمثقف (اخذوا بتلابيبه) انطلاقاً من حاجة استعمالية يومية كعرضحالجي يدوّر قلمه عشرات المرات، حسب القضية المطلوب معالجتها. و«أولئك» هذه لا تستثني شخصيات ومؤسسات لم تزل فاعلة سواء في مركز الاستبداد الرسمي الحكومي أو في مجال العمل العراقي المعارض (وان صغرت الصورة قليلاً). غير ان المؤسف ليس ما أبدته هذه الاطراف من إلحاح مصلحي على دور المثقف لصالحها، ذلك ان ميكافيلية السياسة، بفروعها وتنويعاتها، لا تأبه كثيراً بفردانية المثقف وسياقات عمله المختلفة عن سياقاتها الآنية، انما المؤسف هو قبول المثقف بدور لا يليق به وبجلد لا يناسب جسده وبلغة غير لغته.

إن شريحة (مجموعة) من المثقفين تتحمل المسؤولية قبل غيرها في ارتضاء الراهن والاندماج في لعبة غير مسليّة تتلخص بتلك التبعية المسلوبة الارادة، المشلولة، تحت لواء «الالتزام الثوري» طوراً أو الانتهازية طوراً آخر، مما جعل المثقف يمارس عمله الفردي (الابداعي) وكأنه شأن منزلي بعد أن يؤدي الواجب في الدائرة السياسية، وبدلاً من التشبث بالحرية الشخصية للمثقف بمواجهة الانضواء في الكورس لترداد الشعار والنشيد والبرنامج.

لقد سلّمنا – نحن المثقفين – أوراقنا وأصابعنا، لتستخدم في الآلة الكاتبة، فتخلينا عن وهجنا الداخلي ورهافتنا، وبقينا حتى فترة قريبة رهن الوهم التقليدي الذي ركب المثقف «الثوري» بانخراطه كلياً في المشروع السياسي وإداء دور ليس بدوره، لأن توزيع العمل الذي نقره نظرياً ألغي عملياً، وباتت العملية تشبه دعوة عالم ذرّة مرموق الى تشغيل اذاعة بدائية لا يسمعها المذيع نفسه!

بذا تخلّى المثقف العراقي عن استقلاليته (التي لم تكن موجودة أصلاً) وبتنازله التدريجي عن ذاته لصالح الجماعة فقد فردانيته، وهذا ما اشار له الفنان صبري بوضوح عندما قال: «نقطة التأكيد الأولية عند الكلام عن المثقف هي انه (كمنتج فكري - روحي) يمارس وظيفته كمنتج فردي بامتياز». وإذ نؤكد بدورنا هذا الجانب فلا يجوز لهذه الفردية المبدعة ان تعتزل بعيداً عن صخب الشارع العام وضجيج الأحياء الحزينة. لأن مادة الفنان

هي الواقع كمادة خام تدخل في مختبره ليعيد صياغتها وفق رؤية خاصة (فردية) حيث تتجسد الطبيعة الفنية المختلفة التي ستثير الدهشة فيما بعد.

يسعفنا المقال (المحاضرة) التي نشرتها (ث ج) في العدد نفسه، والتي القاها البروفيسور أدوارد سعيد من محطة راديو ٤ ـ لندن، حول هذا الجانب بقوله: «ففي صلب الأمر، أرى ان المثقف، بالمعنى الذي انسبه لهذه المفردة، لا مهدئاً ولا باني إجماع، بل امرئ يقوم كامل وجوده على احساس نقدي، حس الامتناع عن تقبّل الصيغ السهلة أو الكليشيهات الجاهزة، أو التوكيدات السلسلة، المتساهلة، مع ما يقوله المتنفذون أو التقليديون ويفعلونه. ولا أقصد الأمتناع السلبي، بل الارادة الفعالة في الأفصاح عن هذا الامتناع جهاراً».

ربما تتبدى الحقيقة الاجتماعية في الفن بشيء غير قليل من التركيب والغموض، وهذا أمر نسبي يختلف باختلاف تراكم الأثر الفني (الثقافي) في وعي الناس في زمان ومكان محددين. ولكن المثقف الذي يرع في كشف أو تكريس أو دحض أية حقيقة اجتماعية في الفن سيبقى في ديمومة قد تبلغ الخلود المطلق بينما نرى «الحقائق» السياسية الى تبدل واندثار ونسيان.

فالحقائق الاجتماعية التي تعرفنا اليها بشغف في أعمال غوركي وديستويفسكي وفوكنر، والى جانبها من النوع الفكري الخاص التي اكتشفها كارل ماركس، أو الطبيعية في نتاج غاليلو غاليليه لم تزل اساساً صالحاً للعمل والسجال والتمثل بخلاف تلك «الحقائق» التي أريد لها التكريس والتابوية الكنسية التي تجاوزها البشر وعصورهم الصاخبة. هذه «الحقائق» التي اريد لها دون سواها ان تكون هي اللائحة التي بموجبها ينسحب قوس كمان (موتزارت) على أوتاره، وسخر منها (غويا) وهو يحاول رسم العائلة المالكة وخرج عليها بدر شاكر السياب حتى الموت.

إن اشكال الخرق التي ابداها المثقفون عديدة ومتنوعة فحُرقوا وأهينوا وسجنوا وتشردّوا ومنعوا من التداول، والأمثلة كثيرة. وكثيرة هي القوائم السوداء التي اعدّتها المؤسسة (حاكمة أو غير حاكمة) بأسماء اولئك الذين تحدثوا عما وراء النهر.

بالسلب المستمر لوسائل التعبير والحصار المتعدد الأشكال لم يعد المثقف بحال تسمح له بالاتصال الطبيعي مع جمهوره، وبات من المتعذر عليه ان ينمّي تلك الصلة الضرورية مع متلقيه، ولم تتبق له في عصر القنوات المحروسة سوى ان يصون استقلاليته، رغم ان هذا يتطلب صموداً لا يقل عن صمود السجين في زنزانته، واصبح المثقف المستقل عملة نادرة، ومع مسؤولية المثقف التي اشرنا اليه عن «قبوله بما يترتب عليه»، فأن اغراء الماكنة الاستهلاكية قد يطيح بصرح المثقف الصامد. وفي هذا المناخ تلعب الحياة السياسية

المشوِّهة والمشوَّهة (بفتح الواو وكسرها) دوراً مريعاً في غياب (تغييب) أية مرجعية نقدية أو أخلاقية لتترك المثقف مثل ذلك الفنان الذي جلب طبقاً من الفاكهة ليرسمه فاضطر الى أكله لأنه قد يموت جوعاً قبل إتمام لوحته. بمعنى آخر علينا التحسب من «الرهاوة» المفرطة ونحن نفتش أعصاب المثقف وأوراقه، أو ان يغرينا النظر والتنظير بأن نذهب بعيداً في رسم صورة مغايرة للمثقف الذي لا تستقيم سيرته إلاّ بالموت جوعاً أو شنقاً من اجل قضية مقدّسة.

في العراق، وفي سواه من بلدان مشابهة، لم تكتسب الثقافة معناها الشمولي كأستراتيج طويل الأمد، ولم يحظ المثقف بسويّة ثقافية أو اجتماعية تتيح له فرصة للتأمل والاستقراء الضروريين. وحتى لو حمل المثقف السلاح من أجل المساهمة في دفع الجدران العالية لبضع بوصات فانه يسقط مضرجاً بدمه أو متنعماً بترغيب السلطة، وفي الحالتين فقد عُدمنا نحن القراء والمتلقين نشوة التمتع بنتاجه لأنه أسقط مرتين، ولأن المثقف شخص أعزل إلاّ من أفكاره. فأن «الموت» في سبيل هذه الأفكار لَيس حلاً سعيداً لمعضلة الصراع التاريخي ضد سالبي حياته وحريته، رغم انه لا يكف عن معاودة لعبته الجادة في الانخراط مع «حركة الجماهير الكادحة».. وبهذا الانخراط الطوعي أو الاضطراري، الأيديولوجي أو الاخلاقي، سيواجه من الخيبات والمرارة لا تقل مأساوية عما سبق في سياق صراعي متخلّف.

هذا ما يدعوه ادوارد سعيد بـ«قول الحقيقة» عندما يسوق مثالاً من كاتب أمريكي هو س. رايت ميلز، ويتفق معه في أنه «اذا لم يقف المفكر الى جانب قيمة الحقيقة في الصراع السياسي فلن يسعه ان يتعاطى تعاطياً مسؤولاً مع كامل التجربة الحيّة».

مثل هذا الموقف (الوقوف الى جانب قيمة الحقيقة) لا يتجسد إلا بأدوات المثقف: نشاطه الخلاق، لغته الأدائية، ابتكاراته الخاصة. ان «سياسة» شاعر مثل محمد مهدي الجواهري صنو (شاعريته). فالجواهري لم ينخرط تحت راية سواء كان ذلك في السياسة أو في القصيدة. فالحزب الذي انتمى اليه هو «حزبه»، والصحيفة التي عمل فيها هي صحيفته، والقصيدة التي كتبها هي قصيدته. أي - باختصار - هو شاعر لم يُملَ عليه، بل أملى «قيمته الحقيقية» على الآخرين، ولسنا في معرض أين أصاب الشاعر وأين أخطأ.

مرة أخرى، أحب التأكيد، مع محمود صبري، على ما قاله: «إذا أراد المثقف العراقي أن يلعب دوراً كقوة فكريّة - روحية فعّالة في ميدان الصراع السياسي الاجتماعي، فأن عليه ان يدخل هذا الميدان انطلاقاً من مبدأ التكافؤ بين الثقافة والعمل. أي انه ينبغي ان يدخل كقوة فكرية مستقلة (لعله يقصد عن وليس على) الاطار الفكري - الروحي السائد للحاضر. أي ان عليه ان يدخل كقوة ثقافية - فكرية ذات برنامج ثقافي تؤلف السياسة

جانباً منه فقط، وتضم المبدعين من مختلف فروع الفن/ الأدب والعلم بجانبيه الطبيعي والاجتماعي هدفها أن تبلور وتفرض على السياسة رؤيتها المستقبلية لمجتمع جديد.

إن الذي جرى ـ طيلة اكثر من اربعة عقود (أو حوالي نصف القرن) في العراق ـ جعلنا نعتقد ان الانخراط الكلي في السياسة هو خلاصنا الوحيد وكأنها الفعالية البشرية الوحيدة التي تنقذ مجتمعنا من شروره وتخلّفه ودمويته، وجيرّنا كل جهدنا الثقافي لحساب السياسي ومحترفه، مما حرمنا، وحرم شعبنا، من متعة الثقافة وضرورتها وأطاح بنشواتنا الخاصة حيث لا قيمة للفرد.. كل القيمة للجماعة.

أراد منا السياسي ان نكتب مثله، أو ان نكتب نيابة عنه، وصارت استجابتنا الأخلاقية الوسيلة النضالية الوحيدة للتغيير، ولم نكن نفهم ماذا يريد احدنا من الآخر الى الحد الذي اصبح فيه عملنا ـ ككتّاب ـ يملأ صفحات المجلة والجريدة المناضلتين باسماء مستعارة انستنا اسماءنا الصريحة، وازداد «عملنا» الصحفي شبه المجاني وغير المنظور ليفوق في كميته والجهد المبذول والوقت المصروف عليه كل نتاجنا الفردي الخاص، واذ تذهب بقصيدتك الى رئيس التحرير فأنه يطلب منك بدلاً عنها المقالة الصحفية أو التقرير الثقافي، مع علمنا بأن مبرر حياتنا هو النص الأبداعي وليس العمود الصحفي الموقّع باسم مستعار أو بدون اسم، وكأن الكاتب شبح يتخفى وراء كلمات مفيدة (أو غير مفيدة) وليس شخصاً خلاقاً وضرورياً وهو يخوض صراعه الثقافي ـ السياسي بقلمه الذي كان وكأنه يمتلئ بالحبر الأبيض!

قرأت قبل أيام مقابلة مع شاعر كوستاريكا يقول فيها أن تلفزيون الدولة استبدل السلام الجمهوري في ختام البرامج بقصيدة مصوّرة (!) في وقت يريد فيه منا الكثيرون ـ في السلطة وفي المعارضة للأسف ـ ان نكتب على ايقاع السلام الجمهوري وان نستبدل قصيدتنا بالمارش الذي يشيع «الحماس» في خطوات المقاتل.

خلاصة القول: من الضروري التأكيد، بل الشروع في ايجاد صيغة للحوار (اللقاء) حول ثوابت الأستقلال الثقافي والدخول، فعلاً، في الصراع السياسي كطرف متكافئ ووضع الخطوط الأولى لأنشاء منبر ثقافي يستوعب التنوع والأختلاف بعيداً عن أية وصاية ـ مع الحاجة الماسة لدعم مادي من اطراف المعارضة ودون تدخلها بشغلنا ـ وصولاً الى معرفة الذات الثقافية وموقعها ودورها من أي تغيير منشود جنباً الى جنب مع أي جهد نضالي من أجل مستقبل وطني ديمقراطي دستوري للعراق، تكون الثقافة فيه، كالوطن، للجميع.

تصويب واعتذار

وقع العديد من الاخطاء المطبعية المخلة في «بيان المثقف الجديد» للباحث الفنان محمود صبري، وقد نشر في العدد ٢٥٦ تحت عنوان «المثقف والسياسة والاستبداد». ومما يزيدنا اسفاً تعذر تصويبها في العدد ٢٥٧ لأسباب فنية. وإذ نعتذر للكاتب والقراء، نأمل ان يصار الى تصويب تلك الاخطاء المؤسفة.

- هناك أكثر من عشرين عبارة مركبة (مثل الفيزيائي ـ المادي، والفكري ـ الاجتماعي) وقع فيها الخطأ المخلّ بتحويل خط الوصل (ـ) الى نقطة (.).
- الصفحة ٢٧ والسطر ١٤ تقرأ الجملة كما يلي: المثالية غذّت مفهوم أولوية العمل الفكري، المادية، على العكس، غذت مفهوم أولوية العمل المادي/ اليدوي.
- في الصفحة ٢٩ السطر ٧ تحذف كلمة (بين).
- في الصفحة ٣٣ السطر ١٢ تضاف كلمة (إليه) بعد كلمة (تنتمي).
- أما أهم الأخطاء الأخرى فندرجها أدناه:

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٩	٥	ضمن	ضدّ
٢٩	١٧	الفكرين	الفكري
٣٠	١٥	تصبح	يصبح
٣٠	١٤	الاجتماعي	الاجتماعية
٣١	٧	متعددة	متعدد
٣١	٢٧	لعلم	لعالم
٣٢	٢١	الفكرة	الفكر
٣٣	٢١	اللامبارة	اللامبالاة
٣٣	٢٢	نقص	نقض
٣٤	٦	تمثل	مثل
٣٤	٩	العلم	العالم
٣٤	١١	لقوة	كقوة

رحلة الى «المؤتمر الخامس» ومنه

عبد المنعم الأعسم

١ - وصيَّـــة

في طريقي الى (شقلاوة) سألني صديق مشقف أثق بنزاهة سريرته ووجاهة وصدق مرارته، ما إذا - حقاً - أحمل قدرا من التفاؤل بأن «المؤتمر الخامس» سينجح في التغلب على هذا الارث من «الزنجار» والمشكلات والاسئلة المؤجلة، والنزيف، والاستحقاقات، وغياب الثقة، وغارات الاعداء والاصدقاء، ومظاهر الضياع والانكفاء.. و.. ولم اجد جواباً ازاء هذه الجاهزية من الانتباهات غير «حذلقة» صحفية لدفع مثل هذه الحراجة بأن قلبت السؤال نفسه جواباً: إذا لم يكن لدي مثل هذه التفاؤل، لماذا اتجشم عناء السفر كل هذه المسافات؟

تفرس صديقي في وجهي، فيما تخندقتُ في موقعي دفاعاً عن آخر خيط من الضوء في النفق الطويل.. قال فجأة: لا يا صديقي.. لا أنت متفائل، ولا انا.. انك ذاهب الى هناك لتأخذ صورة تذكارية لآخر ما تبقى من (حزبنا) قبل ان ينط هذا الـ(ما تبقى) خارج التاريخ.. «إعترف». ولما لم أعترف، حل صمت ثقيل، قطعه الصديق المثقف بصوت مليء بالرجاء كأنه يملي عليّ رسالة وجدانية: قلْ لهم، أرجوك.. قل لهم: جددوا الحزب.. لا تشمتوا «الرايح والجاي» فينا.. ولا تشمتوا القتلة والمقطوعين (الاصدقاء) فينا.. حولوا الحزب الى كائن محتمل.. الى كائن يحتملنا.. الى قارب للنجاة نصل به مع احلام الشعب وأوراقنا واغانينا الى الضفة الأخرى.

قلت لصديقي: ها انت مثلي تدق باب المؤتمر. ومثلي تنتظر من المؤتمر شيئاً.. وكلانا، بهذا المعنى، متفائلان.
وأمام المؤتمر الوطني الخامس للحزب الشيوعي العراقي، خاطبت المندوبين بكلمات وصوت استعرتهما من كلمات وصوت صديقي المثقف البعيد، قلت: ارجوكم، أيها الرفاق.. بعرضكم.. جددوا الحزب. لا تخيبوا امل هذا الضمير النزيه. لا تخيبوا أمل الشيوعيين الذين ينظرون الى مؤتمركم بالكثير من الأمل.

٢- أنوار شقلاوة

كان الطريق الى (شقلاوة)، الخميس، السابع من تشرين الثاني ١٩٩٣ يتلوى تحت شمس «العصرية» العراقية الاليفة.. إنهاكردستان: أحداث. أشجار بلوط. أسماء. شلالات. رؤوس جبال لامعة. فتيات على نبع الماء. آثار قصف. جنود الحكومة الاقليمية يحرسون مداخل المدن وخطوط المواجهة. عيون مليئة بالترقب. وسيارة (برازيلي) تقطع المسافات تقل مندوبين لمؤتمر الحزب الشيوعي العراقي، وتقضي بإحتراس شديد، حال احتراس كل ما يحيطها.
من (سميل) في المنطقة المحررة بانت مداخن (عين زالة) القريبة من الموصل على «الجهة» الثانية، كما ارتفعت مآذن قرى متناثرة على طول الطريق. في مشارف (دهوك) كانت طلائع (الاعتصام الشعبي) تستضيف المارة وتقوم بعرض شروطها لفتح الطريق امام شاحنات البضائع المتوجهة الى «مناطق السلطة» وهي اعادة التيار الكهربائي الى المدينة. ثمة مئات من النساء والاطفال والرجال والشباب ينتشرون في موقع الاعتصام، وثمة عشرات اللافتات بلغات كردية وعربية وانكليزية تناشد الأمم المتحدة التدخل لثني حكومة بغداد عن مواصلة قطع النور عن المدينة الصابرة.
ومن دهوك الى عقرة: سطوح بيوت من الحجر تلّوح بشراشف ملوّنة للرياح والمارة، وقطعان من الماعز تنتشر ما بين أخاديد خريفية حائلة، واشجار متطامنة ومحترسة هي الأخرى، وانوار فوانيس تومض بعناد وصبر، و(كاكة عبد الله) السائق يطمئن ركابه، مندوبي المؤتمر الخامس، الى ان المسافة الى شقلاوة قصيرة و.. ليس سوى «شمرة عصا».. ولا يوقف استطراده الاليف غير علامة القوة الكردستانية بالتوقف:
- الى اين؟
- الى شقلاوة..
- اهلاً وسهلاً بكم. هل يلزمكم شيء..

- سلامتكم.. شكراً
- تفضلوا.. أمامكم حوالي ثلاث ساعات.

إبتسم لنا (كاكة عبد الله) عندما فضحه جندي الحكومة الكردية، ولكه عاد - تحت لجاجتنا بالسؤال عما تبقى من الطريق - الى لهجة التطمين: تلك هي أنوار شقلاوة.

لم تكن انوارا، ولم تكن شقلاوة، وتبددت رغبتنا في السؤال مستسلمين لحكمة الاكراد الازلية في استسهال مشاق السير عبر المجاهل الى موضع يسعون اليه.

بعد عشر ساعات من السفر، مدّت شقلاوة رأسها من بين ازدحام الاشجار والجبال، وظهرت في قلادة من الأنوار وانسياب الدروب.. وفيها سنقيم، وسينعقد المؤتمر.

٣- تداعيات في الطريق إلى السليمانية

ما دام امام انعقاد المؤتمر بعد بضعة ايام، فقد تقرر تنظيم «رحلة» للمندوبين «الغرباء» الى محافظة السليمانية.. ولكن عبثاً ذهبت محاولة انتزاعنا من ضغط المناسبة و«المهمة» التي جئنا في سبيلها.. ومن مشاعر وهواجس وظنون تسبق عادة أي حدث من مثل انعقاد مؤتمر مصيري لحزب هو واحد من الحقائق السياسية والتاريخية للعراق الحديث.

في ذلك الصباح كانت شقلاوة قد خرجت الى الشوارع في تظاهرات متصلة لإستقبال رفات الزعيم الوطني الكردي الملا مطصفى البارزاني حيث جرى نقله من الاراضي الايرانية الى مسقط رأسه في (بارزان) شمال غرب كردستان. مرّ النعش الموشي بالمئزر الكردي وباقات «الياس» والاغصان والورود في شوارع المدينة تتبعه مئات السيارات، وتظاهرة من الاف المواطنين كانت ترافق الموكب من الحدود في هتافات متواصلة: البارزاني لم يمت. الكرد لن يموتوا. اهلا بأبن كردستان. اهلا بقائد الثورة...

وفي ذلك الصباح سرت خيبة امل سريّة بين البعض ممن طالع ما نشرته جريدة محلية للحزب من مخاوف مبكرة ازاء قدرة هذا المؤتمر على الإجابة عن اسئلة معقدة.. وقالت: «من الصعب ان ننتظر من المؤتمر الاجوبة الشافية لكل التعقيدات.. التي تواجه حزبنا.. لذا فان مهمة مؤتمرنا هي تناول القضايا الناضجة.. وترك القضايا العقدية الى المستقبل».

إذن نحن امام اول معبر الى الاخفاق: سنفوّض المستقبل بالتفكير نيابة عنا، والبحث عن إجابات على ما يشغلنا.

ثم.. ما هي القضايا الناضجة؟ وما هي تلك غير الناضجة؟

حين صعدنا (الباص) كنا «ملضومين» جميعاً في منلوج واحد هو الحزب، وفي خيط طويل من الاسئلة الحائرة: من اين نمسك بحائطه؟ من اية حلقة نأخذه الى الشاطئ؟ على

اية سكة نضعه؟ ماذا بشأن القيادة الجديدة؟ هل ثمة حقاً ما يمكن إصلاحه؟ هل ستتاح رؤية الثقوب؟ هل ستعم الصراحة؟ اين هو مشروع التقرير.. اين هو مشروع البرنامج؟ هل سنعقد مؤتمرا سرياً؟ هل ثمة كواليس؟ هل ثمة انشقاق؟

وبينما «داخ» الكثير منا، مع نفسه أو مع آخرين، في إجابات هي اقرب الى التهويمات ـ وفي احسن الاحوال الى الفرضيات نط الباص الى مرتفع حاد متحاملا على استحالة الصعود.. تمايل.. حرن.. ثم نط مرة، وأخرى.. وسرعان ما سقط حالنا.. حال الحزب.. حال المؤتمر، على حال الباص وهو «يعتعت ويتأرجح بين الانكفاء الى الوادي وبين الاستواء والمضي. وقد استهل (الاسقاط) علنا بتعليق من رفيق كان لصق السائق بقوله حين انحرف الباص عن مساره: الانحرافات خطرة، وربما تؤدي الى ضياع كل شيء. ثم سكت ليتابع وجاهة ملاحظته في العيون التي ردّت بالغمز، وبالموافقة.

وتشاء السيارة وهي تقطع المجهول انْ تكرس فينا الالتباس بين ما هو «انتقال» الى مدينة أخرى هي السليمانية، وما هو رحيل.. وقد بدا ان طائفة من الاعتبارات والتقاليد و«الضوابط» المتوارثة عن الماضي آيلة للوقوف على الحياد ازاء مجابهات ودوّامات مع الاسئلة ومع النفس.

وإذْ توقفت السيارة، فجأة، في مشارف (دوكان) بسبب عطل مفاجئ هتف قائد الرحلة بصرامة حزبية قاطعة: رفاق.. إنزلوا... (هسه لازم تدفع). علق ابو عادل الشايب بتذمر له لون المزاج: (جبناها دفع من يومها). نزل الجميع.. دفعوا دون تذمر. وللحظات حلت مشغولية واحدة ملحة محل كل المشغوليات: ان يتحرك الباص. تحرك الباص، فتحركت الافكار والتداعيات: المؤتمر. الحزب. التجديد. القيادة. الداخل. وتداخلَ الجدّ بالمزاح بالغناء بالذكريات بالمرارات، بمخاوف من ان يتوقف الباص مرة أخرى، بالمناقشات: كان على الحزب ان يتخذ احتياطات للطوارئ. لقد تصرفنا مع القتلة بحسن ظن مسيحي، ومع ابناء الحزب بغلظة وسوء ظن، ومع الاصدقاء بتابعية، ومع الحلفاء بدون اية صراحة.. كنا مفرطي الطيبة و(مكّاريد).

حرن الباص مجددا.. اندلع الاسف على وجهي قائدي الرحلة والباص معا، ثم انتقلت همسة مقلقة سريعة من أول الكراسي حتى بلغت آخرها.. كبرت ثم انقذفت بوجه الجميع: (بنجر) في العجلة الخلفية وليس هناك (سبير).

انصرف الركّاب الى مناقشة الممكنات.. وفن الممكن.. و«خارج الممكن تبدأ المغامرة».. وعندما انتصف النهار انحرفت المناقشات الى اهمية «الممارسة» في ظروف معقدة مثل التي توقف فيها الباص قبل ان يبلغ هدفه.. آنذاك ذكرّنا رفيق أن غرامشي يقول بهذا الصدد.. «الماركسية فلسفة الممارسة».. وراح الكثيرون يحللون أزمة السيارة

على خلفية أزمة الحزب: «نضع الخطط بعيدا عن الممارسة ومن غير الاخذ بالاعتبار احتمالات الواقع».. ونحت المداخلات الى الواقعية، وشددت على أهمية تحليل الواقع، ولكنها لم تراع «ترابط وحدات التحليل» فالواقعية منهج ومفهوم شامل.. فلا يصح أن تكون واقعياً هنا، في الموقف من الفئات الكردية، وأن تبقى لفظياً هناك، في الموقف مع التحالفات، مثلا.. علينا ان نتخلى عن نزعة إلقاء الدروس على الآخرين.. «هيا أيها الرفاق.. لنقطع الطريق مشياً» قال «نصير سابق».. رد آخر باستنكار: «ماذا حدث؟ لماذا الهلع؟.. الحل بسيط، وكردستان الآن غير كردستان الثمانينات، وسيجري تأمين واسطة نقل بديلة.. هذا ما قررته القيادة».

ـ أية قيادة هذه التي لا تحسب للظروف حسابها، ولا تتأكد من وجود الـ(سبير)؟

ـ قل ذلك في المؤتمر.

في السليمانية تقلص عن إرشادات الحذر الكثير من «رفاق الخارج» وبخاصة اولئك الذين باعدت بينهم وبين الوطن سنوات طويلة، فاتحدوا بالمشهد الشعبي وتحدثوا مع المارة وتداخلوا مع الباعة والمواطنين في حوارات: كان مهرجاناً عراقياً شعبياً من الدكاكين والبشر، وسيارات الأجرة، والنساء اللواتي يجرجرن أطفالهن، وعربات الباعة المتجولين، ونداءات اصحاب الخضرة والمطاعم، وأكشاك بيع الكتب وصور الممثلات والساسة، وبوسترات الدعاية للافلام الهندية.. وقد استعجل احد الرفاق توليف مفهوم اجتماعي عاجل عن «ديالكتيك العمليات الاجتماعية» يقوم على استبعاد «الصراع الطبقي» كعامل في حركة المجتمع، وأحل محله مفهوم «المفاتيح الاجتماعية».. دافع عنه بلجاجة دون ان يثير اهتمام احد.. حاول أحدهم ثنيه عن المواصلة بالقول: أقترح ان تكتب ذلك في مقال لـ«الثقافة الجديدة».

كانت السليمانية التي تترامى بين سلسلة من الجبال المتطامنة تسترخي في ذلك اليوم تحت هالة ضوئية صافية.. وكان مندوبو المؤتمر الخامس يشاغلون مشاعر متضاربة لكي ترقى الى هذا الاسترخاء الموحي، ويبذلون جهوداً فائضة لتحرير ذواتهم من أسر المؤتمر ومناخ الجدالات والترقب، ومن لجاجة الذاكرة المتداعية الى ستوكهولم أو ديترويت أو طرابلس أو لندن أو عدن أو موسكو أو كوبنهاكن أو دمشق أو صوفيا أو بودابست.. وفيما هم يتهجون حروف المشهد وخيوطه جاء الليل «كجلمود صخر حطه السيل من عل» فهرعت السليمانية الى متراس الحيطة والحذر، ولملمت، على عجل، صحافتها المتناثرة التي كانت ـ طيلة النهار ـ تحرض المواطنين على الدفاع عن التجربة بلهجات ومفردات متنوعة ومن خلال دعايات فئوية تثير ـ احياناً ـ الهلع.. وجاء موعد المدينة مع الاذاعات ومحطات التلفزيون المحلية، حيث تسابقت الاحزاب الى اختبار قدرة خطابها على

استقطاب الجمهور، وعلى رسم صورة المخاطر التي تتعرض لها تجربة الادارة المستقلة في كرستان، وعلى تجهيز الوعي الشعبي بمواجهة التحديات.

أما نحن فقد استرشدنا بملاحظات الفنان (بروا) المسؤول عن «محطة» تلفزيون (آزادي) الى ملامح الخلل في إعلام الحزب التلفزيوني والى ملامح العوز الفني والمالي، وملامح الاصرار الباهر من أجل ايصال «صورة» الحزب الى كل بيت في السليمانية.. وسرعان ما خوّضنا في وحل التنبؤات لما تنتظره التجربة الكردستانية، وسرعان ما دعانا داع للعودة الى الكراريس «النظرية» التي بسّطت كل شيء، وبرعت في تعليق الاحداث المعقدة ـ من رجليها ـ على حبل الحتميات:

ـ علينا ان لا نكتفي بقذف الكراريس من النوافذ، بل ينبغي حرقها.

ـ خليها بدفاعك.

ـ ماذا تقصد؟

ـ خليها للمؤتمر.

٤- هيبة العبور ومهابة الصف الأول

١٢ تشرين الأول.

الساعة الرابعة.

الفندق السياحي. شقلاوة.

وجوه لفحتها الرياح، وتركت عليها السنوات المضنية أخاديد عميقة..

عيون تتفرس في بعضها لعلها تهتدي الى المناسبة التي جمعت أصحابها، وحوارات وأسئلة هامسة تختزل مشاوير العمر والحزب وعقود النضال: أين رأيتك ـ يا رفيق ـ سابقاً؟/في المؤتمر الثاني؟/ لا في الثالث./آسف ـ رفيقة ـ لا أعرف اسمك الصريح./ لا يهم/ أنا اعرفك/ ألم نكن في سجن السلمان قبل ثلاثين سنة؟/ ربما/ ماذا حل بسوق الاسترابادي؟/ ما زال، وقبل شهر كنت أتجول فيه./ ما هي أخبار أم سعد؟/ توفت في بغداد قبل عام، وكانت مع الحزب حتى آخر يوم من عمرها/ أليس ذلك الرفيق ابو حسين؟/ يشبهه./ هل تتذكر أيام بهدينان؟/ وهل أنساها؟/ ما حال ابنتك الصغيرة التي كانت تشاكسني ايام الاختفاء؟/ تزوجت، ولديها بنتان وولد./ هل تعرف أبو لامي؟/ نعم، اعرفه.. لقد ترك الحزب../ وأبو ناجية؟/ تركه، ايضاً/ وأم قصي؟/ أيضاً./ وأخوها؟/ معتقل./ وسامي؟/ قتل في الحرب/ ونداء؟/ أعتقد.. أعدمت...

وفيما تطايرت شظايا الوشوشات وراحت الوجوه تقترب من بعضها اكثر فأكثر، كانت

المدن العراقية تعلن، في تلك اللحظات المهيبة، عن حضورها في الملامح واللهجات، فتستدلّ الى بغداد والى البصرة، والعمارة، والنجف، والحلة، والناصرية، وأربيل، والموصل، والديوانية.. ويندلع بكاء.. وتنهمر دموع.. ويحضن شيوخ بعضهم.. وتختلط حسرات التضحيات والخسائر بمسرات اللقاء والامل: شيوعيون من كل مكان.. من شعاب متباعدة، من أقصى القطب الشمالي حتى عدن في أقصى الجنوب.. من الداخل، ومن كردستان، ومن الخارج.. ومن أجيال مختلفة؟

ذلك «الشيخ» زكي خيري.. أكبر المندوبين سناً، وأكثرهم - بلا منافس - عمراً في حياة الحزب وامتيازاً في المشاركة بمعاركه، وهو لا يكتفي هنا بالحضور بل يحمل اوراقه، ويعقّب، وينتقل من هنا الى هناك. وتلك هي الدكتورة نزيهة الدليمي في بهو الانتظار، تتحدث الى حلقة المندوبين الشباب بصوت عال: «نعم، أعرف ان هناك صعوبات.. ومتى لم يواجه الشيوعيون صعوبات؟» وذلك كريم أحمد يرد باقتضاب: «الدكتاتورية تترنح». وتلك زوجة الشهيد ابو نصير تطالع شعار المؤتمر وصور الشهداء. وهنا مجموعة ممن انخرطوا في تجربة الانصار وقد تحلقوا حول (مام صالح) لاستذكار الماضي.. ومن بعيد يبدو الرفيق عزيز محمد يتوسط مناضلين اصطفوا على خط مستقيم لأخذ صورة تذكارية وهو يمازح الجميع بالقول: «إنها صورة الوداع».

وقبيل ان تفتح باب القاعة أخذ حراس المؤتمر الخامس مواقعهم ودقق مسؤولوهم هويات المندوبين.. ثم أذنوا بالبدء.

دخلنا.. كان للمندوبين حق اختيار المكان.. أي مكان.. وحين بدأت اعمال المؤتمر كان الصف الأول من الكراسي خالياً.

٥- ما لم تذكره الكراريس

من أين؟ الى أين/ ماذا؟ من المسؤول؟ متى؟.. كل مندوب كان معبأ بالاسئلة وعلامات الاستفهام: «إطلاق الاسئلة امر بسيط، أيها الرفاق». قال رفيق من على المنصة، وأضاف، «لكن المشكلة في الأجوبة.. علينا جميعا ان نتكفل ونبحث عن الأجوبة».

- هذا تعويم للمسؤولية.

- حسنا.. نواصل.

ما هي الحلقة الرئيسية في عملية إصلاح الحزب ومعافاته؟ ومن أين نمسك بها؟ القيادة، أم الفكر، أم السياسة، أم التنظيم؟

- أيها الرفاق، وصلت الى المؤتمر تحية من الشاعر العراقي الكبير سعدي يوسف..

(تصفيق).. وأخرى من الفنانة الكبيرة زينب (تصفيق) ورسائل من فؤاد سالم وإبراهيم الحريري و.. و.. (تصفيق متواصل).

ومضت الأيام، أفقياً، من حيث انزلاق المناقشات الى حوافي الاسئلة، وعمودياً، من حيث اندفاعها الى قلب تلك الاسئلة. وفي كل يوم يتوالد مبرر ان ينهض الحزب وان يتواصل - في الأقل - بجانب هواجس ومرارات مفتوحة على الانكفاء.. وكثيراً ما جنحت الملاسنات الى نقطة الحيرة والانشقاق.. وكثيراً ما هبت نسائم العافية ونداءات العقل وأعادت السفينة الى مؤشر الهدف: فخيط الدم يتشكل على هيئة سؤال آخر: أي مذبحة تنتظر شعبنا إذا استمرت الدكتاتورية في الحكم.. وإذا تحولنا الى دكاكين، وتخلينا عن ساحة النضال؟ وما الضير في اننا نختلف حول هذه أو تلك من الموجبات، فيما نعمل بإطار برنامج واحد لا يشترط ان يحظى بإجماعنا.. أليس ذلك، بالتحديد، اختبار لدمقرطة الحزب.. وفرصة لتأسيس تقاليد ديمقراطية صحية في الحياة السياسية العراقية التي تعيش مخاض البدائل عن النظام الدكتاتوري العائلي المناهض لقيم وحق الانسان بالتفكير؟

في اليوم الرابع عشر، يبدو ان «المؤتمر الخامس» شق الاساس في (وحدة إرادة) جديدة للشيوعيين العراقيين. وحدة يصعب ان نجد تعريفاً لها في «كراريس» المدارس الحزبية.. أو في تجارب الماضي، ولكن من السهل ان نرصدها في الواقع وفي صورة المستقبل.

في ذلك اليوم.. وفي لحظات ألتقت عندها ستة عقود من الزمن، وقف الرفيق عزيز محمد، في شفافية من التواضع الشيوعي، وفي أنصاف للنفس لا حدود لصدقه ليقول:

«نحن لا ننفع للقيادة، أيها الرفاق، ربما لأننا مشدودون للماضي».

رسالة إلى المؤتمر الخامس

إبراهيم الحريري

الرفاق الاعزاء

تحية قلبية

يتيح لي انعقاد مؤتمركم فرصة أخرى لاستعراض علاقتي بالحزب، ولتأملها. وإذ افعل ذلك، كما فعلت أكثر من مرّة، لكن من بعيد هذه المرّة، اجد، كرّة أخرى، انني مدين للحزب وللشيوعية بأفضل ما فيّ. لقد قادني الحزب الى اعمق اعماق العراق، وساعدني على تلمّس اجمل ما فيه، طيبة ناسه، اغانيهم وآمالهم وإحلامهم وتراثهم، هذه التي ترافقتني، مثل التميمة، في الحلّ والترحال. لقد اضفت هذه العلاقة على وجودي هذا الطابع الشمولي، فاذا بي جزء من حركة عظيمة تستلهم، رغم كل اخطائها وسقطاتها، مُثل الحرية والعدل، وتستفزها معارك الكادحين والاحرار في كل مكان.

لطالما وجدت في علاقتي بالحزب وبالشيوعية ما يغذي نزوعي الأصيل وانحيازي المبكر الى صف المظلومين والمضطهَدين.

وإذ استعرض الآن، ومن بعيد، هذه العلاقة، لا أحسّ بالندم ولا بالمرارة، برغم كل ما قاسيته وما أزال (ولعل افظعه بعدي عنكم وعن العراق) من الاعداء، وحتى من الاصدقاء، احياناً، وبرغم كل ما شاب علاقتي بكم من نأي حيناً، ومن فتور أو توتر أو سوء فهم حيناً، اتحمل في كل ذلك قسطاً لا انكره.

لكني ـ لا اكتمكم ـ أحس للمرّة الأولى بالقلق على مصير العراق وعلى مصير الحزب في آن.

لطالما تعرض العراق في تاريخه الحديث للأزمات، وإذا كانت الدولة وانظمتها المختلفة تتفسخ، كان نقيضها، وفي القلب منه الحزب، يلعب، بما يمثله من مشروع مستقبلي دور أداة توحيد للعراق يحفظ له تماسكه، حتى لو بقدر.

لكنه للمرة الأولى يغيب، غياباً بالغ الخطورة، مركز الجذب في حياة العراقيين، وتنحدر الدولة ونقيضها، المعارضة، ومعهما العراق بأسره، الى مهاوي التفتت والضياع.

ولم ينشأ هذا الوضع بسبب أزمة النظام، حسب، بل أيضاً بسبب أزمة المعارضة بكل فصائلها، بما فيها الحزب.

لا أريد ان اخوض كثيراً في اسباب أزمة الحزب، فقد كتب عن ذلك الكثير، وبأمكان المرء ان يضيف ما شاء له اجتهاده من اسباب ذاتية وموضوعية، لكن ذلك لن يغير من الأمر كثيراً، «فالمهم ليس تفسير العالم» كما كتب ماركس «بل تغييره». المهم الآن، اكتشاف طريق النهوض، نهوض الحزب ونهوض الوطن، في آن، ولا يبدو ذلك ممكناً الا باطلاق طاقات الدراسة والحوار، داخل الحزب وخارجه، الا باعتماد البحث المضني بدل الشعار السهل الجاهز، الا بالاستعاضة عن الاجابات بالاسئلة، ما اكثرها!

وإذ تتعدد الطرق وتتباين المسالك، وبينها من يرهن مستقبل العراق للشركات متعددة الجنسية ويعادل بين الديمقراطية وبين التغريب والأمركة، فانه يبدو ملحاً، أكثر من أي وقت آخر، الشروع في تكوين تحالف عريض لليسار والديمقراطية والتقدم، يعدّل ميزان القوى داخل المعارضة وداخل العراق، ويشكل مركز جذب حقيقي فعّال، يستنهض همم العراقيين، ويؤثر على مشروع البديل.

ولا اكتمكم، أيها الرفاق، انني لم اعد مشدوداً كثيراً لصيغة الحزب اللينيني رغم ان الواقع العراقي ما يزال يغذيها، فانا ارى المستقبل لتحالف يساري عريض يضم كل قوى الديمقراطية والتقدم والاشتراكية، أو اكثرها حيوية وفاعلية، ويمكن للحزب – بل يتحتم عليه – ان يمهّد لاقامة هذا التحالف، ومنذ الان، بالاتصالات وبالدراسات، وبالمساعدة على تكوين الرؤية الستراتيجية الضرورية. وهذا لا يعني، بالطبع، انني ادعو الى حلّ الحزب، الآن، فهذا عدا عن كونه غير واقعي، غير ممكن، فأنه خاطئ وضار، بل سيكون ضرباً من العدمية، في وقت لم تنشأ فيه، بعد، الظروف الموضوعية لنشوء هذا التحالف لكنه يمكن للحزب ان يلعب دوراً طليعياً في اقامة مثل هذا التحالف، اذا امتلك الرؤية والادوات، أو سعى الى امتلاكها، اذا استشرف هذا الأفق الرحب العريض، اذا سار نحوه من دون عُقد، دون توجس، اذا ساعد الآخرين على اكتشافه ورؤيته والسير نحوه.

في هذا، وليس في ازاحة هذا القائد أو ذاك، أو حتى الطاقم القيادي بكامله، يكمن جوهر التجديد، كما اراه.

ومع انني اتمنى لمؤتمركم النجاح في تحقيق شعاره المركزي، تجديد الوطن.. تجديد الحزب، الا انني اعتقد انه ما يزال بينه وبين ذلك الكثير الكثير، وانه ما يزال عليه ان يمتلك الرؤية والادوات وانه ما يزال أمامه ان يطلق ويحفّز طاقة البحث والدراسة، داخل الحزب وخارجه، لصياغة مشروع المستقبل، مشروع النهوض والتجديد للوطن وللحزب.

لقد مثّل الحزب الأمل في منعطفات خطيرة من تاريخ العراق المعاصر، وإذ تشتد الحاجة الآن الى اعادة صياغة الأمل، فانه لا يمكن الهرب من هذه المهمة بالاختباء وراء خطاب الماضي، رغم رومانسيته والذكريات العذبة البطولية التي يستثيرها.

فهل سيكون ما يشدنا الى الحزب، حزبيين وغير حزبيين، ذكريات الماضي الجميل وخطابه فقط، أم مشروع المستقبل ايضاً؟

هذا هو السؤال المطروح عليكم، بشكل خاص، وانني لأتمنى لكم، من اعماق القلب، ان تنجحوا في الاجابة عليه، أو على الأقل ان تخطوا حتى لو خطوة واحدة، على طريق المستقبل الذي اراه، على البعد، ورغم البعد، رغم كل شيء، منوّراً مضيئاً.

ليس من اجلكم فقط، ليس من اجل الحزب، بل من اجل العراق والعراقيين، اولئك الذين يحتضرون داخل الوطن، ويذوون بعيداً عنه.

من اجل هذا أمدّ لكم، ولكل قوى التجديد والنهوض، رغم البعد، يدي، التي رغم ما قد يكون انتابها من ضعف وعدم ثبات، الا انها ما تزال تبحث عن اياديكم، ترتعش بالمحبة وتحاول ان تحتضن الأمل، وان تتلمس، رغم العتمة الحالكة، الضوء!

ولكم محبتي

كندا

١٠ تشرين الأول/اكتوبر ١٩٩٣

ندوة

حقوق الإنسان في العراق

أقامت رابطة المثقفين الديمقراطيين العراقيين (فرع سوريا) والمنتدى الثقافي العراقي أمسية عن حقوق الإنسان في العراق، عشية الذكرى ٤٧ لاعلان ميثاق حقوق الإنسان، شارك فيها د. **أحمد الموسوي** رئيس لجنة حقوق الإنسان في العراق، ود. **حامد أيوب** الباحث القانوني.

ومما قال د. أحمد الموسوي: بودي ان أستعرض نبذة مختصرة عن ميثاق حقوق الانسان، فهو اعلان اقرته الجمعية العمومية للأمم المتحدة في ١٠/كانون الأول/١٩٤٨، بعد قيام منظمة الأمم المتحدة بثلاث سنوات، وذلك بسبب الانتهاكات الفضّة التي تعرضت لها البشرية من قبل النازية قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية. وبعدها اهتم المجتمع الدولي بالحقوق المدنية والسياسية والاقتصادية للإنسان، وقد تم اعداد وثيقة تتعلق بهذه الحقوق والضمانات. وقد نشرت أول وثيقة للاعلان العالمي لحقوق الانسان من قبل الأمم المتحدة، وتعتبر وثيقة تاريخية هامة، وتضمنت حوالي (٣٠) مادة تشمل كافة الحقوق، بيد ان الاعلان ذاته ليس له صفة الالزام، كالاتفاقات الدولية. فالوثيقة اعتمدت من قبل الجمعية العمومية التي كانت تضم (٦١) دولة، وأهميتها تكمن في ان غالبية الدول ضمنت هذه الوثيقة أو بنوداً فيها في دساتيرها. وفي ١٤/١٢/١٩٥٠، أقرت

الجمعية العمومية هذا اليوم ليكون يوماً لحقوق الانسان يحتفل به عالمياً. وبالنسبة لنا كلجنة لحقوق الانسان في العراق، فقد كنا نصدر بيانات بالمناسبة، ونشرتنا الدورية تشير لذلك ايضاً. ونرى ان العديد من دول العالم، بمن فيها دول العالم الثالث قد اهتمت بهذه الحقوق، ثم اصدرت الجمعية العامة اتفاقيتين مهمتين جداً هما:

- العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية.
- العهد الدولي الخاص بالحقوق الثقافية والاقتصادية والاجتماعية وقد اقرتا عام ١٩٦٦، وصادقت عليهما كافة دول العالم، وبضمنها العراق سنة ١٩٧١!! ويعتبر الاعلان وهاتان الوثيقتان الشرعة الدولية لحقوق الانسان. لهما صفة ألزامية لكافة الدول الاعضاء للتقيد بنصوصها. كذلك هناك العديد من الاتفاقات المتعلقة بحقوق الانسان سواء في اطار الأمم المتحدة أو المنظمات غير الحكومية. وقد ساهمت هذه الاتفاقات في ترسيخ وتدعيم مفهوم حقوق الانسان، وشجعت الكثير من المنظمات لانشاء هيئات تعنى بحقوق الانسان، فضلاً عن الاعلانات التي اختصت بحقوق المرأة وحقوق الطفل. وعند مراجعتنا للعهود الدولية، نرى انها تشمل كل الحقوق، واوسع كثيراً من مواد الميثاق.

وفي المجال الاقليمي أنشئت منظمات عديدة تعنى بحقوق الانسان، فهناك مثلاً الاتفاقية الاوروبية لحقوق الانسان لسنة ١٩٥٠ والاتفاقية الامريكية (١٩٦٨) واتفاقية حقوق الانسان الافريقية (١٩٨١). والغريب انه لحد الان لا توجد اتفاقية عربية لحقوق الانسان! هناك فقط في اطار الجامعة العربية لجنة دائمة لحقوق الانسان شكلت عام ١٩٦٨، وهناك مشروع مقترح لميثاق عربي أعده معهد (ستلدرزو) في ايطاليا..!؟

وفي الاطار غير الحكومي انبثقت المنظمة العربية لحقوق الانسان عام ١٩٨٣، وتضم شخصيات ورجال فكر وقانون ومقرها القاهرة ولها فرعان في النمسا وانكلترا، وفي النية تشكيل فرع لها في الاردن، ويمكن تسميتها منظمة عربية. وهناك الرابطة الجزائرية والتونسية والسودانية.

أما في العراق، فنحن متأخرون في الاهتمام بهذا المجال.. ونرجو ان يكون هذا اللقاء إيذاناً للبدء بهذا الشأن. ونحن حصراً شكلنا لجنتنا في ١٩٨٨ واصدرنا البيان التأسيسي..

والعراق، رغم عراقته بالتنظيمات السياسية، لم يكن فيه اهتمام بحقوق الانسان، ونجد ان غالبية بيانات هذه التنظيمات والاحزاب خالية من الاشارة الى حقوق الانسان، وبدأ الاهتمام متأخراً بهذه القضية المهمة، مع موجة الاهتمام بحقوق الانسان، وصون كرامته وحريته. وهنا أشير للمؤتمر الخامس للحزب الشيوعي العراقي الذي ضمن وثائقه البرنامجية ثمانية أو عشرة قرارات متعلقة بحقوق الانسان، وهذا مؤشر ايجابي بهذا

الاتجاه، واحزابنا يجب ان تواكب موجة التطورات في العالم، فالانسان بلا حرية ولا كرامة لا يستطيع العطاء. ومهمة احزابنا الوطنية يجب ان تنصّب على توعية افرادها، عن كم من الحقوق لها، وما هي الواجبات الملقاة على عاتقها، كذلك توعية عناصرها بضرورة احترام الرأي الآخر، وحرية المعتقد والدين وحريات أخرى عديدة ينبغي احترامها والدفاع عنها. لذا أرى من الضروري الاهتمام بهذا الجانب وانشاء المزيد من المنظمات. وقد قدمنا مذكرة الى اتحاد المحامين العرب عام ١٩٨٩ لانشاء مثل هذه المنظمة، فنحن نسعى لتنظيمات عراقية لتشكيل حالة عامة لابراز انتهاكات حقوق الانسان في العراق وحجمها وحجم خروقات النظام، اذ ان هناك نقاط ألتقاء عديدة حتى مع من نختلف معهم، كون حقوق الانسان قضية عامة، واهدافنا مشتركة ومبادؤنا موحدة. ونعتقد ان هناك تقصيراً من قبلنا، ولكن، وبرغم دورنا البسيط استطعنا الحصول على مذكرات ومناشدات بهذا الخصوص، ونسعى جاهدين لتفعيل عمل لجنتنا.

ثم أعقبه د. حامد أيوب، ومما قاله: قبل أيام بحثت احدى اللجان الاختصاصية التابعة للأمم المتحدة اوضاع حقوق الانسان في العالم، فخرجت بقرارات وتوصيات لادانة انتهاكات حقوق الانسان في بعض الدول، وكان في قائمة هذه الدول، العراق والسودان وغيرهما. وفي حيثيات قرار هذه اللجان، جاء «ان العراق مارس انتهاكات، ابشع مما في غيره من الدول الأخرى». وهذا توثيق دولي جديد لانتهاك النظام الدكتاتوري لحقوق الانسان. كذلك صدر عن احدى المنظمات الانسانية قبل سنتين تقريباً مخطط بيان عن تعامل الحكومات مع الانسان من حيث الحقوق الممنوحة له، فكان العراق في ذيل دول العالم، بينما احتلت السويد مكان الصدارة. وهذه الحقيقة يدركها العراقيون اكثر من غيرهم. فللأسف نرى ان بعض الدول والأحزاب في الوطن العربي، ترى نظام صام حسين، نظاماً وطنياً معادياً للامبريالية، رغم بشاعة الممارسات التي لجأ اليها النظام ضد الانسان العراقي منذ ان تسلم هؤلاء دست الحكم في العراق.

ليس غريباً أيضاً، ان أول قرار لمجلس الأمن الدولي في تاريخه يخص حقوق الانسان انما صدر بشأن العراق. وهو القرار رقم (٦٨٨) الذي ادان ممارسات النظام ضد شعبنا وطالبه بالامتناع عن هذه الممارسات. ولكن هذا القرار الذي اتخذ صفة التوصية، وهي غير ملزمة كما نعلم، لم يردع سلطات النظام عن ممارسة أساليبها السابقة حتى يومنا هذا، فرغم العقوبات والاحتجاجات والتوصيات والفعاليات المضادة استمر النظام في ممارسة ابشع انواع التعذيب الجسدي والنفسي والقتل الجماعي، وغيرها من اساليبه الهمجية.

ومن الامور ذات الدلالة في هذا المجال، ان النظام حاول اخيراً، من اجل انهاء العقوبات الاقتصادية، الايحاء بانه يحمي حقوق الانسان ويضمن الحريات الاساسية

للانسان العراقي، وهذا جزء من الحملة الدعائية التي لجأ اليها من اجل تحسين صورته امام انظار العالم. واستطيع القول ان اعلامنا كمعارضة عراقية لما يزل متخلفاً مقارنة حتى مع اعلام النظام، ولم يتكفل بشكل جيد بعكس الصورة الحقيقية لما يعانيه الفرد العراقي تحت ضغط وسطوة هذا النظام الدموي.

من هذا نخلص الى ان مسألة حقوق الانسان اليوم غدت قضية الساعة وتأخذ حيزاً ليس فقط من نشاط الأمم المتحدة، بل من نشاط دول ومنظمات حكومية وغيرها وبأعداد كبيرة، نظراً للاهمية الكبيرة، التي تمثلها قيمة الانسان وحقوقه وحرياته الاساسية التي ضمنتها المواثيق والاعراف الدولية وعلى رأسها ميثاق الأمم المتحدة، مثلما ضمنتها القوانين الداخلية. ومن سخريات القدر ان الدستور العراقي المؤقت الصادر عام ١٩٧٠ ينص في مواد منه على حقوق الانسان، ويعدد مثل هذه الحقوق..!!

والأمر الهام بنظري ان المعارضة العراقية بكل فصائلها مطالبة بأن تناضل في مجال حقوق الانسان وعليها ان تتوجه الى المجتمع الدولي، والأمم المتحدة بالذات لكي تُصدر قراراً يلزم النظام العراقي التزاماً باحترام حقوق الانسان، وليس كما هو الحال والقرار (٦٨٨) الذي أعتبر توصية، وليس قراراً ملزماً..! واعتقد ان في ميثاق الأمم المتحدة ما يؤكد تمتع المنظمة الدولية بمثل هذه الصلاحية والامكانية.

وأساساً فان هذه القضية استمر فيها النزاع طويلاً، حتى بين الفقهاء القانونيين، وليس فقط بين الدول. والنزاع هذا دار في أروقة الأمم المتحدة وخلال جلسات الجمعية العمومية، ومدار الجدال السؤالان التاليان:

هل ان حماية حقوق الانسان ومراعاتها من قبل الأمم المتحدة تتعارض مع السلطان الداخلي للدول الموقعة على الميثاق؟ وهل تستطيع الدول ان تحتج لدى الأمم المتحدة بأن نشاطها بشأن حقوق الانسان هو ضرب من التدخل وانتهاك لسيادة الدول نفسها؟

تحضرني في هذا المقام، قضية ذات اهمية كبيرة حدثت عام ١٩٤٦ بعد قيام الأمم المتحدة بسنة واحدة، عندما تقدمت الهند بطلب بحث قضية التمييز العنصري المسلّط على نصف مليون هندي من سكان جمهورية جنوب أفريقيا، وطرح الأمر كالتالي: تقبل هذه الشكوى أم لا تُقبل؟ وبعد نقاش طويل، اجاب ممثل جنوب أفريقيا: ان هذا شأن داخلي يخص دولته، وهذا يعتبر تدخلاً ينتهك الفقرة الخامسة من المادة الثانية من الميثاق! ولكن الاكثرية الساحقة من المندوبين كان رأيهم ان قضية حقوق الانسان المنصوص عليها في مواد الميثاق هي حق للمنظمة الدولية وواجب تمارسه تجاه حقوق الانسان في الدول الاعضاء، كون هذا الامر يدخل في صلب مهامها، وعليه فأن رد مندوب جنوب أفريقيا مرفوض. وفعلاً قبلت الشكوى، وادينت التفرقة العنصرية ضد الهنود التي مارستها

جنوب افريقيا.

هذه القضية اتخذت الأمم المتحدة بصددها الموقف النابع فعلاً من روحية الميثاق ومضمونه، وبامكان الأمم المتحدة ان تتخذ الاجراءات اللازمة لاجبار النظام العراقي على احترام حقوق الانسان من خلال ارسال لجان لتقصي الحقائق ولجان للمراقبة الخ. ولعل ما اقدمت عليه اخيراً لتقصي الحقائق في الاهوار، يعتبر احد مظاهر النشاط الذي يمكن للأمم المتحدة ان تقوم به. فالمسألة لا تتعلق بالادانة فقط. فكثيرة هي الإدانات التي صدرت عن الأمم المتحدة في قضايا حقوق الانسان، والعدوان وما شابه ذلك، غير ان المسألة متعلقة بالاجراءات والتدابير التي يجب القيام بها في هذا الصدد تجاه الدول التي تنتهك هذه الحقوق، وتخرق مبادئ وقواعد القانون الدولي. وينبغي ألا يقبل احتجاج أية دولة قد تتذرع بسيادتها أو بمبدأ عدم التدخل من الأمم المتحدة أو للحيلولة دون اتخاذ قرار بهذا الصدد، وإلا ما فائدة ان ينص الميثاق على مسائل يجب تنفيذها من قبل الأمم المتحدة، غير انها تتلكأ أو تمتنع عن التنفيذ؟ فلا يجوز التساهل مع دول وحكومات دكتاتورية تعاقب وتضطهد شعوبها وتنتهك حقوق هذه الشعوب تحت ستار السيادة والاستقلال وما شاكل ذلك.

النظام العراقي تجاوز الكثير من الدكتاتوريات في انتهاك حقوق الانسان، ووصل به الأمر لحد ممارسة الإبادة الجماعية، كما حصل مع شعبنا الكردي في حلبجة وحملات الأنفال، وكذلك حملاته الهمجية ضد شعبنا في الاهوار. والى جانب خرقه الفظ لمبادئ الميثاق الدولي فيما يخص سياسته الداخلية، فأن سياسة النظام العراقي على النطاق الخارجي تصب بذات الاتجاه، فقد مارس أعمال (الشقاوة) ان صحت الكلمة ضد الشعوب والبلدان المجاورة، ما أدى الى كوارث يعرفها الجميع، وكل هذه الافعال الدنيئة التي ارتكبها النظام تستحق العقاب.

وقد عقب الدكتور أحمد الموسوي على تساؤلات الحضور، مبيناً ان حقوق الانسان هي حقوق واحدة، والدساتير الوطنية والقوانين ينبغي ان تلتزم بروحية هذه الحقوق والحريات، والاتفاقات الدولية، سواء كانت هذه الدول منضمة للمنظمة الدولية أم لا، لأن هناك مادة في الميثاق تنص على ان عدم الانضمام لا يعني التخلي عن المسؤوليات الدولية. ان الأمم المتحدة تشكلت لتكون مسؤولة عن الأمن والاستقرار في العالم كله، وهناك حوالي ١١ مادة تتعلق جميعها بحقوق الانسان. وبالنسبة للدول، فالواجبات تختلف من بلد لآخر، فعلى سبيل المثال هناك دول في العالم لم تقر التجنيد الاجباري..! بينما هناك دول عديدة تلزم المواطن بالخدمة الألزامية.. أما الحقوق فقد تضمن الاعلان العالمي لحقوق الانسان ٣٠ مادة حول مختلف الحقوق والحريات. بالاضافة لذلك، فقد صدرت مواثيق تتعلق بحقوق

الانسان، تدعى «المواثيق الخاصة»، وهي مواثيق حول التعذيب والحقوق المدنية للمرأة ومشروع لحقوق الطفل. وفي السنوات الاخيرة وبسبب تراكم الوعي عند الافراد والجماعات، وعقد الاتفاقيات الدولية، تشكلت حالة بين الدول والحكام، تشكلت لجان خاصة أفسحت في المجال للفرد بأن يشتكي حتى على حكومته.. فأنا كمواطن من حقي ان الجأ للمحاكم، اذا كانت هناك حكومة ديمقراطية، وهناك لجنة لحقوق الانسان في حال عدم انصافي، وأرفع شكوى ضد حكومتي لمقاضاتها دولياً، وهذا يعتبر تطوراً نوعياً لحقوق الانسان.. بينما كانت سيادة الدول مطلقة والحكام لا يقترب منهم احد، وبهذا يستطيع الفرد مقاضاة حكومته أمام لجنة دولية، فهذا حق للمواطن هو من صميم حقوقه.

وتساءل الدكتور الموسوي، لماذا هذا الصمت عن جرائم النظام العراقي الذي يرتكبها منذ عام ١٩٦٨ وخروقاته المستمرة؟ غير ان مصالح الدول كما يبدو لي تمنع البوح بها.

وبهذا الصدد على المواطن العراقي ان يوصل معاناته للجهات الدولية، ومن جهتنا أوصلنا كراساً اصدرناه لمنظمة امريكية تعني بحقوق الانسان تدعى «ميدل إيست ووتش» وهي منظمة كبيرة بهذا الشأن. وقد نظمنا لهذه المنظمة ٢٦ لقاءاً مع مواطنين عراقيين من مراتب عديدة، وأصدرت هذه المنظمة كراساً يدين انتهاكات السلطة العراقية ضد المواطنين واحتجازهم دونما أوامر قضائية وغيرها. وهم مع هذا لا يعرفون تصرفات وسلوك اقطاب النظام، ولا يعرفون ان دستور العراق لما يزل مؤقتاً منذ ربع قرن تقريباً..! فيما ينبغي ان تكون دساتير الدول راسخة وثابتة، غير ان النظام، كما هو معروف، غير ملتزم بأية قيم متعارف عليها، وهذا يستدعي توعية المواطنين بحقوقهم. اصدرنا كراساً بعنوان «آلية حقوق الإنسان» لهذا الغرض. ويجب كذلك ايصال أية معلومة وبمختلف الطرق للمنظمات الانسانية التي تهتم هذه المواضيع، مثل منظمة العفو الدولية والمنظمة العربية لحقوق الانسان، واتحاد المحامين العرب واتحاد الحقوقيين العرب، لدفع هذه المنظمات لمقابلة المسؤولين في العراق ومكاشفتهم بمثل هذه الانتهاكات، وزيارة السجون والمعتقلات. وفي هذا الصدد فان احدى هذه المنظمات قدمت كشفاً للسلطات العراقية وبأرقام لا تدحض عن المعتقلين وحجم الانتهاكات التي يتعرض لها الانسان العراقي، وكانت الارقام والاسماء دقيقة لدرجة ان وفد منظمة العفو الدولية طالب السلطات العراقية بتأشيرة دخول ثلاث مرات، غير انها امتنعت عن اعطائها. لانها تمتلك معلومات دقيقة عن العديد من الانتهاكات والخروقات بحق الانسان العراقي.

وأكد الدكتور الموسوي على التعاون فيما بيننا كمسؤولين ومواطنين مع مثل هذه اللجان، كوننا اصحاب قضية، ولجنتنا تحاول غالباً صياغة معلومات المواطنين وايصالها بالطرق الاصولية لهذه اللجان، وعند تجمع المعلومات. وهذا جانب مهم. نستطيع والحالة

هذه ادانة النظام. المعارضة العراقية تضم ٨٣ حزباً وجماعة غير انها تفتقر الى هيئة حقوقية انسانية لانضاج قضايا المواطنين، والتصدي للخروقات التي يقوم بها النظام. وهناك حقوقيون ومفكرون ورجال قانون وغيرهم ينبغي الاتصال بهم لتشكيل نواة للجنة عراقية فاعلة ومؤثرة، آخذين بنظر الاعتبار عراق المستقبل لنستطيع اعادة الوجه الحضاري لبلدنا الذي سنت فيه شريعة حمورابي، ويمتلك تراثاً حضارياً هائلاً لم يبق منه النظام شيئاً. من خلال جهدنا المثابر نسعى لبناء عراق يمتلك ضمانات دستورية لحقوق الانسان دون استهتار الحاكمين أياً كانوا، وإلاهل من المعقول ان الدستور العراقي الذي يضم ١٧٦ مادة، يمنح منها ٣٨ مادة كصلاحيات لرئيس الجمهورية بينما الدول التي تحترم حالها تمنح رئيسها مادة واحدة فقط.

ان مصالح الدول قد تمنعها من ادانه انتهاكات حقوق الانسان في العراق..! غير ان هناك منظمات غير حكومية، مثل منظمة العفو الدولية ولجنة حقوق الانسان التابعة للأمم المتحدة واللجنة العربية لحقوق الانسان التي تضم شخصيات عراقية: لكن هذه المنظمات تعمل بطرقها الخاصة وقد لا نتفق معها. فاللجنة العربية مثلاً تصف الانفجار الشعبي الهائل الذي هز العراق في اذار/ ١٩٩١ بـ«الاضطرابات» وبرغم هذا فهم يشيرون لحدوث جرائم واغتيالات، وهناك من طرف آخر منظمات تستلم مخصصات من النظام العراقي، وقسم من تقاريرها تعرض على السلطات العراقية قبل نشرها..! ونحن نحاول الاستفادة من هذه المنظمات قدر المستطاع.

وحول محاكمة رأس النظام واركان حزبه، اشار الدكتور الموسوي لاثارة هذا الموضوع اكثر من مرة في نشرة اللجنة، الموضوع أساساً كان قد طرحه الالمان والفرنسيون ثم تراجعوا بسبب مصالحهم، ولاعتبارات دولية..!؟ ومن طرفنا فنحن نسعى لتسفيه نهج النظام الذي كان حتى الأمس القريب يتمتع بسمعة وهيبة عربية ودولية، غير ان الامر اختلف بعد غزوه للكويت، وبعد انتفاضة آذار ١٩٩١ المجيدة. وهناك دول عربية تعتقد لحد الآن ان نظام صدام وطني معاد للامبريالية، وبعض المواطنين السوريين يعتقدون ان طعوننا بالنظام هي لأغراض سياسية كوننا معادين له. والاخوة الليبيون دعوا ممثل النظام للقاء القومي الرابع الذي عقد أخيراً واداروا الظهر لمعارضتنا العراقية! ان لجنتنا تجهد لتقديم رأس النظام واركانه للمحاكمة، غير ان هذه بحاجة لقرار دولي ومناخ دولي مؤات. وقد وعدتنا منظمة «ميدل إيست ووتش» لعمل ملف خاص وتقديم قرائن قانونية تكون كافية لأدانة النظام.

ثم عقب د. حامد ايوب على بعض المداخلات بالقول ان قضايا حقوق الانسان خضعت، مع الاسف الشديد، للاعتبارات السياسية منذ انبثاق هيئة الأمم المتحدة واعلانها العالمي لحقوق الانسان. فجرى توظيف هذه القضية الانسانية النبيلة للصراع

الطويل بين المعسكرين اثناء الحرب الباردة. فالغرب كان يركز على انتهاك الحقوق والحريات السياسية في البلدان الاشتراكية السابقة التي كانت تركز على إدانة الاستغلال وعلى اشكال التمييز الاجتماعي والعرقي حسب الجنسين في ظل الرأسمالية السائدة في الغرب، رافضة التدخل من الخارج معتبرة قضايا حقوق الانسان شأناً داخلياً لا يجوز التدخل فيه، مستندة في ذلك على المادة الثانية من ميثاق الأمم المتحدة. كان الغرب تبعاً لمصالحه السياسية والاقتصادية يغض النظر عن انتهاكات حقوق الانسان في ظل انظمة الاستبداد والدكتاتورية ما دامت تضمن مصالحه الاقتصادية وتسير في دائرة نفوذه السياسي أو تتحالف معه عسكرياً. والامثلة لا تحصى. ولكن لماذا نذهب بعيداً. فالغرب ساند نظام صدام في حربه ضد ايران ما دامت الحرب تخدم مصالحه، رغم بشاعة انتهاكات النظام لحقوق الانسان بما في ذلك جرائم استخدام السلاح الكيمياوي في حلبجة وحملة «الانفال» وإبادة عشرة آلاف من البرزانيين وغيرها من آثام الدكتاتورية الفاشية. وكما نعرف ان فضح هذه الانتهاكات من قبل حكومات الغرب جاء حين مدّ يده الى مصالحها النفطية بغزو الكويت.

نحن بحاجة الى تجريد قضايا الدفاع عن حقوق الانسان من الاعتبارات السياسية الآنية واعتبارها الاساس لأية سياسة وطنية ديمقراطية. فهي قضية انسانية لا تتجزأ وتتعلق بحرية وكرامة وحقوق الناس. فاحزابنا الوطنية مطالبة ان تضع هذه الحقوق في مقدمة برامجها وتدافع عنها في نشاطها اليومي بصرف النظر عن ضحية الانتهاكات، متجردين من النظرة السياسية الضيقة، والا فمن حق الناس ان يخشوا من تحول المعارضة الى سلطة قد تمارس نفس سياسات الدكتاتورية الحالية. ولا يصح بقاء منظمات حقوق الانسان التي ترعاها قوى المعارضة منظمات غير مستقلة مبعثرة الجهود. نريدها ان تتحول الى حركة موحدة فاعلة تجمع في صفوفها كل الداعين الى احترام حقوق الانسان وصيانة كرامته، وان ترسخ جذور الحركة في الساحة السياسية ليتواصل عملها بعد خلاص شعبنا من دكتاتورية صدام ولا يقتصر على فضح جرائم هذه الدكتاتورية.

اعداد: ضياء صلوحي

وثــــائق

في الذكرى الستين لتأسيس الحزب الشيوعي العراقي

مسيرة زاخرة بالعطاء للشعب والوطن!

قبل ستة عقود من السنين، مع طلوع ربيع ١٩٣٤، ألتمع في أفق العراق المستيقظ من سبات القرون أمل واعد بغد أفضل للملايين المحرومة المكبلة، المتطلعة الى مكان تحت شمس الزمن الجديد، زمن الحرية والتقدم والعدالة: ولدت «لجنة مكافحة الاستعمار والاستثمار» التي كثّف اسمها برنامج عمل أجيال من خيرة بنات وأبناء شعبنا، من العرب والكرد والأنتماءات القومية الأخرى، الذين انغمروا في إطارها، ثم منذ صيف ١٩٣٥ تحت راية «الحزب الشيوعي العراقي» في نضال مجيد مديد حافل بالعزم والفداء من أجل استقلال الوطن وحريته، وخير الشعب وسعادته.

ومنذ البداية كشف الفصيل الفتي الرائد، الملتهب حُباً للوطن والناس اوراقه على صفحات جريدته الأولى السرية «كفاح الشعب»، حيث دعا في عددها الأول (٣١ تموز ١٩٣٥) الى تصفية القواعد العسكرية الأجنبية وإلغاء معاهدة ١٩٣٠، والى يوم عمل من ثماني ساعات وتوزيع الأرض على الفلاحين. وسرت في الشارع الوطني والأزقة الفقيرة همهمات رضا واستبشار، ولاح في العيون وميض عزم ووعد، فيما أجفل الحاكمون نفوراً وخشية، وانكبّوا على سيوفهم يشحذونها. وتحوّل الأمل منطلقاً لعمل واع منظم لا يكل، مفعم بنكران الذات، راح يستقطب كل يوم مزيداً من الساخطين على المستعمرين واحتكاراتهم النهّابة ونظامهم الملكي الأقطاعي، وتواصل متصاعداً دون انقطاع رغم الكبت والعسف. وتَصدّر الشيوعيون نضالات الجماهير ومعارك العمال وهبّات الفلاحين. ولعب باني الحزب الرفيق فهد دوراً أساسياً في بلورة توجهاتهم الوطنية والتقدمية وستراتيجهم. وتحت قيادته صاغوا الشعارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الصائبة الجريئة والمعبئة، وقادوا سعي الجماهير الحثيث والجسور لتجسيد تلك الشعارات.

وفي الكونفرنس الحزبي عام ١٩٤٤، والمؤتمر الوطني الأول للحزب عام ١٩٤٥، جرى إقرار النظام الداخلي والميثاق الوطني، ووضعت - بين أمور أخرى - أسس الأسهام الأكبر والأنشط في النضال من أجل أهداف الشعب في الاستقلال الناجز والديمقراطية، وفي الكفاح اليومي للجماهير المسحوقة في سبيل لقمة العيش والحقوق الأساسية والكرامة.

ومنذ ذلك الحين راح الشيوعيون يوسعون تحركهم وسط الجماهير وقيادة كفاحها السياسي والأجتماعي. ومنذ ذلك الحين أيضاً ومآثر شعبنا لا تُذكر إلا ويذكر معها الحزب الشيوعي ونضاله المتفاني: في وثبة كانون ١٩٤٨ وانتفاضتي ١٩٥٢ و١٩٥٦، وفي معركة كاورباغي واضرابات عمال الميناء والسكك، وغيرها الكثير من النزالات المشهودة التي مهّدت لانتصار ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨.

وانعكست جدية نضال الشيوعيين في سبيل الاستقلال والحرية في ادراكهم المبكر أهمية تلاحم القوى المناهضة للأستعمار والحاكمين من أذنابه. فكانوا أول من رفع في العراق شعار «الجبهة الوطنية». وتقدموا المشاركين في مختلف التحالفات الوطنية والديمقراطية التي قامت في البلاد. ومن جانب آخر اتخذوا موقفاً مبدئياً من القضايا القومية، لا سيما حقوق الشعب الكردي، الذي أكدوا حقه في تقرير المصير، ودعموا نضاله المشروع، وصاغوا له الشعارات التي تبنتها، فيما بعد، القوى القومية الكردية ذاتها. وقام حزبنا بدور بارز ومشرّف في نشر الفكر التقدمي والاشتراكي، وتطوير الثقافة الوطنية. وانه ليفخر بأجيال الكتاب والفنانين والعلماء والباحثين في شتى الاختصاصات، الذين تربّوا في صفوفه أو تأثّروا بفكره ونضاله، والذين شكلوا ويشكلون زهرة مبدعي شعبنا وجهده الحضاري المرموق. وغمر حضور حزبنا كل ميدان في حياة المجتمع. وألهب سعي الجماهير للخلاص من السيطرة الأجنبية ومن التخلف والاستغلال، ومن تسلّط الدكتاتوريين وتجار السياسة. وأمتد نشاطه الى كل زاوية في البلاد، في المدن والارياف، والى مختلف طبقات الشعب الكادحة وفئاته: عمالاً وفلاحين، كسبة ومثقفين، طلبة ونساء وشباباً. وانفتح منذ نشوئه على كل العراقيين دون استثناء، مناهضاً كل تعصب وانغلاق، فكان «الحزب العراقي» الوحيد تكويناً وتركيباً، الناشط، دعوة وتعبئة وتنظيماً، في أبعد قرى كردستان وحواضر الموصل وديالى، كما في ربوع بغداد والفرات الأوسط وبطاح البصرة، والرامز الى تعايش وتاخي سائر القوميات والطوائف والاقاليم في الوطن العراقي الواحد.

وتجاوز نشاط حزبنا السياسي حدود العراق، وتجلى، مرموقاً، في كلا الساحتين العربية والعالمية، مناصراً الشعوب وحركاتها الوطنية التحررية والتقدمية، ومناهضاً الامبريالية والحرب والعدوان.

لم تكن لنا، نحن الشيوعيين، يوماً طموحات مغايرة لطموحات الكادحين وعامة الشعب. ولم نخلص لأحد أو لشيء قدر إخلاصنا لهم. لذلك ارتبطت مصائرنا على امتداد ستين عاماً بمصائرهم: تقدماً ونكوصاً، انتصاراً وانكساراً. وكان قادتنا ورفاقنا، كل حين، في المقدمة بين شهداء المعارك المتوّجة بالنصر، كما في الطليعة بين ضحايا الهزائم وطغيان الأعداء والمرتدين. تشهد على ذلك مآثر فهد وحازم وصارم وسلام عادل والحيدري والعبّلي والاف الواهبين معهم وقبلهم وبعدهم. كان جهاد الشعب وكادحيه أبداً جهادنا. وكم منا تحمّل ويتحمل الارهاب والملاحقات اليومية ومشاق العمل السري ومخاطره. وكم أفنى ويفني زهرة شبابه في السجون والمعتقلات، وكم عانى ويعاني الآلام الرهيبة في ورش التعذيب البربري، وكم افتدى الشعب والوطن مقاتلاً في فصائل الأنصار المقدامة طيلة الثمانينات، وكم تلقّى الرصاص الغاشم برؤوس مرفوعة في سوح الأعدام في السجون وفي الشوارع والميادين.

ولعله في هذا الالتصاق الحميم بالشعب ما يُفسر الصمود نادر المثال لحزبنا في وجه أعتى حملات المطاردة والعسف والتنكيل والتقتيل، التي شنتها ضده سائر الانظمة التي تعاقبت على حكم العراق خلال العقود الستة الماضية، وتجاوزه جميع المعضلات الداخلية والأزمات، وبقاءه حتى اليوم - وهو الأطول عمراً بين الكل - في قلب سوح النضال، مفعماً بالعزم على مواصلة الشوط حتى يتحقق الأمل الذي أشاعه نشوؤه ربيع ١٩٣٤ في «وطن حر وشعب سعيد».

ان من الصعب حقاً تصور تاريخ العراق الحديث بدون حزبنا الشيوعي وكفاحه المضني ودوره السياسي المشهور. لكن هذا لا ينفي القصور الذي وسم تحليلاته وتقديراته في بعض الفترات، واوقعه في الأخطاء، ووضعه، مع عوامل أخرى، أمام اوضاع معقدة وصعوبات جمّة، انعكست سلباً عليه وعلى التطورات في البلاد عموماً. كما اوصله في السنوات الأخيرة الى الأزمة التي يعانيها، والتي أنكبّ مؤتمره الوطني الخامس في الخريف الماضي، يتقصّى تجلياتها وأسبابها، ويحدد سبل معالجتها والخروج منها بعيداً عن العدمية التي تدين الماضي إجمالاً، ولا ترى فيه غير السلب، كما عن النظرة المحافظة التي تأبى التغيير وتتشبث بالماضي وحسب.

واذا كان في هذا الواقع ما يُدلّل على حيوية حزبنا وقدرته على تلمّس الدرب السليم حتى وسط الأعاصير والأنهيارات وغياب الامارات الهادية، فان فيه أيضاً ما يشير الى وعيه العميق كوابح التغيير وعزمه الأكيد على تذليلها، وتحويل خلاصات المؤتمر الوطني الخامس واقعاً شاخصاً، وأساساً لنهوض الحزب من جديد، ومواصلته الكفاح لبلوغ أهداف الشعب وآماله.

وليست هذه المرة الأولى في مسيرة الستين عاماً التي نتحدث فيها علناً، نحن الشيوعيين، عن معضلاتنا وأخطائنا والمصاعب المحيطة بنا، وجهودنا لتجاوزها. ومن يضع مصالح الشعب والوطن فوق كل اعتبار، لا يستطيع إخفاء نقيصة يكتشفها في نفسه، أو التستر على عيب. وفي ذلك مصدر آخر لقوة حزبنا وقدرته على الاستمرار ومواصلة الكفاح وتبديد رهان أعدائه الدكتاتوريين واضرابهم على تداعيه واندثاره.

لكنها المرة الأولى التي يبدأ فيها حزبنا عملية تغيير عميقة حقاً في توجهاته وحياته، ومجمل سياسته وممارسته، بعد ان تراكمت الأخطاء، وتفاعلت في السنين الماضية، ملحقة أضراراً جسيمة بعمله النضالي وصلاته بالجماهير.

ومن هنا الأهمية والصعوبة غير العاديتين للمهمات التي تنتظرنا اليوم، مهمات إشاعة الديمقراطية في بناء الحزب وحياته وعمله، وتجديد سياسته وهيكله ومفاصله وأساليب نشاطه ونضاله. المهمات التي لا سبيل لانجازها تماماً إلا باستنهاض كل قوانا المبدعة الكامنة، ونبذ عاداتنا القديمة ونزعاتنا المحافظة، والأستعانة بطاقات من أبعد من رفاقنا دون وجه حق عن الحزب، أو ابتعد مكرهاً.

وانه لخير احتفاء بعيد حزبنا الستين ان ننهمك عشيته في هذا الجهد الضروري، الذي بدأناه في مؤتمرنا الوطني الخامس، لاسترجاع حيوية الحزب واندفاعه، واستعادة مكانته الجماهيرية ودوره النضالي: السياسي والاجتماعي. وبذلك فقط نُسهم بفاعلية في الكفاح لتحقيق أهداف شعبنا الراهنة في رفع الحصار الاقتصادي عنه، وتشديد الخناق على الدكتاتورية واسقاطها، وإقامة العراق الديمقراطي الفيدرالي الموحد، والدفاع عن مصالح الكادحين.

فلنحيي الذكرى الستين لميلاد حزبنا بما يُعزّز نضاله مع بقية الأحزاب العراقية: العربية والكردية، الديمقراطية والقومية والاسلامية، ضد الدكتاتورية الغاشمة ومن أجل العراق الحر الآمن المتنعّم بالسلام والديمقراطية!

مجداً للشهداء الأبرار!
مجداً لشعبنا المناضل وطبقتنا العاملة الباسلة!
وطن حر وشعب سعيد!

اللجنة المركزية
للحزب الشيوعي العراقي

٢١ شباط ١٩٩٤

وداعاً عبد اللطيف الراوي

في ٢٣ كانون الثاني المنصرم اودى حادث سير فاجع بالباحث، الدكتور عبد اللطيف الراوي، في مدينة حمص، حيث يعمل استاذاً في جامعتها. وقبل انتقاله الى سورية كان الفقيد قد امضى عدة سنوات استاذاً في جامعة وهران بالجزائر. وقد ارتحل اليها اواخر السبعينات بعد ان عانى من ممارسات الفاشية بسبب ارتباطه بالحركة الشيوعية العراقية. حاربه «اكاديميو» النظام خلال دراسته العليا وعمله التدريسي. فخاض معركة مشهورة دفاعاً عن حرية البحث الاكاديمي برفضه الاذعان لطلبهم ان يكيّف، وفقاً لآيديولوجيتهم، الرسالة التي انجزها لنيل الدكتوراه في جامعة بغداد، وعنوانها: «الفكر الاشتراكي في الأدب العراقي الحديث»

في ديار الغربة تواصل عطاؤه الثقافي، تدريساً لطلاب الأدب وإشرافاً على دارسيه، وتأليفاً، واسهاماً في عمل رابطة المثقفين الديمقراطيين، هذا بالاضافة الى ما قام به من نشاط سياسي ضد الدكتاتورية، بما فيه المقالات التي كتبها والندوات التي ساهم فيها.

نشر الفقيد المؤلفات التالية:

- الشعر والعمل..
- في الشعر العربي الحديث.
- في النثر العربي الحديث.
- مبادئ النقد.
- النقد العربي القديم (بمشاركة د. سمير معلوف).
- ليل بلا عيون ـ قصص.
- مقالات في تاريخ العراق المعاصر.
- عصبة مكافحة الصهيونية في العراق.

وأسهم الفقيد مع اثنين من زملائه في تحقيق اربعة مؤلفات في التراث العربي وخلف ستة مخطوطات في الأدب كانت في انتظار النشر.

و«الثقافة الجديدة» المدينة للفقيد ببضع مساهمات، تعزي اسرته واصدقاءه وطلابه.


أدب وفن

أبو نؤاس: الأبداع خيانة الواقع

د. حسين كركوش

درج باحثون ونقاد عرب كثيرون على التروي والتسامح وربما التفتيش عن المبررات حتى وهم يكتبون عن اكثر الطغاة عتواً في تاريخنا العربي الاسلامي. الانموذج الاشهر الذي يحضرنا هو الحجاج الثقفي. فسيرته في الظلم والعسف معروفة للجميع، لكننا نومئ ايماءة سريعة لسياسته ازاء الموالي التي خربت اقتصاد العراق آنذاك. فقد فرض الحجاج على المسلمين الذين سكنوا الامصار، ممن كان اصلهم من السواد من اهل الذمة فأسلم، بالعراق، ان ردهم الى قراهم، ووضع عليهم الجزية مثلما كانت قبل اسلامهم. ولما ثار العراقيون ضده انتقم منهم عندما استتب له الامر فصادر اموال البعض بعد قتله اياهم ثم عمد فأهمل استصلاح الاراضي نكاية بالثائرين عليه «فانبثقت في زمانه بثوق اغرقت الأراضي» لكن الحجاج لم يفِ بسدها، كما تتطلب منه مسؤولياته «لانه كان اتهمهم بممالاة ابن الاشعث حيث خرج عليه»(١) وهكذا، أدت هذه السياسة الى اضرار اقتصادية فادحة فهبطت جباية سواد العراق في عهده الى ثمانية عشر ألف ألف درهم فقط رغم كل عسفه وجبروته. وكانت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب مئة وثمانية وعشرين ألف ألف درهم. وبعد حكم الحجاج جبى عمر بن عبد العزيز العراق فارتفعت جبايته الى مائة وأربعة وعشرين ألف ألف درهم (٢) رغم ان الحجاج ترك العراق في حالة خراب. وقد دفع ذلك

عمر بن عبد العزيز الى ان يلعن الحجاج فقال «لعن الله الحجاج، فأنه ما كان يصلح للدنيا ولا للآخرة».

ومع ذلك فان الدكتور شوقي ضيف، مثلاً يقلب الامور على وجوه كثيرة وكأنه يفتش عن مبررات لظلم الحجاج ورغم ان الدكتور ضيف لا ينكر سوء معاملة الدولة العربية للموالي ولا ينكر ما حدث لهم في زمن الحجاج بعد ان ردهم الى قراهم ونقش اسماءهم على ايديهم حتى لا يبرحوها، ورغم اعترافه ان «ظاهر هذا الحادث عنف شديد في الظلم» لكنه يحاول، ان يجد عذراً لسياسة الحجاج فيقول، قد يكون الحجاج اضطر لذلك لتعطل الزراعة في السواد وبالتالي تعطل الخراج»(٣).

ليت هذا التسامح يكون حاضراً ايضاً عندما تدرس حالات أخرى في التاريخ والأدب العربيين. ونحن نشير هنا لحالة احد اكبر المبدعين الذين اثروا لغة الضاد وهو ابو نؤاس.

فقد عانى هذا الشاعر ظلماً كثيراً.. فان كتاباً ليسوا قليلين يسترسلون في ثلبه ولا يشغلون انفسهم الا بالتنقيب عن سيئاته. والتهم ذاتها تتكرر: فاسق، سكير، خمّير، زنديق، شعوبي يحتقر العرب ويمجد الفرس.

ان معاصري أبي نؤاس كانوا اكثر انصافاً وتفهماً لظروفه من معاصرينا. فقد وصفه ابو تمام بـ«الحاذق» وقال «ان أبا نؤاس ومسلم، اللات والعزّى، وأنا اعبدهما (٤). ورأى المحدث والأديب الراوية عبد الله بن عائشة ان «من طلب الأدب فلم يروِ شعر أبي نؤاس فليس بتام الأدب» (٥). أما أبا سفيان الثوري، وهو أمير الحديث وسيد زمانه في علوم الدين والتقوى، فكان يردع الذين يتطاولون على أبي نؤاس واقسم بالله على تفرده في الابداع الشعري فقال «والله لقد لحق من قبله وفات من بعده» (٦).

أما في عصرنا الحديث فقد دأب كثيرون للحط من شأن أبي نؤاس والتركيز على انحداره العرقي وألباسه لبوساً في السياسة والآيديولوجيا بدا فيها أبي نؤاس وكأنه ظالعاً في مؤامرة ضخمة، محكمة يريد منها هدم الحضارة العربية ونفي انجازاتها العظيمة. بل ان اكاديمياً مرموقاً هو الدكتور طه حسين اصدر ما يشبه حكماً بالاعدام على هذا الذي مات «ولم يترك سوى قماطر ليس فيها غير لغات العرب» (٧). كما يروي الجاحظ. قال طه حسين ان أبا نؤاس «يذم القديم لا لأنه قديم، بل لأنه قديم ولأنه عربي، ويمدح الحديث لا لأنه حديث، بل لأنه حديث ولأنه فارسي، فهو اذن مذهب يفضل الفرس على العرب، مذهب الشعوبية المشهور» (٨). وحذا حذوه الاستاذ عباس محمود العقاد فقال، دون سند واضح، ان لأبي نؤاس مقاصد دفينة، سياسية في انحائه على الطلول ومفاضلته بين خيام العرب وايوان كسرى (٩). وعزا عبد الرحمن صدقي الاتجاه التجديدي في شعر أبي نؤاس لرحم له موصول بالفارسية، ونزعة ظاهرة للشعوبية (١٠). ومثله فعل الدكتور محمد

مندور فرأى ان دعوة التجديد عند هذا الشاعر «مشوبة بروح الشعوبية والغض من شأن العرب وتقاليدهم» (١١). وعلى هدى هؤلاء الباحثين اهتدى كتاب آخرون.

ان هذه تهم تعوزها الأدلة الواضحة والانصاف. وزاد باحث فرأى ان هذه الاحكام فيها «أشياء من الظن والهوى والرجم بالغيب ومجانية الصواب» (١٢). وتكمن مجانية الصواب، في رأينا، في الطريقة الانتقائية التي درس هؤلاء الباحثون على ضوئها أبا نؤاس. كذلك تكمن في اهمال الجوانب التاريخية والاجتماعية والسياسية للفترة التي عاش فيها، وكأنه حالة معلقة في الفراغ، لا جذور لها.

فاذا كان ابو نؤاس شارباً للخمر فان الانصاف يقتضي منا ان نذكر ان بعض ولاة امرنا لم يتعففوا من شربه، بل ان يزيد وصف بأنه «سكير، خمّير» وكان عدد غير قليل من خلفاء بني أمية وبني العباس يشربونه وقد كان الأمين يبالغ في شرابه حتى انه لا يبالي مع من قعد ولا أين قعد (١٣). واذا كنا ننبز نسب أبي نؤاس الاجنبي، فعلينا ان نتذكر ان عبيد الله بن زياد ترك في كنف شيرويه الأسواري وهو مولى اعجمي فشب زياد، وهو والي العراقيين يرتضخ لكُنة فارسية. وكان أكثر الخلفاء العباسين ولدوا من أمهات اجنبيات.

إننا نستطيع، لو تركنا للتحامل ان يقودنا، ان نرمي أبا نؤاس بما نشاء من التهم. وعندنا لو ان أبا نؤاس دُرس دون التوقف كثيراً عند انحداره العرقي وظروف نشأته ونظرته الشاملة للكون وللحياة والاخذ بنظر الاعتبار كل ما كتبه من شعر، فسوف لن نحصد سوى الزبّد الذي يذهب جفاءً ونستطيع آنذاك ان نضع أبا نؤاس في الخانة التي لا نريدها، ومع الملة والنحلة التي تعجبنا.

ان أبا نؤاس، وهذا ظننا، لم يكن فارسياً ولا عربياً ولا شعوبياً، ولم يكن ملحداً ولا مؤمناً، لا شيعياً ولا سنياً. ونحن نجد صعوبة في الاتفاق مع من يقول ان أبا نؤاس شيعي وشيعيته هذه كشفت مأساته لأنه عاش شطراً من حياته في البصرة ذات الغالبية السنية آنذاك (١٤). ان استنتاجاً كهذا لا يستقيم مع منطق الاشياء، ولا يؤيده ما كتب أبو نؤاس من شعر. فنحن نجد في ديوانه تعاطفاً مع «آل البيت من نسل هاشم» (١٥). ولكننا نجد فيه تمجيداً للشيخين وللعمريين (١٦)، انه لأمر صعب ان نجزم بأن أبا نؤاس، بروحه القلقة وفلسفته العبثية، كان رجلاً يهمه الالتزام المذهبي. وليست هناك اشارة في ديوانه تدل على انه (تجعفر) مثلما كان السيد الحميري يقول (١٧). ويروي لنا الجاحظ في البخلاء ان أبا نؤاس كان يرتعي على خوان اسماعيل بن نوبخت كما ترعي الأبل في الحمض (١٨). والمعروف ان عائلة نوبخت شيعية. مع هذا فان أبا نؤاس هجاها بقسوة. ورغم ان بعض بني نوبخت يكذب ذلك ويعتبره تشنيعاً من الآخرين الا ان البعض يصر ان بني نوبخت هم

الذين قتلوا أبا نؤاس وداسوا بطنه فلم يزل يضع أمعاءً حتى مات» (١٩). واذا كان ابو نؤاس شيعياً، كما يقال، فلماذا لا تدعيه الشيعة لنفسها وتدافع عنه؟ ان أبا نؤاس ليس شيعياً لأن من يؤمن بمذهب اسلامي معين عليه ان يؤمن أولاً بالاسلام كله. ولا يستطيع احد ان يجزم بأيمان أبي نؤاس ولا يستطيع آخر ان يؤكد ألحاده، فمثلما كان ذا ايمان يرفعه الى مرتبة الاولياء وله شعر في الزهد يحسده عليه كبار النساك، كانت تستعصي عليه أحياناً مغاليق الأمور فيحتر في تفسير الكون وتقوده هذه الحيرة للقول «انما الموت بيضة العقر» (٢٠) وان الموت والبعث هما «حديث خرافة يا أمَّ عمرو» (٢١). ومثلما لا نستطيع ان نصنّف هذا الشاعر طائفياً أو عقائدياً فاننا لا نستطيع ان نتهمه بكراهية العرب. فقد كان يتذوق ويطري الحضارة الفارسية ،لكنه كان يكنُّ حباً واحتراماً للعرب ومكارمهم:

أنما العيش يا أخي — حُب خشفٍ من العرب

فاذا ما جمعته — فهو الدين والحسب (٢٢)

لكن أبا نؤاس يفرق بين العرب كأمة أذهلت انجازاتها العالم بعد ان بزغ عليهم فجر الاسلام، وبين ممارسات عربية نهى الاسلام عنها كالتنابز بالالقاب والتعصب القبلي والحروب العشائرية والبكاء على الاطلال. وأبو نؤاس يفرق ايضاً بين الحضارة العربية المدينية ورخاء عيشها وبين حياة الصحراء الخشنة التي كان الاعراب يحيونها. وليس في هذا الأمر عيب ولا شتيمة للعرب ولا كراهية. لقد نهل أبو نؤاس من منهل العربية وسجل ابداعه الشعري بها وليس بلغة أخرى واطرى الموروث الادبي العربي واستشهد بأعيان الشعر العربي فذكر الاعشى وذا الرمة والحطيئة والنابغة الجعدي وآخرين، وكان يسمي جرير «الحبيب».

اما الذي يقوله احد الباحثين بأن ابا نؤاس «يحتقر» الاعراب ويتهمهم بالغلظة والفظاظة ويثني ثناءً عاطراً على حياة المدن (٢٣)، فهو قول لا نرفضه ولكننا نتوقف عنده لنناقشه. ان أبا نؤاس لم «يحتقر» الاعراب. بل انه لم يحتقر أي مجموعة بشرية، وانما ذم جلف الاعراب وخشونتهم. وعندما يفعل ذلك فليس لان الاعراب من هذا الجنس البشري أو ذاك وليس لانهم سكنوا هذه الرقعة الجغرافية أو تلك. اذ ان أبا نؤاس ليس ميالاً لاصدار الاحكام الجاهزة ولم يكن ضيق الأفق الدوغماتي من ديدنه. كانت أراؤه مرنة يغيرها متي وجد الى ذلك مبرراً. إذ يروي أبو هفان ان أبا نؤاس الذي «يحتقر» الاعراب، مدح، مع ذلك أعرابياً عندما وجد عنده ظرفاً وكرماً وشمائل حلوة (٢٤). بالاضافة لهذا، فان القرآن نفسه انتقد الأعراب في اكثر من موضع، فقال: «الأعراب أشد كفراً ونفاقاً» (٢٥) وقال «وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن اهل المدينة مردوا على النفاق» (٢٦)

وقال «سيقول لك المخَلّفونَ من الأعراب شغلتنا أموالنا واهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس بقلوبهم» (٢٧) وقال «وجاء المعُذّرونَ من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذّبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذابٌ أليم» وقال «قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم» (٢٩). ويروي لنا ابن الحديد في شرحه رواية نستشف منها ان الخليفة عثمان بن عفان كان يحتقر الأعراب ويسمهم بالجلف والنجاسة. إذ قال لعائشة وحفصة عندما دخلتا عليه ايام خلافته وطلبتا منه الا يقسم أرثهما من النبي محمد «انت وهذه الجالسة جئتم باعرابي يتطهر ببوله وشهدتما..» الى آخر الرواية (٣٠).

صحيح، ان ابا نؤاس ذم حياة الصحراء وفضل عليها حياة المدن لكن هذا ليس سُبة لأحد. مع ذلك فعلينا ان نأخذ بالحسبان ان الاسلام ذاته دين مدينة وليس دين صحراء. فقد استطاع العرب بفضله ان يسيحوا في الارض ويقيموا حضارة مدينية راقية. وليس ممكناً ان نقارن قصور الأندلس أو الجامع الأموي أو المدرسة المستنصرية وغيرها من النصب المعمارية، بالخيام والبداوة التي كانت سائدة قبل الاسلام. ومن يقرأ الوصف القرآني للجنة فانه يجده اقرب للحياة المدينية. فالقرآن لم يبشر المؤمنين بالبلد الجدب والمحل القفر أو الحجر الصلد وأكل الضّب التي هي لصيقة بحياة الصحراء. وأنما بشرهم بالعيون الجارية والسرر المرفوعة والاكواب والنمارق والزرابي، وأساور من ذهب ولؤلؤ، ولباس من سندس واستبرق، وقاصرات عين، كأنهن بيض مكنون.. ووعد القرآن أهل الجنة بغرفٍ من فوقها غرف مبنية، يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب في اوان من ذهب. ويطوف عليهم غلمان كأنهم لؤلو مكنون (٣١). والقرآن لم يُقسم بالشوك والعاقول، وانما بالتين والزيتون ولم يذكر الشيح والقيصوم وانما النخل والاعناب والرُمان. ان اشياء كهذة لا يمكن ان يجدها الاعرابي في الصحراء، بل انه لا يحلم بها، لأنه لم يذقها وربما لم يشاهدها. بالاضافة لهذا، فان ما يميز حياة الاعرابي الخشنة وحياة الحضري الرخية هو الماء. ولا يمكن ان نتصور قيام حضارة مهمة دون قربها من مصادر المياه. ويستطيع الأعرابي ان يفرّط بكل شيء من اجل الماء (٣٢). وقد ورد وصف «جنات تجري من تحتها الأنهار» في أكثر من أربعين سورة قرآنية، بل انه يتكرر احياناً مرتين في السورة الواحدة، الى حد نستطيع ان نقول ان الماءَ مُحتَفَلٌ فيه بالقرآن. وكانت هذه المكافآت القرآنية الموعدة حافزاً للبعض في خوض القتال. فقد قال الشاعر الأصم الضبي بأنه لا يحزن لمقتل اصحابه فثوابهم سيكون في الجنة ذهباً وأثاثاً فاخراً:

ساروا الى الله حتى أنزلوا غرفاً من الأرائك في بيتٍ من الذهب. (٣٣)

وقد كانت المدن التي شيدها أو فتحها العرب المسلمون مفاتيح بركة وازدهار

للمسلمين. ولطالما أطرى المسلمون المدن. ويحدثنا ابن سعد في طبقاته بأن شامياً قال يخاطب وفداً من اهل الكوفة: «انتم كنز أهل الاسلام ان استمدكم اهل البصرة أمددتموهم وان استمدكم أهل الشام أمددتموهم» (٣٤). وكان الخليفة عمر بن الخطاب يسمي الكوفة «رمح الله وقبة الاسلام وجميمة العرب» (٣٥) ووصفها السفاح بأنها بلاد الأدب ووجه العراق (٣٦). وكان هارون الرشيد يسمي الاهواز «سُرّة الدنيا» (٣٧). أما المأمون فسماها «سلة الخبز» (٣٨).

ولكن المدينة ليست فقط بيوتاً تشيد ومساجداً تُعمَّر ودروباً تُشق، انما هي عادات واخلاق وتقاليد تختلف، خاصة في تقادم السنين، عن تلك التي نجدها في الصحراء. وعندما تنهض المدن تنهض معها دور العبادة والملاهي سويةً مع السجون والعسس والجواسيس. وقد استهوت ملذات المدينة من سكنها من الحضر ومن زارها من الاعراب.

ولم يكن أبو نؤاس الوحيد الذي استهوته المدينة، ان عمر بن أبي ربيعة عندما زار الكوفة، ولم تزل آنذاك في طور نشأتها، بُهر بما شاهد من طبيعة خلابة وليالٍ حمراء حيث الرقص والغناء، فحسد أهلها، قائلاً:

يا أهل بابل ما نفستُ عليكم   من عيشكم إلا ثلاث خصال

ماء الفرات وطيب ليل باردٍ   وغناء مسمعتين لابن هلال (٣٩)

وبالطبع، كان أبو نؤاس أولى من غيره في الثناء على حياة المدن. فقد نشأ وقضى شبابه ورجولته وكهولته في أمهات المدن، من البصرة الى الكوفة ثم بغداد. وعندما كانت بغداد تتألق كان أبو نؤاس يتألق معها ويخطف بصره كل جديد. ولم تكن عيناه تريان في بغداد الطلول والدمن، وانما النرجس والريحان والقيان وخمارات طيزناباذ، حيث تدور عليه مُزة بابلية ويطربه «نايٌ به المزهر الغريد معقود». وحتى اذا اراد ابو نؤاس ان يصف الطلول سيكون وصفه باهتاً وبعيداً عن الصدق. وكان هذا المبدع صريحاً وصادقاً مع نفسه والقراء عندما قال:

تصف الطلول على السماع بها   تأذو العيان كأنت في العلم

واذا وصفت الشيء متبعاً   لم تخل من زللٍ ومن وهمٍ

ان أبا نؤاس ليس الوحيد الذي أدار ظهره للقصيدة الاستهلالية في الشعر العربي. فعل ذلك الكميت الأسدي وديك الجن الحمصي ومطيع بن اياس وبعض شعراء الخوارج، كل لغاياته واسبابه. الحق، ان ليس ابو نؤاس هو الذي اشاح بشعره ووجهه عن الطلول ولكن الحضارة العربية الاسلامية هي التي فعلت ذلك وهي التي أدت للثورة الشعرية التي تزعمها أبو نواس. ولعل علي بن الجهم خيرُ من صرح بأسباب تلك الحركة التجديدية، إذ قال يصف مكاناً في الكرخ يجتمع فيه مع اصدقائه لمعاشرة القيان:

لو ان امرأ القيس بن حجر يحلّها لأقصرَ عن ذكر الدخول وحومل (٤٠)

لقد ادرك ابو نؤاس بحذقه الأبداعي ان جلباب الشعر العربي في زمانه بدأ يضيق ولم يعد جسد الحياة المتجددة في كل يوم، بل في كل ساعة، يتحمله. فكان لا بد من تمزيقه والبحث عن رداء هفهاف. ومهما قلنا في هذه المسألة من وجهة النظر النقدية فلن تأتي بشيء اكثر صحة مما قال ابو الفرج الاصفهاني وهو يناقش قضية التجديد الابداعي عند عبد الله بن المعتز المتوفي سنة ٢٩٦ هـ والتي تصلح ايضاً لمناقشة موضوع الحداثة الشعرية عند أبي نواس.

قال الأصفهاني عن أبن المعتز «ليس عليه ان يتشبه بفحول الجاهلية. فليس يمكن واصفاً لصبوح في مجلس شكِل ظريف.. ان يعدل بذلك عما يشبهه من الكلام السبط... الذي يفهمه كل من حضر، الى جعد الكلام ووحشيه والى البيد.. والمنازل الخالية المهجورة. (...) ان على الانسان ان يحفظ من الشيء احسنه، ويلغي ما لم يستحسنه، فليس مأخوذاً به» (٤١). وما فعله ابو نؤاس هو تطبيق لهذا الرأي النقدي. ونظن ان هذا بابٌ حسنٌ نلج منه لمعرفة موقف أبي نؤاس ازاء الفرس وانجازاتهم الحضارية.

ان أبا نؤاس عندما كان يطري انجازات الفرس ويعجب بها فانما كان يعزز حقيقة اعترف بها التاريخ قبل ان يعترف هو بها. فالدكتور عبد العزيز الدوي، وهو مفكر مؤرخ قومي النزعة، يقول عن الفرس في ذلك الزمان انهم «أمة متحضرة لها انظمة وتقاليد ساعدت على تقدم العباسيين في الحضارة» (٤٢). وقد أعجب العرب اثناء حروبهم في بلاد فارس بأنماط كثيرة عند الفرس وكانت انفسهم تنازعهم التقليد لبعض ما أنجزه الفرس في بعض الميادين. وقد استعان العرب بالفرس لتحقيق أشياء مهمة. ويروي الطبري ان زياد عندما اراد ادخال بعض التعديلات على مسجد الكوفة في السنة الخمسين من الهجرة استعان ببناء فارسي كان بناءً لكسرى (٤٣). ولم يكن ابو نؤاس الوحيد الذي بهرته الحضارة الفارسية. فقد كتب البحتري قصيدة مطولة ذكر فيها طاق كسرى أو «أبيض المدائن» مثلما سماه، الذي كان الفرس يحيون فيه «خائضون في ظل عالٍ مشرف يُحسر العيون ويخسيء». ثم قارن البحتري في قصيدته تلك بين هذا النصب المِعماري وبين اطلال العرب ففضله عليها:

حُللٍ لم تكن فأطلال سعدى في قفارٍ من البسابس مُلسِ

وذهب البحتري بعيداً في اطرائه فقال انه لو لم يكن عربياً لقال ان «مَكرمات» الفرس لم تدركها قبائل العرب من قبل:

ومساعٍ لولا المجاباة مني لم تطقها مسعاة عنسٍ وعبسِ (٤٤)

واذا كان التعصب القومي هو الذي منع البحتري ان يقول كل ما يريده، فما الذي يمنع ابا نؤاس ان يصرح بالحقيقة، وهو رجل يشير نسبه ووضعه الاجتماعي وفلسفته ونظرته المتساوية لكل الشعوب والأمم الى بعده عن المحاباة؟ بل لماذا نحاسبه عن آرائه ولا نحاسب الذين يثلبون انتماءه العرقي ويعيرونه به؟

فرغم ان ابا نؤاس رضع العربية كما يفعل اي طفل عربي وغرف من بحرها الواسع وتتلمذ على كبار عباقرتها وحفظ المجازاتها الادبية عن ظهر قلب، ظل الآخرون ينابزونه بانحداره العرقي. ان مؤرخي الأدب عندما يذكرون نسب ابي نؤاس فانهم لا يزيدون عن جده لأبيه وبالمقابل فانهم يطنبون في ذكر نسب من كان والد أبي نؤاس مولى لهم. وجُل ما يذكره مؤرخو الأدب عن هذا الشاعر ان والده كان راعياً للغنم وهو مولى الجراح، ولم يكن له ولاء ولاحلف حتى مات. أما أمه فيختلف الرواة ليس على عراقة نسبها، وانما على موقعها الدوني في السلّم الاجتماعي. فمنهم من قال انها «نبّاذة» ومنهم من قال انها «قوادة» في البصرة ومنهم من قال انها «تعمل الصوف ونسج الجوارب والأخراج» (٤٥). وعندما كان ابو نؤاس يُهجى فان ذلك الهجاء لم يثلب قبيلته، لانه لا يملك قبيلة أصلاً، وانما لتذكره بغربته الاجتماعية والقومية:

وبالأهواز أمكَ فاذكرنها ... مطية كل عُلجٍ في كناسِ
وهيٌ من الأهواز وغدٌ ... وراعي البهم في كنفيْ هساسِ (٤٦)

وسواءٌكان هذا الهجاء الذي اورده أبن منظور مصنوعاً على الحكم بن قنبر اولاً، فان ما يهمنا فيه هو هذا التعريض المستمر بنسب ابي نواس. وقد نجد من يطعن ابا نؤاس في عرضه ويتهمه بانه ابن زنا، كما فعل اللاحقي.

وازاء هذه المضايقة الاجتماعية، حتى لا نقول الارهاب الاجتماعي، لا يمكن لأبي نؤاس إلا ان يتماجن في دعاويه ويعبث ويخفي نسبه. فمرة يفخر باليمن، وثانية يمدح العجم، أو يدعي انه من جاد وحكم (٤٧). وعندنا لو ان ابا نؤاس عاش في عصر لا يقيم وزناً للانتماء العشائري لما تماجن وعبث ولأعلن صراحة انه انسان لا وطن له. وقد كان حقاً ينظر للشعوب والأمم بمنظار واحد. فالناس عند ابي نؤاس متساوون رغم انهم (مختلفو الضروب) الحقيقة الوحيدة المطلقة التي توحدهم هي الموت لأنه «شرع واحد». وابو نؤاس في هذا الرأي لم يحد عن الاسلام. اذ ان الكل في الاسلام من آدم وآدم من تراب ولا فرق في الاسلام بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى. وما من مخلوق يحدد تقوى مخلوق آخر، وقد قال النبي محمد لأهل بيته: «يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بني عبد المطلب لا أملك لكم من الله شيئاً غير ان لكم رحماً سأبلها ببلالها (٤٨)، الآية القرآنية

واضحة وصريحة في كرمها وتسامحها: «ان الله لا يغفر ان يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» (٤٩). ان هذا البعد التسامحي هو الذي يؤطر تفكير ابي نؤاس ونظرته للناس. انه يمجد الانسان كأنسان بغض النظر عن انحداره العرقي أو وضعه الاجتماعي أو جنسيته. وبالتالي فهو يمجد المجازات البشرية سواء من الفرس جاءت أو العرب أو الروم. ان ابا نواس، الهامشي فيما يخص انتماءه العشائري، والمنبوذ فيما يتعلق بوضعه الاجتماعي ـ«العاق» فيما يخص سلوكه اليومي، يشير انه في حلٍ من كل قيود وألتزامات، لا يخاف احداً ولا يخشى احداً:

يُفَضِّلُني على الفتيان أنّي أبيتُ فلا ألامُ، ولا أليمُ

انه الهوس بالحرية الفردية الذي لا نجده ربما عند أحدٍ غيره من المبدعين. وقد حاول، قدر مستطاعه واكثر، ان يقرن القول بالفعل. ولعل تعبير «خلعتُ عذاري» هو من التعابير المحببة لقلبه وروحه وذهنه. وقد وظّف حريته هذه لأطراء ما يراه محقاً للاطراء ونقد ما يراه أهلاً لذلك. انه يصر اصراراً يصل حد اللجاجة على التفرد والمغامرة:

«ركبت غوايتي وتركت رشدي»

وذا كان ابو نؤاس ترك «رشده» أو منطق الآخرين وقياساتهم، فانه لم يترك ضميره:

عَفٌّ ضميري، هازلٌ لفظي، وفي نظري عرامة

عَفٌّ ضميري، وطيبٌ خبري ولذتي في الحديث والنظرِ

ولأنه مؤمن تماماً بعفة ضميره فقد ترك لهذا الضمير ان يكون البوصلة التي يهتدي بها وعلى اتجاهها وكان يرى الاشياء. وأولها هي المظالم التي تلحق بالانسان وتذله لأي سبب، خاصة عندما يجوع الانسان فيعرضه الجوع لذلة ما بعدها ذلة. وربما عرفَ ابو نؤاس شخصياً تلك الذلة. وفي هذا الميدان فانه يعتبر شاعر العدالة الاجتماعية بحق:

لنخمس مال الله من كل فاجرٍ وذي بطنةٍ للطيبات أكولُ

وعندما يقول ابو نؤاس ذلك فانه يعتمد على معطيات واقعية سمع بها وعرفها وشاهدها. وكان يعرف الظلم الذي يتعرض له ضعفاء الناس وفقراؤهم. كان يعرف كيف كانت أموال الدولة تُختلس وتُبدد على الملذات. واذا كانت الأهواز التي عاشت فيها عائلته «سلة الخبز» كما سماها المأمون، فان ابا نؤاس يعرف ان عائلته شأن خلق كثير، ما كانت لتشبع من سلة الخبز كما يشبع ويُتخم بعض الحكام والارستقراطيين ونهازي الفرص والوصوليين. فهؤلاء «يسرقون جهرة بالنهار». فقد اختلس المهلب من اموال الدولة حين صرفه الحجاج من الأهواز ألف ألف درهم (٥٠). وكان خالد القسري لما يملك سوى قميص واحد يغسله وينتظره يجف ليلبسه. ولكنه عندما استلم مقاليد الامور على العراق

اصبح راتبه عشرين ألف ألف درهم (٥١). وقد انحرف بعض الحكام كثيراً عن جادة العدل والمساواة التي جاء بها الاسلام. فكان سعيد بن العاص يتصرف بأملاك الدولة كأنها ملكيته الخاصة فقال عن الكوفة «انما هذا السواد بستان لقريش» (٥٢). حسبنا القول ان الرشيد بدد في أمسية واحدة كل ما كان في بيت المال، لنزوة ألمت به (٥٣). وكان الأمين يبرر تبديده لثروة الأمة بقوله احياناً: «ما هي الا خراج بعض الكور» (٥٤).

وكان ابو نؤاس قريباً من حياة البلاطات مثلما كان يعاشر شذاذ بغداد وعياريها ومتبطليها. وفي ديوانه اشارات واضحة لذلك الظلم الاجتماعي وشجبه. فهو يجزم ان «من يجبي الخراج ظلومٌ». وهو يقر بوجود «امام جورٍ فاسق».

ربما يسأل هنا أحد ما كان موقف ابي نواس، وقد اعتبرناه تواً شاعر العدالة الاجتماعية، ازاء هذا الظلم؟ لماذا لم يشهر سيفه ويسلك طريق الثورة لأحقاق الحق؟. وربما هذه مناسبة نقول فيها: لماذا لا يتشبه ابو نؤاس بالصعاليك أو يهتدي بالكميت الاسدي ودعبل الخزاعي والسيد الحميري وأضرابهم من شعراء الشيعة، أو يسلك مسلك عبيدة اليشكري وقطري بن الفجاءة وامثالهما من شعراء الخوارج؟

علينا قبل الاجابة ان نتوقف عند نشأة ابي نؤاس ووضعه العائلي والاجتماعي والتركيب السايكولوجي والجسدي لهذا الشاعر، كذلك يجب ان نتوقف كثيراً عند عنف التاريخ والبشر والسلطة في زمانه.

تشير الاخبار التي تروى عن ابي نؤاس وكذلك الشعر الذي ابدعه، الى وداعته ورقته ولطفه وحنانه حتى كأنه يبدو انساناً سهل الكسر. فقد كان «حسن الوجه، رقيق اللون، ابيض، حلو الشمائل، حسن الجسم وكان ألثغ على الراء يجعلها غيناً وكان نحيفاً في حلقه بُحة لا تفارقه» (٥٥).

وكان عند ابي نؤاس ظرفٌ ورقةُ طبع. ورجل بهذه الصفات والشمائل لا نظن ان يصلح لعمل يدوي، ناهيك عن امتشاق السيف وخوض الحرب، ولكن ليس بالضرورة ان «يحكمه حكم النساء والخصيان» كما يقول العقاد متحاملاً (٥٦). لماذا لا نقول ان هذه الشمائل ولدّت عنده روحاً متسامحة تنبذ العنف والقسوة، وتظافرت، سوية مع وضعه الهامشي في المجتمع وروحه الشاعرية، لخلق فلسفة تحبذ السلم وتحث على التسامح وتمقت العنف بكل اشكاله.

ان ابا نؤاس رجل تأمل وليس رجل فعل. وقد تأمل في الحياة والكون والانسان والتاريخ، واستفاد من تأمله عظةً وفلسفةً. ويبدو انه استنتج انه رجلٌ خلقَ للفن والابداع وليس للمعارك السياسية، وعرف ان لا موطئ قدم له في تلك الصراعات السياسية الدامية اليومية التي كان شاهداً عليها.

ولقد تأمل أبو نؤاس في التاريخ القريب وراءه فهاله ما وجد: دماء ودماء ودماء. حروب ضارية وفتن واتهامات وأخرى مضادة وجز للرؤوس وصلب اصحابها في الشوارع. ولم تكن صلة الرحم أو عراقة النسب أو قوة القبيلة أو المنزلة الاجتماعية أو الورع والتقوى لتشفع لأولئك الذين تورطوا أو ورطوا في تلك الصراعات.

فقد قُتل اثنان من الخلفاء الراشدين والاسلام لم يصلب عوده بعد. وطُوقتْ المدينة وأستبيحت حُرمتها رغم مكانتها المقدسة عند المسلمين. وتقاتل علي بن ابي طالب وعائشة، وكلاهما من أقرباء النبي محمد. وقتل الحسين ولم تشفع له صلة رحمه بالنبي. وأباح مروان لعبيد الله بن زياد نهب الكوفة، اذا هو ظفر بأهلها، ثلاثاً» (٥٧). وعندما دخل الحجاج الكوفة تجرع العراقيون على يديه سموم العذاب. فارغمهم على خوض الحروب، استناداً لفلسفته القائلة: «ولولا انهم يغزون كرهاً ما غزوا طوعاً». وفرض عليهم منع التجمهر فأمهرهم بعدم السير جماعات (أياي وهذه الزرافات، لا يركبن الرجل منكم الا وحده). ولجم افواههم فمنعهم من قول ما يفكرون به ويرتدونه، فامرهم بترك «الأرجاف، وكان وكان، واخبرني فلان عن فلان» (٥٨). فحصد من سياسته تلك حقد العراقيين وكراهيتهم له، سوى قلة من الانتهازيين أو كما يسميهم الحسن البصري آنذاك «ذباب طمع وفراش نار».

أما في ايام ابي نؤاس فان دولاب العذاب لم يتوقف. فقبل ولادة ابي نؤاس باربع سنوات نفّذ السفاح مجزرة جماعية بالأمويين لم ينج منها سوى عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، ثم علّق جثثهم في بستان قريب حتى تأوي جلساؤه بروائحهم، فكلموه في ذلك فأجابهم: والله لهذا ألذّ عندي من شم المسك والعنبر (٥٩). وبعد ذلك، كان ابو نؤاس يشاهد عن قرب كيف كانت تتهاوى رؤوس القادة والوزراء واعيان البلد، فتصفى اموالهم وتحرق جثثهم وتفصّل على جذوع الاشجار. فقد قتل الرشيد جعفر البرمكي وأمر فقُصلت جثته على ثلاث جذوع، ثم أمر بالنضاحات، فتضح عليه، حتى أحرق على آخره (٦٠). وحبس الأمين عمه ابراهيم بن المهدي في سرداب واغلقه عليه. وكان القاسم بن الرشيد هارون، الذي نادمه ابو نؤاس ، يتسلى، بعض الاحيان، بترويع الناس الابرياء، دون ذنبٍ يقترفونه، سوى اشباع رغبة سادية له. فقد طلب في احدى المرات، باخراج الاسود على الناس وهم عُراة في الحمام وظل هو ضحك عليهم.

هل كان بمقدور ابو نؤاس ان يزج نفسه في تلك الصراعات السياسية أو يلزم نفسه بألتزام؟ واذا فعل من سيشفع له؟ حسبه أم نسبه أم وضعه الاجتماعي؟ وحتى اذا اراد الابتعاد عن البلاطات والاعتزال عن الحياة اليومية والامتناع عن قول الشعر، فانه على الارجح لن يستطيع ذلك (٦١). ويبدو ان ابا نؤاس قرر بوعي واصرار ان يسلك طريق

اللاأنتماء، وكان شعاره النضالي «التبطل»، أي التمرد السلبي.

قلتُ الطغاة؟ فقال لي: لا تغزهم
حتى ولو انهم قربوا من الايثار

وعن الحرب كان موقفه كما يلي:

وهمّي اذا حروبهم غلبت   أي الطريقين لي إلى الهرب

هل هذا موقف جبان لرجل مهزوم يكره وطنه الذي عاش فيه والقوم الذي نشأ بينهم؟ ألا يتناقض هذا الموقف مع ما قلناه عن مطالبته بتطبيق العدالة الاجتماعية والانتصار لضعفاء الناس؟

لانعتقد ان ابا نؤاس جبان. فقد عرف الطريق الى السجن السياسي، مثلما فعل (جان جينه) الذي جاء بعده بقرون لأسباب شخصية أو لمواقف فردية كان يتخذها وتخص سلوكه اليومي الاخلاقي. ولهذا فان الهامشيين في المجتمع العباسي هم الذين كانوا يزورونه في سجنه. وكان هو على قناعة بانه لم يرتكب جرماً: «وبلا أقتراف معظل حبسوني».

ولم يكن ابو نؤاس يكره المناطق التي عاش فيها ولا الناس الذين عاش في اوساطهم. فهو يكن حباً، بل عشقاً للبصرة والكوفة وبغداد، ويذكر ايامه الحلوة التي كان يقضيها في عقرقوف ويتذكر الاكراد وبساتينهم وجبالهم وخمرتهم المعتقة ويتذكر مزاحه مع اهل مدينة هيت ويطري ظرف أهلها (٦٢).

وهو لا يصبر طويلاً عند مفارقته العراق: «ولي نحو اكناف العراق حنين» والعراق الذي يحن اليه ابو نؤاس هو الفئات الدونية في المجتمع العراقي: شذاذ بغداد. ولكنه لا يعتبرهم شذاذاً.

إذن، كيف يعلن ابو نؤاس عن موقف سلبي ازاء الحرب والطغاة؟ أليس معنى ذلك ان يترك البلد الذي احبه فريسة بيد الاعداء ويترك «شذاذ بغداد» وفقراءها عُزلاً يسيمهم الطغاة عذاباً. هل يشترك ابو نؤاس في الحرب، أم لا؟ واذا اشترك فيها، أليس معنى ذلك اقراره بالعنف الذي يشجبه وأدامه لتلك الحرب. اذ ان المشاركة بحرب ما، معناه، فلسفياً وسياسياً، إدامة تلك الحرب والمشاركة بقتل أبرياء لم نشاهدهم من قبل ولم نعرفهم شخصياً (٦٣). واذا لم يشارك، أليس هذا يعني، كما قلنا، ترك الوطن ومصيره بيد اعدائه؟

انها معضلة اخلاقية وفلسفية، فكيف كان جواب ابي نؤاس حولها؟ يبدو ان ابو نؤاس يفرّق، مثلما فعل بعده تولستوي، بين الحب العفوي للوطن وبين التعصب الأعمى

له. فقد كتب تولستوي اثناء الحرب الروسية ـ اليابانية، ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥: «انني لا استطيع ان اتجاهل الشعور بالاسف وانا اسمع هزيمة الروس امام اليابانيين». ولكن تولستوي نفسه كان يسمي التعصب الاعمى للوطن خيانة كبيرة (٦٤). وقد تكرر هذا الموقف لدى كثير من المثقفين الاوروبيين من دعاة السلم اثناء الحروب التي خاضتها بلدانهم. وكان ذلك موقف ابي نؤاس . فقد كان مسؤولاً، ولكن مسؤوليته تكمن امام ضميره فقط وليس ازاء الجماعة. ولكن موقفه ليس موقف البراغماتي، النفعي الذي يطلب السلامة بأي ثمن. فهو لم يأكل على مائدة أحدٍ، كان يأكل لقمته التي يشتهي ويصلي صلاته التي يريد ويراها هو صحيحة:

مالي وللناس كم يلحونني سفهاً   ديني لنفسي ودين الناس للناس

كان ابو نؤاس متفرداً في حياته مثلما في ابداعه. ليس عنده كشف حساب يقدمه لأحد ولم يطالب احداً ان يقدم له ذلك:

لم اشرك الناس يوم العيد في الفرح
ولا همُ أشركوني في جوى الترحِ

وهذا ليس موقفاً أنانياً لرجل جرحته الحياة فحولته عصابياً يحقد على البشر، وانما هو موقف القديس المخذول الذي لم يجد لتعاليمه تطبيقاً في المجتمع.

ومثلما تأمل ابو نؤاس في التاريخ، تأمل في الدنيا ايضاً. فماذا رأى؟ لقد وجد الدنيا «عروساً». وكان عليه حتى يفوز بجمال هذه الفاتنة وغوايتها، أما ان يتزوجها فيتحمل آنذاك مسؤولية ازاءها والمجتمع والتعاليم الاخلاقية والدينية التي تؤطر علاقة الزواج تلك، أو ان يدير ظهره لها. وبوعي بلوّري قرر ابو نؤاس ، وهو لم يبلغ الحلم بعد، ان يختار الطريق الثاني. اكثر من ذلك وعكسنا جميعاً، لأننا نفتقد صدقه وشجاعته وراديكاليته، أمسك هذا الفيلسوف الكبير بخصر تلك العروس ورفعها عالياً ثم طوّح بها نحو الارض لتتهشم قطعاً، وظل بعد ذلك يراقب اولئك الذين شغلوا انفسهم في جمع تلك الشظايا. وقد وجدهم اصنافاً: «اخو دعةٍ» و«آخر لاعب» و«ذو ذلة فقراً» و«آخر بالغنى عزيز» و«مكظوظ الفؤاد» و«ساغب» وربما كان ابو نؤاس هذه الاصناف كلها، لكنه لم يكن «أخا دعةٍ» قط.

كان ابو نؤاس لاعباً ولكن يعذبه ضمير لم يهجع ابداً:

فداو كلوم قلب أخيك ليلاً   فان فؤاده أبداً كلِمُ

وكان قلب هذا المبدع «مستودع السَقم» أما جسده فقد «أخنت عليه نوازع الهمم»، و«عساكر الحزن» سكنت روحه.

وكان ابو نؤاس ذا ذلة، ولكنها ليست ذلة الخانع الذليل، وانما ذلة الغريب في وطنه:

يا اهل بغداد اتقى ذي بحضرتكم   فكيف لو كنتُ بين الترك والخزرِ

وكان مكظوظ الفؤاد لان الشعر الذي اسلم له القياد لم يساعده في حل لُغز الحياة والكون والانسان. كان ابو نؤاس قلقاً، موزعاً، يسكنه وجع روحي عميق، أين منه الوجع البودليري:

بلى هُمومي ثقال   دقيقهن جليلُ

واذا كان بودلير قد كتب في (MON COEUR MIS A NU): انه يشعر بعزلة منذ طفولته رغم وجود العائلة والاصدقاء، ويرى انها عزلة ابدية فرضها القدر عليه، فان ابا نؤاس كان يعتقد انه خُلق ليواجه مصيره وحيداً. ومثلما كانت وحدة بودلير جعلته دائم الانحناء على ذاته مثل نرجس في الاسطورة، كما يقول سارتر (٦٥)، فان وحدة ابي نؤاس جعلته، وهذا شأن بودلير ايضاً، يرى كل الاشياء تبدو امامه تافهة، شاحبة وصغيرة.

ولم يكن ابو نؤاس ، لهذه الاسباب الفلسفية والسياسية والشخصية، قادراً ان يكون «مع» أو «ضد»، لأن من يكون كذلك يجب ان يتوفر عنده ايمان راسخ بقضية وخصال نضالية ذاتية، وأخرى خارجة عنه، تعينه للدفاع عن قضيته. ولم يكن ابو نؤاس مستعداً ان يموت من اجل قضيته مهما علت لكن هذا كله لم يمنعه ان «يناضل» على طريقته هو. وهنا يكمن الفرق بينه وبين المناضلين الشعراء من الشيعة والخوارج. هؤلاء سياسيون أولاً ومبدعون ثانياً - كان المحور الذي ترتكز عليه حياتهم هو القضايا التي ألزموا انفسهم بالدفاع عنها. أما ابداعهم الشعري فقد سخروه للدفاع عن قضاياهم. وقد اعلن السيد الحميري بوضوح تام انه يوظف شعره من اجل قضيته حتى لو قاده ذلك للتبسيط: «لأنني اقول شعراً قريباً من القلوب يلذه من يسمعه خير من ان اقول شيئاً متعقداً تضل فيه الاوهام» (٦٦). ونحن نجد عند دعبل الخزاعي ميلاً للتبسيط، حتى انه كتب قصيدة هجائية، كان احد ابياتها كلمة واحدة يرددها!

يا زاني ابن الزاني بـ   ـن الزاني ابن الزانية (٦٧)

ولا نظن ان لقب «سيد الشعراء» الذي أضفاه الامام الصادق على السيد الحميري كان

حكماً نقدياً فنياً، أنما هو مكافأة سياسية لنضالية السيد. وعندما كانت فاطمة بن الحسين تقول عن الكميت الأسدي: «هذا شاعرنا، أهل البيت» (٦٩). فأنها كانت تعني، على الارجح، جهاديته واستبساله في الدفاع عن آل البيت، اكثر مما تعني انجازه الابداعي. واذا كان الامر كذلك فهي على حق. اذ ان قصائده «الهاشميات» تعتبر (مانيفستو) في الدفاع عن آل البيت:

«فهم شيعتي وقسمي من الأمة حسبي من سائر الاقسام» (٧٠)

أما شعراء الخوارج فكانوا، اهم ايضاً، مقاتلين عاشوا حالة طوارئ استعداداً للذود عن ما يؤمنون به. وكانت الرغبة في الاستشهاد هي القاسم المشترك لأعمالهم الشعرية. ولعل حسنا بهم (أم حكيم) الخارجية خيرُ من عبرت عن تلك الرغبة فقالت:

أحملُ رأساً قد سئمتُ حملهْ

وقد مللتُ دَهنه وغسله

ألا فتى يحملُ عني ثقله. (٧١)

وكان الزهد بالحياة هو العامل المشترك الآخر لشعرهم. فقد قال شاعرهم عروة بن أدّية عندما قُدمَ ليُصلَب:

إذا جاء ما لا بدَّ منه فمرحباً به حين يأتي لا كذاب ولا عللْ (٧٢)

وكانت هاتان الفكرتان، الرغبة في الشهادة والزهد بالحياة، قدَ كُررتا كثيراً في اعمالهم الشعرية، فبدا فيها تكرار كثير وتشابه ليس من الصعوبة ملاحظته.

والنقطة الأخرى التي يختلف فيها ابو نؤاس عن هؤلاء وأولئك هي، انه كان وحيداً في حين انهم كانوا ينتمون لقبائل عربية مشهورة، يتعصبون لها ويلوذون بها وتدرأ عنهم كيد اعدائهم. فدعبل، مثلاً، كان ينتمي لقبيلة خُزاعة، وهي احدى قبائل اليمن المشهورة. وكان يفتخر بها ويتعصب لها. ويعتقد احد الذين تصدوا لدراسة هذا الشاعر ان «أفراط الرشيد في اكرام دعبل والتقرب اليه ـ دون سابق صلة ـ بسبب سياسي، لأستمالة خُزاعة الكبيرة اليه عن هذه الطريق» (٧٣). وكذلك كان الكميت. فهو ينتمي لقبيلة عربية كان يتعصب لها. وكان شعراء الخوارج، هم كذلك ينتمون لقبائل معروفة يتحمسون لها. فعندما قُتل مسعود الأزدي لأسباب سياسية، شنت الأزد وبكر بن غالب حرباً على تميم، فقال نافع بن الأزرق بهذه المناسبة: «ويَصلوا، بحرب الأزد، والأزد جمرةُ».

بالاضافة لذلك، كانت للخوارج علاقات نضالية توحدهم وتجمع شملهم ويستعينون بها على مواجهة الصعاب. وكانوا، كما وصفهم شاعرهم سميرة بن الجعد «عُصبة». وكان افراد هذه العصبة أو الحزب الخارجي لا يعبأون للفوارق، اذ لا فرق بين فقيرهم وصاحب الثراء:

وكذاك مشربهم ومقترهم أكرم مقترهم وبالمثري (٧٤).

أما ابو نؤاس فقد كان يعيش كفرد ويناضل كفرد ويتحمل مسؤوليته كفرد مبدع، ماله علاقة بالسياسة واحابيلها ومعاركها. ولم يكن ابو نؤاس يطمح لتغيير المجتمع بالمعنى السياسي. لكنه يؤمن ان العيش في أي مجتمع، وقبوله كما هو، يُعد خيانة يقترنها المبدع، لأن اي مجتمع، حسب فلسفة ابي نؤاس، هو قديم بالنسبة لما هو قادم. والمبدع الحقيقي عنده هو خيانة الواقع أو خيانة الخيانة. ما يسميه المجتمع رذائل هو عند ابي نؤاس جمال ضد قبح الواقع. ولهذا فانه كان طيراً يغرد خارج سربه وشاذاً على الجميع، في شعره، مثلما في حياته اليومية. حالة السكر الدائم والتغزل بالخمرة حد الوجد الصوفي، هو عنده رفض لما هو موجود أو هو تشبه بالحلم. السكر عنده يساوي التسامي والجمال واللاخيانة. أما الصحو فهو الواقع، وهو الغواية التي تقوده للتصالح مع الواقع، انه الغواية التي تقوده للخيانة. ولهذا، فلربما نجد صدقاً فنياً ووجدانياً في خمرياته وكذلك في طردياته اكثر مما نجده في قصائده الهجائية.

أبو نؤاس الوَجل، القلق، الهلع من جبروت السلطة والمجتمع صباحاً، يتحول اذا جن الليل الى ملكٍ يقود رعيته: «طرقتُ صاحب حانوتٍ بهم سحراً» لكنه ملك رقيق وعادل. ابو نؤاس يخلق في الخمارة، عالمه الذي يحلم به، سانّاً قوانينه التي هي بالضد من قوانين الواقع التي يتحكم به في النهار، انه ينتقي ندماءه من ذوي الشمائل الانسانية التي يريد لكل البشر ان يتحلوا بها. انهم متحررون من الملكية الخاصة: «مفلسون، يبيعون أثوابهم، ليسوا بذي بخلٍ، وليس لهم شغل بالدراهم. ليس فيهم «مستعبد اخوانه بثرائه» بل فيهمَ الكريم، المطير الكف، الذي «يهين رقاب المال». وهم فارهون للفتق، ميالون للتسامح والسلم ولكن بأنفة وكبرياء انسانيتين و«لا الصولجان ولا الميدان» يعجبهم. وهم بعيدون عن صغائر الأمور: «خُرسٌ عن الخنا وعميٌ عن العوراء». وهم في قمة التواضع الأنساني «تنزه عن الكبر» رغم انهم شمُّ الأنوف». وليس فيهم «اللئيم والسّفال» ولا «الأراذل» ولا «من يجعل الأدبا» وليس فيهم «سفيه أو خرق ولا افوز زلل». وفي هذا المجتمع النواسي تذوب كل الفوارق: (وندامي كرامٌ - كلهم زين لزين).

انه المجتمع اليوتوبي، المستعصي على التحقق. ولكن حلم ابي نؤاس، لا يمكث ان يتبدد عندما تموت آخر خيوط الليل وتغلق الخمارة ابوابها. آنذاك يتحول ابو نؤاس الملك الى رقم ضمن ملايين الأرقام التي تواجه الواقع بقسوته وعُريه. فما الذي بمقدور ابي نؤاس ان يفعله (نعم الفعل وليس التأمل)؟ هنا أيضاً لا تخذله الشجاعة ويحاول ان يواجه الواقع بأقصى قد من التفرد والصدق.

ان أبا نؤاس يعترف، لأنه يحيا في مجتمع محدد وليس على سطح المريخ، بما يسميه

المجتمع «ذنوباً». لكن ابا نؤاس يقسمها الى ذنوب خسيسة وأخرى نبيلة. ويدعو، اذا أضطر، لاقتراف الثانية. فقتل الاناس واضطهاد الاخرين ومصادرة حقوق الانسان، والثراء الفاحش على حساب الآخرين، والنفاق الاجتماعي والاخلاقي والتفريق بين الناس لجنسيتهم ولغتهم وعرقهم، والتعصب الأعمى للأفكار والمتاجرة بالابداع، هي كلها ذنوب خسيسة لم يقترفها ابو نؤاس ولم يدع لأقترافها.

أما الذنوب النبيلة فهي تلك التي تضعه، كما اسلفنا، امام مسؤوليته. وعندما اراد ابو نؤاس ان يتحمل وزر مسؤوليته، فانما ليقول لنا، نحن الذين ندعي العفة ونتظاهر بصوتها، أو نتظاهر بالبكاء على مآسي الانسانية وتثرثر كثيراً حول الظلم ونشجيه، بأننا لسنا أبرياء وان عفتنا زائفة، وتظاهرنا هو ادعاء ليس اكثر. اراد ابو نؤاس ان يضع الجميع امام مسؤولياتهم. أما ان نغمض العين ونرى ونتظاهر، اننا لا نرى أو نواجه المشكلات كما هي.

ان الدرس الكبير الذي اراد ابو نؤاس ان ينقله لنا (هذا اذا كان يدعي الموعظة) هو ان الكون يتجدد والحياة تتجدد وعقل الأنسان يجب ان يكون مستعداً دائماً لاستضافة كل جديد. أليس ابو نؤاس الذي يقول:

أبداً ما عِشتَ خالف   دأب قوم بعد قوم

هوامش

١. فتوح البلدان، ٢٩١.
٢. أحسن التقاسيم للمقدسي، ١٣٣.
٣, ٤, ٥، ٦، ٧. ابن منظور، اخبار ابي نؤاس، ص٤٠، ٣٩، ٤٥، ٣١١.
٨. حديث الاربعاء، ٣, ٩٠.
٩. ابو نؤاس الحسن بن هانى، دراسة في التحليل النفساني، ١٤٤.
١٠. ابو نؤاس، قصته حياته وشعره، ١١٦.
١١. النقد المنهجي عند العرب، ٧٢.
١٢. د. حسين عطوان، الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول، ١٩٣.
١٣. نقلاً عن هامش القاضي عبود الشالجي، محقق كتاب الفرج بعد الشدة، ٢/٢٥١. وقد ذكر الاستاذ الشالجي في هامشه، بعض اسماء خلفاء بني أمية وبني العباس الذين كانوا يشربون الخمر. الأسلام حرّم الخمر واعتبرها في الآية القرآنية «رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون».
١٤. ياسين عساف، الصورة الشعرية ونماذجها في ابداع أبي نؤاس، ٨٤.
١٥. ديون ابي نؤاس، ٥٨٣.
١٦. ديوان ابي نؤاس، ٦٠٩.

١٧ـ قال السيد الحميري: «تجعفرتُ باسم الله والله أكبر».
١٨ـ البخلاء، ٧٧. وكذلك: المقدمة التي كتبها هبة الدين الشهرستاني لكتاب فرق الشيعة.
١٩ـ أبن منظور، اخبار ابي نؤاس، ٣٠٥.
٢٠ـ ديوان ابي نؤاس، ١٦٨.
٢١ـ ديوان ابي نؤاس، ٢٦٧.
٢٢ـ ديوان ابي نؤاس، ٧٦ هذا والابيات التي سنوردها لأبي نواس هي من نفس الديوان..
٢٣ـ الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول، ١٩٢.
٢٤ـ ابو هفان، اخبار ابي نؤاس، ١٠٨.
٢٥ـ سورة التوبة.
٢٦ـ سورة التوبة.
٢٧ـ سورة الفتح.
٢٨ـ سورة التوبة.
٢٩ـ سورة الحجرات.
٣٠ـ شرح منهج البلاغة، ١٦/ ٢٢٠ ـ ٢٢٣.
٣١ـ للأستزادة، بالامكان قراءة العديد من السور القرآنية ومنها: فاطر، ياسين، الصافات، الزمر، الزخرف، الفتح، الواقعة.
٣٢ـ يروي الأبشيهي في المستطرف في كل من مستظرف، مُلحاً ونوادراً كثيرة عن الاعراب، ولكنها ذات اهمية، اذ تكشف لنا جوانباً من عقلية الاعرابي وطريقة تفكيره وسلوكه اليومي. فهذه نادرة عن براغماتية البدوي واستحسانه لما ينفعه في حياته اليومية:
ولزم اعرابي سفيان بن عيينة مدة يسمع منه الحديث، فلما جاء ليسافر قال له سفيان: يا اعرابي ما أعجبك من حديثنا؟ فقال ثلاثة احاديث. حديث عائشة رضي الله تعالى عنها عن النبي محمد (ص) انه كان يحب الحلوى والعسل، وحديثه عليه الصلاة والسلام: اذا وضع العشاء وحضرت الصلاة فأبدوا بالعشاء، وحديث عائشة عنه ايضاً: ليس من البر الصوم في السفر».
٣٣ـ ديوان الخوارج جمع وتحقيق د. احسان عباس، ١٣٦.
٣٤ـ صدقات ابن سعد، ٨٥/٦. نقلاً عن د. يوسف خليف، حياة الشعر في الكوفة الى نهاية القرن الثاني للهجرة، ٤٩.
٣٥ـ حياة الشعر في الكوفة، ٤٨.
٣٦ـ حياة الشعر في الكوفة، ١٥٩.
٣٧ـ الفرج بعد الشدة، ٤٦/١.
٣٨ـ الفرج بعد الشدة، ٣٠٦/٣.
٣٩ـ الأغاني، ١٥٣/١.
٤٠ـ الاغاني، ٢٦٥/١٥.
٤١ـ الاغاني، ٣٢٣/١٥ ـ ٣٢٤.
٤٢ـ د. عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الأول، ١٧٨.
٤٣ـ الطبري، ٢٤٤٢/٥/١. نقلاً عن حياة الشعر في الكوفة، ٢٧.
٤٤ـ ديوان البحتري ج١، ص ١٩١ ـ١٩٢.
٤٥، ٤٦، ٤٧ـ ابن منظور، اخبار أبي نؤاس ٢٧، ٣٥.
٤٨ـ محسن الناظر، مسألة الامامة والوضع في الحديث عند الفرق الاسلامية، ١٩٤.
٤٩ـ سورة النساء.

٥٠. نقلاً من د. شوقي ضيف، العصر الاسلامي، ٢٠٩.
٥١. الطبري ٥/٣٠٣، ٣١٢. وفي الفرج بعد الشدة ٣/٢١٧: بينما كان خالد القسري ذات يوم في منزله، إذ أتاه رسول هشام بن عبد الملك يدعوه لولاية العراق، فتلوم فاستحثه الرسول. فقال له خالد: رويداً حتى يجف قميصي، وقد كان غسله قبل موافاة الرسول، ولم يكن بقي له غيره. فقال له الرسول: يا هذا، أسرع في الاجابة، فأنك تدعى الى قمصان كثيرة.
٥٢. حياة الشعر في الكوفة، ١٨٥. وكان قول سعيد بن العاص قد أثار غضب الأشتر النخعي فردّ عليه بقول «اتزعم ان السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك؟ والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيباً إلا ان يكون كأحدنا».
٥٣. الاغاني ١٥/٢١١.
٥٤. الاغاني ١٥/١٤٣.
٥٥. ابن منظور، اخبار ابي نؤاس، ١٣.
٥٦. ابو نؤاس الحسن بن هانئ: دراسة في التحليل النفساني، ٩٣.
٥٧. المسعودي، مروج الذهب، ٣/١٠٥.
٥٨. حياة الشعر في الكوفة، ٨٠.
٥٩. الاغاني ٤/٣٤٦.
٦٠. العقد الفريد ٥/٦١. وفي احدى المرات أمر الرشيد قصاباً بتفصيل جسد أخ لأحد الثائرين عليه بمدى كليلة، زيادة في تعذيبه، ثم أمر بعد اشلائه. فاذا هي اربعة عشر شلواً. ثم رفع يديه الى السماء، وحمد الله على ذلك.
وقتل المنظور، في احدى المرات، أحد الابرياء وهو يعلم براءته، لانه احتاج الى رأسه ليبعث به الى خراسان على انه رأس النفس الزكية بعد ان كتب له واليه هناك بأن أهل خراسان تقاعسوا عنه.
٦١. عندما ترك ابو العتاهية قول الشعر، أمر المهدي بحبسه في سجن الجرائم، وطالبه بالتراجع عن موقفه، فأبى ابو العتاهية. ولكن عندما أمر المهدي بقطع رأس سجين سياسي كان في نفس السجن مع ابي العتاهية، وكان هذا السجين قد امتنع عن الاعتراف وأفشاء اسرار تخص الآخرين، ألتفت بعد ذلك لأبي العتاهية وقال له، هل تصر الآن على رأيك فاجابه ابو العتاهية على الفور انه عاد لنظم الشعر.
ولمعرفة جبروت السلطة السياسية آنذاك وخوف المبدعين منها وتملقهم اياها، نورد هذه القصة وفيها من التراجيديا اكثر مما فيها من الطرافة: سئل العُتابي، وهو احد الشعراء المعروفين آنذاك، عن سبب غضب الرشيد عليه، فقال استقبلت منصور النميري يوماً فوجدته مغموماً، فسألته عن حاله، فقال: أمرأتي تطلق وقد عسرت ولادتها. فقلت له: ألا أدلك على ما يسهل عليها؟ قال: وما هو، قلت اكتب على بطنها هرون الرشيد، فقال: ليكون ماذا؟ قلت: لتلد على المكان، ألست القائل فيه:

أن أخلف القطر لم تخلف مراهبه
أو ضاقَ أمرٌ ذكرناه فيتسعُ

فقال لي: أيا الخلفاء تعرّض، وفيهم تقع، وأياهم تعيب، واخبر الرشيد بذلك فغضب، وأمر بطلبي (العقد الفريد ٥/٣٣٥، الاغاني ١٣/١٤٨).
٦٢. عن عقرقوف قال:

رَحلنَ بنامن عَقَرقُوفَ، وقد بدا
من الصبح مفترق الأديم شهيرُ

وعن الاكراد:

هتّقها الكرديُّ في مجلسٍ — بين بساتين واجبالِ
إبريقه في كفه مُترعٌ — مُفْتَرِفٌ مِن ذَوْبِ جريانِ

وعن أهل هيت:
وعندنا ضاربٌ يشدو فيطربنا
«يا دار هند بذات الجزع حُييت»
من أهل هيتٍ، سخيّ الجرم، ذي أدبٍ
له أقول مزاحاً: هاتِ يا هيتي

٦٣. في هذا المجال، يُعتبر ابو دلامة المتوفي سنة ١١٦هـ، تجسيداً لهذه الافكار. ان ابا دلامة انسان هامشي، فهو عرقياً، اسود اللون وقد ولد لأبٍ عبد لبني أسد. وقد عُرف ابو دلامة بروح النكتة والسخرية، واتخذهما طريقاً لتحقيق ما يؤمن به من افكار ولضمان عيشه ايضاً. إذ ما دام المدح للخلفاء هو الطريق الاسلم لضمان العيش، فلماذا لا يسلكه ابو دلامة وغيره من الشعراء. وفي واقع الامر، فان ابا دلامة كان يستغبي السلطة السياسية ويضحك على ذقنها. فهو، مثلما هي حالة ابي نؤاس، يدرك ان الحروب التي كان شاهداً عليها، ليست حروبه هو، لأنه يؤمن ببعده عن تلك الصراعات. إذ ان العدو عند ابي دلامة هو ذاك الذي يسبب له خسارة شخصية، وما عدا ذلك فليس له اعداء سياسيون أو آيديولوجيون.

٦٤. Peter Brook, Pacifism in Europe To 1914-1918, P. 459.
٦٥. J.P. Sartre Baudlaire, p.25
٦٦. الاغاني، ٢٦٨/٧.
٦٧. ديوان دعبل الخزاعي، تحقيق عبد الصاحب عمران الدجيلي، ٣١٢.
٦٨. فرق الشيعة، ٢٩.
٦٩. الاغاني ٢٧/١٧.
٧٠. القصائد الهاشميات والقصائد العلويات للكميت بن زيد الأسدي وابن ابي الحديد المعتزلي، ٢٢.
٧١. ديوان شعر الخوارج، ١٤٢.
٧٢. ديوان شعر الخوارج، ٦٦.
٧٣. مقدمة عبد الصاحب الدجيلي لديوانه دعبل الخزاعي.
٧٤. ديوان شعر الخوارج، ٢٤٦.

***

يوبيلية سعدي يوسف

في ٣١ آذار سيبلغ الشاعر سعدي يوسف الستين من عمره. واسهاماً في الاحتفاء بهذه المناسبة تعد مجلتنا ملفاً للعدد القادم عن مسيرته الابداعية. وهي تشارك محبي شعره التمنيات له بالعمر المديد واغناء ثقافتنا الديمقراطية بمزيد من عطائه الجميل.

خواطر من «البلاد البعيدة»*

عامر بدر حسون

من على الرصيف جمعت وطني صورة صورة.

لم أعثر عليه في المكتبات الكبرى أو في مراكز البحوث والخدمات. هنا.. على هذه الأرصفة التي افترشها وراقو القرن العشرين وقفت طيلة سنوات بانتظار صورة.

خمسة عشر عاماً احتجتها كي أجمّع صور الوطن الذي نأى عن أهله في فوضاه وحروبه وقسوته.

كان عليّ ان أزيح من ذهني كل ما يشوه صورة «أول منزل».. وان أفتح عيني على صورة من أزمنة اوغلت في التلاشي حتى عادت مثل الحلم.

كل يوم كنت ازور الأرصفة. وكان اصدقائي، باعة الكتب على الأرصفة، يعرفون كيف يسرونني: مجلة قديمة ربما تجد فيها ما تريد.. ربما صورة لبلادك!

وتجمعت لدى آلاف المجلات والصحف العربية والاجنبية القديمة. أحدث تاريخ فيها يعود لمنتصف القرن.

كان الوطن ينأى في التخريب والاعمار: تختفي احياء لتحل محلها أحياء جديدة. تتبدل صورة المدن لتأخذ شكل مدن حديثة يطغى عليها إله المدن العصرية الجديدة.. الاسمنت! وكان القادمون من هناك يرددون بمختلف الصياغات هذه «البشرى»:

- لو عدت الى بغداد فلن تتعرف عليها. كل شيء تغيّر فيها!

وفي الذهول كنت اسأل بسذاجة:

- واللقالق؟ أما زالت موجودة؟!

---

* مقدمة «كتاب العراق» الذي سيصدر قريباً.

فكان من يصغي اليّ يظن انني اسخر أو اسأل عن شيء يشبه الديناصورات!

واللقلق، كطائر، قد لا يكون جميلاً. لكنه في نهاية الأمر، وقبل كل شيء، جزء أساسي من الذاكرة والحياة التي كانت. الجدول الصغير والنهر الكبير.. الأزقة والمحلات القديمة، الربل والترامـوي (الگاري)، محطة القطار و(الفاركونات)، الدوبة والجسر الخشبي، المدرسة الأولى والشارع القديم، مقتنيات البيوت ومعروضات البسطات والمحلات، الخطي المسترخية والانتظار الرضيّ وكل ذلك الاستسلام السمح لايقاع تلك الأيام ، هذه وغيرها كثير، شأنها شأن اللقالق، قد لا تكون هي الأجمل، لكنها أولاً واخيراً مكوّنات الذاكرة والروح الأولى.

كيف يمكن استعادة هذه الروح والاشياء في هذا التيه المديد والمتواصل؟ ان الكلمات، شعراً ونثراً، قد تملك القدرة على التوثيق والبعث لأدقّ وأرقّ المشاعر لكن.. من قال ان الكلمات محايدة ودقيقة؟ من يضمن ان استعارة الذاكرة المكتوبة ونقلها من كاتب لآخر يمكن ان يوصلها كما هي دون اضافات من الناقل؟

حتى اللوحة الفنية تعبّر عن رأي أو رؤية صاحبها أكثر مما تعبّر عن الواقع. فهل تتحول صورة البلاد البعيدة الى أرض ميعاد أخرى مشغولة بالحليب والعسل؟ قد يكون هذا جميلاً للوهلة الأولى. لكنه في النهاية ضد أشياء عديدة: ضد التاريخ وضد الحقيقية، ضد الواقع الذي ما زال محتداً هنا وهناك.

ومن بين جميع هذه الوسائل تقف الصورة الفوتوغرافية مميزة في حياديتها وانشغالها بتصوير المكان والحياة كما هي.. في هذه اللحظة.

اجل.. ان زاوية الكاميرا قد تعبّر عن رأي ما ، عن وجهة نظر ورغبة في ابراز شيء واخفاء آخر، لكنها رغم ذلك تبقى الأكثر حيادية.. الأكثر عناداً:

- الحياة كانت هنا ، في هذه اللحظة، ومن هذه الزاوية كما تراها الآن في الصورة. كما تراها الآن وليس أي شيء اخر. الشيء الآخر خارج عين الكاميرا.

لكن.. أين الصورة؟

اين الصورة التي توثق الحياة في المدينة العراقية قبل قرن أو نصف قرن؟ أين الصورة التي تؤكد ما قرأناه عن الاحداث والتفاصيل في الحياة اليومية والسياسية؟

هل ثمة مرجع مصور في العراق أو خارجه يمكن اللجوء اليه من قبل الباحث أو الدارس ليعمق دراسته أو ليقدمه للقارئ؟ في الحقيقة لا شيء من هذا. وقد لا اكون مبالغاً اذا قلت ان تاريخ العراق، منذ اختراع الكاميرا وحتى الآن، لم يشهد معرضاً للصور القديمة التي توضح وتؤرخ حياته الماضية. ولم يصدر فيه كتاب، أو حتى كراس صغير، يوثق بالصور فقط، أو بشكل أساسي، الحياة في المدينة القديمة.

ولي حصتي من هذا الخراب أو التقصير. لي «ريادة» انني احاول ان اضع بين يدي القارئ كتاباً ومعرضاً للصور القديمة. لكنني اشعر بالأسف ان تكون الريادة بهذه السهولة: غياب الآخر المزود بالمصادر والاماكن والامكانيات، فكانت محاولة هذا الكتاب. غياب الآخر هو الذي شكّل قوة حضوري. لا أقول هذا تواضعاً أو انتقاصاً من جهد البحث طيلة سنوات في المنفى. انها الحقيقة بكل أسف. ولا رغبة عندي ببناء مجد زائف في زمن فقدت فيه كلمة المجد معناها الحقيقي أو كادت.

انني أنظر برعب وخجل الى هذه الحقيقة: نحن في اواخر القرن العشرين ولا يوجد كتاب مصور لدينا عن العراق إسوة بأصغر قرية في العالم.

***

ولا بد من القول ان للسياسة دوراً في هذا. فمنذ منتصف القرن فقد العراق استقراره، إن سلباً أو ايجاباً (وينبغي القول ان العراق كان يعيش منذ ٤٠٠ سنة تقريباً حالة فقدان استقرار) وكان الحكام يتصرفون، ببحثهم عن الخلود، كحكام عابرين. كانوا قليلي الوعي بأهمية الماضي أو التراث، والانسان عدو لما يجهل، ولطالما شعروا، لهذه الاسباب، انهم مهددون من ذلك الماضي أكثر مما هم مهددون بالمستقبل. لذلك.. خاضوا معركة الحاضر كغرباء أو اعداء لكل ما سبقهم. والحال ان ما خضع للتوثيق كان في عداء من الماضي بشكل أو بآخر، ولا يمكنك ان تجد في العراق، على سبيل المثال، حجراً على مدرسة أو جامع أو شارع يشير الى انه افتتح من قبل ملك أو حاكم سابق.

وبحكم سيطرة الحكومات على وسائل الاعلام والثقافة، فان الحاكم، بعدائه للماضي، أو هربه للمستقبل (حيث الخلود!) كان يوعز باصدار الكتب المصورة لهدف واحد هو إبراز منجزاته وما فعله للبلاد والعباد: صور جماهير في مسيرات ضخمة ويد الحاكم تلّوح لهم علامة الرضى عن النفس.. وعنهم! ثم صور الحديد على شكل مكائن ومعامل باعتبارها ذروة التحديث والتنمية ثم.. صور الاسمنت الذي جاء على شكل بيوت معلبة عمودياً.

لقد جمعت عشرات الكتب السياحية التي صدرت منذ نصف قرن تقريباً فلم أجد فيها ما يشبه كتابي هذا. الحديد والاسمنت بقي كما هو أو زاد قليلاً أو كثيراً، صور الجماهير بقيت كما هي في «تأييدها» للحاكم ولم تتبدل غير صورة الحاكم.

كانت ضحية هذا الوضع هي العمارة القديمة التي تلخص أو تقدم فكرة عن نمط الحياة، ولست معمارياً لأسهب في هذا، لكنني اعرف، أو أحسّ، ان نمط العمارة السائد لا يعبّر عن نمط حياة الناس فقط وانما يؤثر فيها، لوناً وزخرفة وفراغاً. وقد أبالغ فأقول انني

استطيع معرفة اشياء معينة عن شخص ما من خلال المدينة التي يعيش فيها، اعني من خلال العمارة التي ألفها! لكن هذا مجرد زعم أو مبالغة. فالانسان لا يأخذ شكل الاناء الذي هو فيه، انه عصي على التأطير.

رغم ذلك اشعر بالحاجة لاثبات شيء من هذا الزعم. كيف؟ لا أدري.. غير انني أريد الاستعانة بتجربة شخصية:

من بين كل البلدان التي زرتها أو عشت فيها، استهوتني فكرة العيش، أو النفي، في مدينة دمشق. قررت هذا منذ أول زيارة لها. وقد احتجت الى وقت طويل لاعرف لماذا اخترتها. انها ذاكرة المكان. فانت لا تألف مكاناً بسهولة إن لم تجد في ذاكرتك ما يشبهه، وبمضي الوقت وجدت انني كنت افتش عن بغداد وعن مدن عراقية أخرى في دمشق. وكنت أجد بعض هذا!

في دمشق القديمة تحديداً، كنت أرى عتبة باب البيت والدربونة والجدران التي توشك على عناق بعضها والاسواق المسقفة، وكنت أرى سكان المدينة القديمة وباعتها واصواتهم فأجدها مختلفة عن دمشق الحديثة فتهدأ روحي قليلاً، ويقل احساسي بالغربة وانا أجد ما يذكرني بمدينتي في هذه الأزقة.

قد لا يجد العابر أوجه شبه بين دمشق وأية مدينة عراقية، لكنني وجدت هذا التشابه (أو ابتكرته!) وذات مرة اوقفت زوجتي في مدخل زقاق دمشقي قديم ودعوتها لملاحظة الشبه بينه وبين زقاق في العراق. فقالت: لا شيء من هذا! انك تضفي على المكان ما يحببه اليك ويهدئ من احساسك بالغربة!

لعلّها مصيبة، ولعلني مصيب أيضاً. لكنني أود ان اقول انك إن لم توجد علاقة ما لك بالمكان، من خلال الاستعانة بالذاكرة، فان الألفة مع هذا المكان تبدو صعبة.

ثمة من يقسم الذاكرة الى اقسام، منها ذاكرة الرائحة، وذاكرة الصوت، ذاكرة الصورة والمكان، وغيرها.. تشم رائحة فتتذكر أخرى وترى مكاناً فتتذكر آخر. ولعلني خارج هذه كله. لعلني اقول وأرى هذا لمجرد رغبة في داخلي بسرعة الوصول الى مدينتي الأولى.

***

لقد طاف الرحالة والمستشرقون والمستعمرون في بلادنا وكانت في أيديهم الآلة العجيبة، لكن حصتنا من التصوير الفوتوغرافي لم تكن جيدة كما هو الحال مع مصر ولبنان وسوريا والمغرب العربي وبلاد الخليج. واستطاعت العديد من الدول السعي لماضيها والبحث عن صورها لكن العراق لم يفعل هذا (حتى منتصف السبعينات لم يكن ثمة

قانون ينظم، بدقة، ما هو أثري لا يجوز التلاعب به، وما هو غير ذلك، باستثناء الآثار القديمة جداً).

وها أنا أحاول، دون تخصص، القيام بشيء ما في هذا المجال. أحاول جمع صور المدينة العراقية القديمة في كتاب. احاول هذا واعرف ان عليّ تقديم اعتذار في كل خطوة في هذا المجال. ولقد قيل لي ان من الجنون محاولة جمع صور قديمة لبلاد بعيدة من ارصفة بلاد بعيدة لكنني كنت قادراً وراغباً في هذا النوع من الجنون، وإن بقدر محدود ترون بعضه في صفحات هذا الكتاب.

وبمضي الوقت تجمعت لدي مئات الصور المتناثرة في مجلات وجرائد وكتب قديمة. ثم ان مكتبتي ضاقت بها. اتستطيع اخفاء وطن في غرفة أو على رفوف مكتبة خاصة؟

ماذا أفعل بهذه الصور؟

لقد كانت في مكتبتي وقرب وسادتي، وكانت أيضاً متعة بتصرف ضيوفي: يأتون فأحسن ضيافتهم بعرض بعض صور البلاد عليهم فيقول الواحد منهم:

- لقد سبحت في هذا النهر كل طفولتي!
- لقد كنت أمر بهذا الشارع كل يوم!
- انها مدرستي القديمة!

وكان ثمة من يصرخ، مشيراً الى مكان خارج الصورة، خارج الصورة تماماً:

- هنا بيتنا!

هكذا يمتد المكان ويتسع خارج إطار الصورة، وهكذا تنثال الذكريات فتسمع حكاية قديمة أو تتذكر لعبة أو يداهمك صدى اغنية حزينة في غروب بعيد.

ترى صورة المدينة، ترى مقطعاً صغيراً منها، وتعرف تماماً انه بعيد عن بيتك أو حياتك الطفلة، فتفتش عن آثار خطاك ووقعها على الأرض وتقترب من ضجيج مدرستك ودفء الأهل واصدقاء اللعب في الأزقة.

وفي لحظة حماسة مفرطة لأيام الطفولة، وهجاء لايقاع ايامنا الحالية، حيث لا فرصة للتأمل استطيع الزعم ان العودة، عبر صورة أو كلمة أو ذكرى تنتمي الى تلك الايام هي عودة الى ذلك الانسان الذي صار في ايامنا هذه مهدد بالسحق والتلوث.

استطيع هنا ان اتحدث عن الصورة التي تخصني: بيتي، مدرستي، شارعي، محلتي، مدينتي، السينما، الحديقة، النهر، غروب الشمس، اصوات الباعة، نحنحة أبي ولمسة أمي، صوت المؤذن، العاب الطفولة والصبا والشباب. استطيع ان اتحدث عن أي شيء فيها لزمن مديد. لكن لا أحد سيصغي لي. لا أحد على الاطلاق. فمن يقرأ أو يصغي أو يشاهد، وفي ذات اللحظة التي أقول فيها كلمة «دربونة» أو «طرف» سينسحب الى بيته

القديم وسيضيع، كما في أول مرة، في بيته والطرق المؤدية اليه. سيضيع في ذاكرة اللعب والصحبة والطيبة مع اتراب طفولته.

هذا جزء من سحر الصورة والذاكرة.

ان البحث في الصورة القديمة، وعنها، هو بحث عن زمن ما. لا ينبغي ان تكون هذه الصورة لمدينتي أو حتى لبلادي كي انجذب اليها. ولطالما بحثت عني وعن أيامي الأولى في صورة قديمة تنتمي لبلدان أخرى.

عندي صور الشام والقاهرة وبيروت والرباط ومكة واليمن.. عندي صور الهند والصين واليابان وصور بلاد الانكليز والألمان والفرنسيين. لقد أردت الحصول عليها وسعيت لها، وكنت اعرف انني افعل هذا لانني ابحث عن زمن ربما وجدت فيه زمني. ربما وجدت فيه شيئاً من الفردوس المفقود. سمّة الطفولة أو الشباب أو أي شيء، لكنني أميل الى تسميته بزمن الانسان، حيث الدعة والألفة مع الاشياء، كل الاشياء.

اين تجد خرافة أو اسطورة ممتعة في غير الزمن الذي مضى؟

واعود للصورة لأقول انها أصدق وأسرع حافز للتأمل في الأيام التي مضت. ونعرف جميعاً ان الايام لا تمضي فعلاً، انها موجودة في أيامنا هذه. لقد صنعتنا كما صنعت ايامنا الحاضرة وكما ستصنع غدنا. ومن المخيف.. المخيف تماماً، ان نعيش اليوم ونتهيأ للغد وصورة الأمس غائمة أو مجهولة. ان تعيش بهذه الطريقة أمر يشبه ان يقذف بك في فراغ لا ينتهي. ولا ينبغي للحماسة ان تدفعني للقول ان الصورة الفوتوغرافية القديمة هي الأوضح في الجذور والتأصيل، لكنني أريد القول انها مهمة. مهمة جداً.

ومثل أي شيء آخر يحتاج للتأمل فان الصورة القديمة تحتاج الي وجهة نظر. وجهة نظرك انت. وبقدر ما تحاول التأمل فيها فانك قادر على الوصول اليها وإكتشاف خباياها. ان نظرة سريعة لن تعطيك أكثر من قشر الصورة ولن تستطيع ان تكتشف فيها أي سر من اسرارها.

ترى صورة لبائعة الشوك أو الحطب بنظرة عابرة فلن تحصل الا على منظر لأمرأة تبيع الشوك والحطب. لكنك بشيء من التأمل تستطيع ان تكتشف زمنها، تستطيع ان تتابعها وهي تتجول في الأزقة وتدخل البيوت فترى التنور والمحراث وقد تشم رائحة الخبز وتسمع صوت النار وهي تتوجر مختلطاً بصوت (الشنكة) وهي تتحول على يد الأم والأخت الى رغيف حار جداً. وقد تجد مكاناً لنفسك في ذلك البيت الأليف. وان كنت مهتماً بالبحث فقد تستطيع ان تستخلص الكثير من المعلومات عن البائعة وزبائنها والوقت والجهد الذي تبذله النساء كل يوم من اجل رغيف خبز.

تستطيع بشيء من التأمل ان ترافق العابرين على الجسر القديم، وان تركب مع آخرين

في (كَفّة) فتتذكر انها نفس الكَفّة التي كانت تستخدم في هذا النهر منذ ايام نبوخذنصر. تستطيع ان تحصل على الكثير من صورة واحدة. شرط ان تعطيها بقدر ما تعطيك.

ولعليّ بهذا «الحث» اعبّر عن انانية ما. عن رغبة في ان يكون هذا الكتاب بصورة والحياة التي تضمنها قرب وسادة كل عراقي وعراقية.. لكن من يدري فلعلّ الصورة أقل شأناً مما حاولت الايحاء به أو ما عجزت عن اثباته.

***

في الحقيقة ان احد اهداف هذا الكتاب هو المساهمة في عملية توثيق المدن. المدن كالبشر تشعر بالضياع ان لم يكن لها تاريخ موثق. ولعلّها تشعر بالحيف والغبن ان لم تكن لها صورة تمثل طفولتها. ومن المؤلم ان تكون بغداد والبصرة والموصل وكل مدن العراق دون ارشيف أو البوم عائلي إسوة بمدن العالم.

وماذا في البوم المدن؟ أية صورة تلك التي حفظت بعناية هنا وهناك؟

قلّبها جميعاً وستجد ان فيها صور ابنائها بأزيائهم وحركتهم، ببيوتهم وشوارعهم، ستجد ان فيها جسورها ومعابرها، وطرقها الترابية ووسائط نقلها البدائية، الخطوات الأولى الى المدرسة أو العمل أو الى الجديد في حياتها، لحظة الغروب والسمر فيما بعد واماكن التجمعات العامة والمهن، صور قادتها السياسيين مجردة من مشاعر الحب أو الكراهية وصور شعرائها ومغنيها.

ومرة أخرى أقول، بخوف وتردد، ان مدن العراق محرومة من التوثيق، بالمعنى المعروف لهذه الكلمة، لكأنها مدن مطالبة بأن تعيش دون ذاكرة، دون معرفة أوثق بزمن الآباء والأمهات والاجداد.. دون تذكر المحلة ومقهى الطرف والشرثرة التي، مثل اللعب في تلك الأيام، لا تنتهي إلا قسراً، عند أوان العودة الى البيت بنداء من الأم والأخت:

ـ تعال.. صار دنيا الليل!

ولاحظ دقة المفردة وغرابتها: «دنيا الليل». انها غير «دنيا الصبح» أو دنيا الظهر أو العصر والمغرب.

«دنيا الليل» عالم مختلف بمفرداته، ففي الصيف حيث نومة السطوح تكون النجوم لعبتك. انك تنثرها حيناً وتجمعها حيناً آخر، تكوّن منها اشكالاً مختلفة وخاصة بك أو تحاول عدّها. لكنك عبثاً تحاول عدّها. بيد انك تفعل هذا في كل ليلة من ليالي الصيف. وإلا كيف تغفو.. وكيف تدخل في الحلم.. حلم ليلة صيف؟

و«دنيا الليل» تختلف في الشتاء عنها في الصيف. انها تكون هناك بالقرب من

قصص الأمهات والبيبيات في الفراش أو قرب المنقلة، التي خلافاً للتلفزيون في ايامنا هذه، تجمّع افراد العائلة وتعطيهم الفرصة لينظروا الى بعضهم ويتحدثوا ويتسامروا وجهاً لوجه، وجهاً لوجه تماماً. وتتذكر الآن ان التلفزيون يباعد بين افراد العائلة الواحدة مسافة قارات وقارات رغم انهم يجلسون لصق بعضهم فترات طويلة.

دنيا الليل عامل مليء بالجنيّات والطناطل والسعلوات وبنت السلطان وعشرات الشخصيات التي عشنا معها واستمتعنا بقصصها. وربما نسينا في الكبر ان ندرسها ونستخلص منها عبرة لايامنا اللاحقة.

وثمة من يقول ان في هذا عبادة للماضي.

من يدري؟ ربما يكون هذا صحيحاً مئة في المئة.

لكن.. أين الغلط في هذا؟

يبدو انني شطحت كثيراً خارج الموضوع. فالصورة القديمة ليست مقتنىً شخصياً يمكن ان يمتع صاحبه فحسب. انها، في سياق اخر، من المقتنيات ذات الطابع الوطني والقومي وحتى الانساني. وفي كل مكان تقريباً تبذل الدول والمؤسسات، والافراد المقتدرون، الجهود والأموال من اجل الحصول على صورة قديمة. وفي مرات عديدة يتم شراء هذه الصور في المزادات العلنية، كما أي تحفة ثمينة.

أما العراق فانه غائب عن هذا السعي.. الا ما ندر. ولا لوم في هذا، فالكل مشغول بلحظته وأولوياته، والعراق كان دائماً لديه جرح ينشغل به عن «ترف» جمع صوره القديمة وتكوين البومه الخاص به اسوة بالدول أو المدن أو حتى الأفراد.

والآن.. ثمة هذا الالبوم المتواضع: بضع مئات من الصور مع كلمات قيلت في العراق وقد اخترت منها ما يكمل الصورة أو يوضحها. انها مقاطع من شهادات من رأوه في فترة ماضية ولا بد من كلمة حول اختيار مادة الكتاب.

لقد اخترت في البداية الصور الواضحة، أو الاكثر وضوحاً، خدمة للقارئ. وبمضي الوقت كنت اكتشف الكثير من الضرورات التي تحث على نشر بقية الصور: يأتي صديق فتأخذه صورة «مهملة» الى جنته ويرى في صورة غروب على نهر مثلاً، صورته طفلاً وصورة مدينته رغم ان الصورة لا تظهر غير نهر وجزء من شجرة. ويأتي آخر فيرى صورة مدرسة في احدى المدن، وهي بالنسبة لي، كصورة مجردة، لا تنطوي على قيمة فنية أو تاريخية لكنه يرى فيها صورته وصور أقرانه خلف الجدران ويستمع الى صوته واصواتهم يوم كان اللعب تاج أيامه. وكان ثمة من يكتشف في صورة قديمة، غير واضحة تماماً، اهمية تاريخية أو توثيقية فيلح على نشرها.

وبمضي الوقت توسعت عملية اختيار الصور، وفي النهاية وجدت ان ما تجمّع لدي

يسمح لي (بشيء من الطموح والكثير من الاعتذار) بتسمية الكتاب باسم «كتاب العراق» فالصور تغطي اغلب مدنه وقومياته وطوائفه.

قد لا تكون الحصة متساوية أو عادلة بالنسبة للمدن، وحتى للشخصيات، لكن الأمر ليس بيدي. ان هذا هو ما حصلت عليه لكتاب يمكن ان يشكل نواة لكتب أخرى أكبر وأهم يمكن انجازها على يد آخرين.

ان جمع الصور ونشرها ليس مهنتي أو اختصاصي. وها أنا اسلم الأمر لمن يستطيع القيام بهذه المهمة على أحسن وجه. واعتقد انها مهمة عاجلة ونبيلة، خصوصاً وان هذا القرن يوشك على الانتهاء.

* * *

ودون تبجح أود تكرار القول ان جمع الكمية المتواضعة من الصور، ووضعها بين يدي القارئ، لم يكن أمراً سهلاً. لقد جمعتها من الأرصفة في الغالب، ومن بعض المكتبات في مرات قليلة. ولن اخجل من الاعتراف بانني جمعت بعضها حتى من المزبلة!

ذات يوم وقفت امام مزبلة متردداً بين التفتيش فيها أو الانصراف عنها. لقد لمحت فيها صفحات من مجلات قديمة فبقيت أحوم حولها. وأكاد أقسم الآن، ان غريزة ما دفعتني لعدم الخجل والبحث في حاوية القمامة! قلت لنفسي:

ـ بعد قليل سيأتي عمال النظافة وسيحملون ما في الحاوية ولن تكون ثمة من بعد فرصة «نظيفة» للعثور على ما سيذهب نهائياً!

تقدمت وأنا اغمض عيني عن دهشة المارة أو استنكارهم وبدأت التفتيش والبحث وسط بقايا الأطعمة والعلب الفارغة والأوراق المبللة.

تقدم مني احدهم وسألني ان كنت فقدت شيئاً ثميناً في الحاوية، فقلت دون تفكير:

ـ نعم! انني افتش عن هويتي ووثائقي!

لم اتعمد هذا القول، لقد جاء عفو الخاطر. الآن فقط أتأمل فيه.

طال وقوفي علي حاوية القمامة، لكنني في النهاية حصلت على بعض الصور في مجلات قديمة، وقد كانت بينها صورة لمراجيح العيد ايام زمان!

في البيت نظفت الصور وجففتها بمجفف الشعر، وتمنيت لو ان دمعة تقول، بالنيابة عني وعن صور البلاد البعيدة، شيئاً عن تراث البلدان واعيادها التي أخذ بعضها طريقه الى المزابل دون انقاذ!

* * *

وأسميها البلاد البعيدة! والتسمية ليست مني.

انها من الأصمعي. والتسمية موحية ومقبولة ان لم تكن دقيقة أو نهائية. كنت اعرف التفسيرات الشائعة لمعنى كلمة العراق، ومنها انه سمي العراق لكثرة تشابك عروق النخيل والاشجار في ارضه، أو المعنى السومري للاسم: أراكي تعني بلاد الشمس وغيرهما.. لكنني لم اكن اعرف ان كلمة العراق يمكن ان تعني ايضاً البلاد البعيدة!

على رصيف بعيد عثرت على كتاب اسمه «تاريخ مقدرات العراق السياسية» كتبه مؤلفه محمد طاهر العمري الموصلي في العام ١٩٢١، وطبعه محمود حلمي صاحب المكتبة العصرية ببغداد عام ١٩٢٥، وفيه قرأت بعض مّا هو معروف عن اسم العراق:

«اختلف علماء التاريخ واللغة في وجه تسمية العراق عراقاً، فقيل ان كلمة عراق مأخوذة من عراق القرية وهو الخرز المثنى الذي في اسفل القرية، والعراقان الكوفة والبصرة سميتا بذلك لانهما أسفل أرض العرب، ويقال ان كلمة العراق مأخوذة من عروق الشجر، والعراق من منابت الشجر وانه سمي لتواشج عرق الشجر فيه، وقيل انه سميّ لوقوعه بين الريف والبحر، أو لأنه على عراق دجلة والفرات أي شاطئهما، والى آخره».

لكن الصدمة كانت في تفسير الأصمعي لمعنى كلمة عراق، وعذراً للذين يقولون انهم يعرفون المعنى الآن.

قال الأصمعي في تفسيره لمعنى كلمة العراق انها تعريب لكلمة (ايراق شهر) الفارسية وبعد ان ذكر معاني كلمة (ايراق) رجّح بقوة ان يكون معناها البعيد (شهر تعني مدينة أو بلدة) وعلى هذا يكون معنى اسم العراق:

المدينة البعيدة أو البلاد البعيدة!

هل حاولت بلاد أن تشبه اسمها كما العراق؟!

لقد نأى العراق في فوضاه وحروبه وقسوته وكأنه هو الآخر يرجّح تفسير الأصمعي لمعناه. ومن الارصفة البعيدة.. عن العراق، حاولت جمع صور «البلاد البعيدة» صورة صورة. وبمضي السنين اختلط عليّ الأمر، فلم اعد اعرف أن كنت احاول تجميع صور الطفولة البعيدة أم صور البلاد البعيدة.

يا لمشقة البحث عن الطفولة والبلاد البعيدة في مدن بعيدة وموحشة.

ولعليّ اضيف للمشقة هنا المتعة. فما من لُقية ثمينة، في الوحشة وجوع الروح والغربة، مثل متعة العثور على صورة لتلك البلاد.

***

نتاجات ابداعية من رفحاء

ليلـــي

نوري أبو رغيف

«وغادرتُ منزلها، كان في بابه القرطبيِّ صنوبرةٌ
كنتُ اسمعُ نبضَ العصافيرِ إذْ تتنفس نائمةً
بين أفنانِها والنجوم الخفيضة، أحسستُ أنْ
العصافيرَ سوف تموتُ صباحاً»

سعدي يوسف

لو تبقى
الليلةَ لن يصلَ الحرسُ الحقلَ
وبينكَ والماءِ

مسافةُ بدئكَ من زرع التوتْ
أنا أعرفُ في زرع التوتِ فتىً
كان يعلّقُ في شالي زنبقةً
حين أقودُ النذرَ
أتعرفهُ؟
يَسكنُ مهبطَ نهرِ الوردِ
لدى قوسِ الاسِ
وبيتُهُ معقِدُ زنّارِ الحقلِ
فلو تبقى
لأريتُكَ بعضَ زنابقهِ
يا لَلدهشة!
لَمْ تذبلْ بعدُ
ولمْستُها تبعث في جسدي خَدَراً

ما الخَطبُ؟
الليلةَ لن يصل الحرسُ الحقلَ
وتلك العوراءُ
انشغلتْ بمراقبةِ الفتيانِ الشرسينْ
لا تصطنعِ الغفلةَ
عمّا يجري بين السلطة والناسِ
وإلاّ لِمَ تهجرُ زرعَ التوتِ؟

اللعنةُ،
تلك الغولة ناتئة العينِ
كفطر الكلبِ
الشرطةُ لا تبتاعُ سوى القبحِ
تبيع الفحمَ بناصيةِ السوقِ
وذاك القبو المعتم
كوخ الشيطان لها
يعرف منها الحرسُ الحزبيُّ
أماكنَ أسلحةِ الفتيانِ
فتنهمر النارُ
أوا لهفي
ما أجملهم
حين يضج الموتُ
وحين تثور النخوةُ
يغدو العودُ الغضُّ
كثقلِ الحزنِ بهذي الأرضِ
كعنف الرغبة في عين حبيبي
أسمرُ زنبقةُ النذرِ
لعلكَ تعرفهُ؟
أقسمتُ عليكَ بعينيكَ تَذَكَّرْ
إنّ لهُ وجهاً يحمل دفء الألفةِ.

وَشمٌ فوق ذراعهِ
كان اسمي... ليلي
قال اسمي زنبقةٌ عند الأفرنجِ
وسمّاني لحنَ الماء
وأحياناً يدعوني اللصة
كان يقول بلا خجلٍ
إني أسرق نضجَ التوتِ
ولو يحترمُ الدَرَكِيُّ شكى شفتيَّ إليهِ،
الرغبةُ تُثقلهُ والحزنُ

كأني ألمح طيراً يجفلُ في عينيكَ
تُراني لم اسرقْ من زرعِ التوتِ
سوى موتى؟
ستشاركني حزني لو تبقى
آهٍ لو تبقى
الليلةَ
لن يصلَ
الحرسُ
الحقلَ
وداعاً

نتاجات ابداعية من رفحاء

لا هواء إلا لمراثي الكائن

خضير النزيل

مخ الحكمة
- ويحسبه (الوراقون) بياضاً آخر،
لولا أنّه (وفي حدود الممكن...) -
كان يضع كرسياً في عطر الزهرة
ويكتب
قصائدهُ

الكلمات
وطاويط عمياء تخفق بآاااامالها الرحبة
هذه التي رأتها تقضي آجالها القصيرة
حالما يزدحم الشارع بالمارة،
وتغمض البقية من ايامها
وهكذا
الذين لا يرقصون في حياتهم الاّ مرة واحدة
يأتيهم أجلهم
محاربون من أجل هواء الأسرّة
حينما يغادرها الأطفال مبكرين
بأجنحتهم التي لا تشبه الفراشات
وفي الآخر
حشد من الفارّين عَبْرَ جبال (قره داغ)،
مدجني ضفادع وزراعٍ وضاربي نقود،
والذين يعالجون أوجاعهم
بنقيع الحنظل المغلي
(هل أسمّي ذلك الآن؟)
الاطفال،
سنواتنا التي تبعثرت في الأزقة
ولا أقول عنها، (أيامٌ) زائدة
وهي عادةً ما تكفي

لتفريق متظاهرين لهم ما يدعو
لدفن ذخيرة فاسدة
لمكائد يقيمها

الحراس

في المداخل

الاشدّ زرقة
ولهذا،
فثمة من يخطيء الاشارة
الى أصابع الغرقى
فيحسبها زهرة أوركيد بيضاء،
أو أبراجاً معدة لغواية

الحمام
وأعني الذي يدخن الأمكنة باستمرار
ويلعن أطرافه التي لم تتعلم بعد
حرفة
الهواء.

بغداد ١٩٨٧

نتاجات ابداعية من رفحاء

استلفت زمناً لامحو مسافتي

كريم عجيل الدريعي

الهجير كنيةُ الصحراء
السمّ رحيقُ دمٍ
الحكمةُ خلاصةُ حيّزِها
الشمس لا تصهر ضوءَها
القطب المنجمد دمه دافئ

جهات الشمس تستعرض مشتقات ألوانها
طفيليات دمي همّت بتلوين ذاتها

صقلت خام الأرض
رأيتها نهاراً وعيني طافيةٌ في الليل

سافر الكلام دون لسانه
صفّق له الهواء

أودعتُ عمري في ذاكرتهم
ونفيتُ عيني الى مركز محيط الآفاق
مقلتي المنفية
أمامَها نصفُ عمري
وخلفها نصفه الآخر

لكني عندما سيّبتُ الماء في النهر
اتضح أنه محفور بالمقلوب
غرق الماء وأنغسل لوني

الآفاق تُضيِّق محيطها
تحجب أرضاً خلفها
الآفاق تضيعُ بمستحدثٍ هجين

اللحن المزمن تأوّه
لو أنَّ المكان يمسك الزمان ويقيّده
فنويتُ الذهاب الى عمري المخزون بذاكرتهم

عمري فصل واحد
لذلك تبعتُ عمري سائراً
مع الشمس منذ ربع قرن

اشد الرحال الى عمري
لعلي أعثر عليه في جوانب الشمس

جهاتي أودعتها الليل المحو
وأستلفتُ زمناً لامحو مسافتي
مسترداً جهتي

عثرتُ على عمري في حزمة ضوء
شجرة مذابة بعمري
نسجتْها الشمس من الماء
وبخار التراب

الألوان الجافةُ
بذاكرتي لوّنَتْ
طفيليات دمي

قضاء الحي ١٩٨٩

نتاجات ابداعية من رفحاء

رحيل الأصابع

حسن الفرطوسي

قبل ا لدخول الى مبنى الجوازات بلحظات كان يتردد الى سمعي الجواب المكرر في كل مرّة من الموظف ذي الصوت الاجش «حينما يأتي دورك سيعلق اسمك على لائحة الاعلانات» هكذا كان يقولها.. بشكل اقرب الى السخرية منه الى الجدّ .

استهلكت تقويمين ميلاديين على مراجعاتي المتوالية لتلك الدائرة، وانا اسمع نفس الاجابة التي كدتُ اقتنع بها لولا معرفتي بان ليس هنالك لائحة للأعلانات.

هذا الموظف المنفوخ خلف مكتبه، هو وحده الذي يعلم في أي من الأكداس تختبئ معاملتي.. ولكن من المؤكد ان آلافاً من المراجعين مثل حالتي وهذا ما يخفف انفعالي.. فانا لست المُهمَل الوحيد في العالم.

الآخرون يتحدثون بلغط لم اعد افهمه، فموضوع المعاملة المدفونة فقط يمكن التحدث فيه، وهذا واضح من خلال تململ بعض رفاقي في المقهى - المُهمَل أيضاً - مما يجعلهم يتسربون الواحد تلو الآخر باعذار لا تكلف بضع ثوانٍ من التفكير.

كانت مراجعتي الأخيرة أكثر أيلاماً من سابقاتها، ولا أعلم كيف راودتني نفسي بالدخول الى مخزن الدائرة في غفلة من الموظف ذاته؟ وما أثار يأسي هو منظر اكداس

المعاملات التي كادت ان تلامس السقف، ومجموعة فئران تتقافز باطمئنان أبدي وقد اتخذت من بين الاوراق مستقراً لها..فكيف لمنحوس مثلي ان تُنْجَز معاملته من بين جبل الاوراق هذا ؟!

منذ ان داهمتني فكرة الرحيل عن هذه البقعة الأرضية.. وانا أرى العتمة تكتسح كل الأشياء.. وهذا اللون الرمادي الذي يكسو وجوه الناس ووجه الشاطئ وكل المساحات التي أظنها كانت بيضاء يوماً، زاد من ثقل الفكرة على كاهلي.. فلا بد من الرحيل.

أشار عليّ احد الاصدقاء من الذين شاركوني في عقم التفكير:

- يتوجب عليك الآن ان تبحث عمن له تأثير على موظف الجوازات.

- أنه حل بائس.. لان آلاف المراجعين - بالتأكيد - يفكرون بنفس الطريقة، رغم ذلك فان احداً لم يفلح في الحصول على ما يريد.

ثم استدركت قائلاً:

- وفوق كل هذا، فأنا لا أعرف أحداً من الممكن ان اعتمد عليه في مثل هذا الأمر.

قال وكأنه تذكر شيئاً هاماً:

- النزيل الأعزب، الذي سكن منذ فترة قصيرة بجوار شقتك، يبدو انه في احدى الدوائر المهمة المتعلقة بأمن الدولة وهذا واضح من خلال الرجال الأنيقين الذين يطرقون عليه الباب بين فترة وأخرى.. فلا بد وان له علاقة بتلك الدائرة.

- هذا أيضاً لا تربطني به أية صلة، ثم اني وكما تعلم، لا أحب الارتباط بالمسؤولين والموظفين الكبار... شعور بالتقزم والترفع، في آنٍ واحد، ينتابني حيثما ألتقي باحدهم.. أحاديثهم سمجة.. يحاولون معرفة دقائق الامور عن كل شيء.. ربما سيسألني، اذا ما أقمت معه علاقة من أي نوع، عما يدور في المقهى من احاديث.

- هذا غير مهم.. ارتبط به بعلاقة مؤقتة ان أردت، ريثما تنجز معاملتك.. حتى لو أفدته ببعض المعلومات. قال ذلك واشاح ببصره صوب نهاية الشارع، كأنه يخفي عينيه من حرج ما.

كنت عاجزاً تماماً عن الرد.. أحسست بأن جسمي يضمحل، يتلاشى، يغوص في احد مقاعد المقهى.. وان ثمانية وعشرين حرفاً وحدها لا تكفي للرد.

ودونما كلام أدرك صاحبي بأني ارتضيت ان تعشعش الطحالب في رأسي.. اغمضت عينيَّ وهربت من المكان، من هذه الارض الموبوءة على جناح الصديق الزائف الجديد.

وليكن.. بعض المعلومات لا تعني شيئاً أمام التحليق بعيداً، هناك.. خلف المحيطات، حيث تزداد المسافات اتساعاً.

كان قدح الشاي الذي امامي قد برد.. نسيته.. بعد ان تذكرت وجه أمي وكيف كنا

نلوذ بظلها، حين كنا صغاراً، انا وصحبي كأفراخ الدجاج.. ترى هل ستحب هذا الصديق المنتظر؟ أم تراها ستصفع خديها وهي في قبرها الدرّي؟

في تلك الليلة لم يهادنني النوم الا بطلوع الفجر.. نوم مقيت، طاردتني خلاله كوابيس كثيرة. لم اتذكر منها شيئاً سوى الكابوس الذي افقت على اثره مذعوراً.. كان فضاء الغرفة غائماً يضرب الى الحمرة، رأيت قطتي التي رافقت وحدتي، وقد تفسخت ومعها كلاب وقطط كثيرة، ميتة - ومتفسخة أيضاً - أصابها ما يشبه الجذام، كانت الحيوانات أشلاءً ممزقة، البعض منها مبتور الأرجل وبعضها خاوي الاحشاء.. تخرج من أجسادها أسراب غير منتظمة من الذراح واسراب أخرى من الخنافس التي تترك آثار أرجلها المشعرة خلفها. أما قطتي فقد بترت ساقاها الأماميتان.. ورأسها نُزع عند الجلد ولم يبق منه الا جمجمة نهشها التفسخ، الشبيه بالجذام، بيد انها على خلاف رفيقاتها، كانت تموء وتتحرك بحيوية، رغم اني رأيت ومن خلال فمها الفاغر، ان لا أحشاء لها.. وبحركة مقيدة، هرعت بخطوات بطيئة نحو الباب الذي يبتعد كلما أقتربت.. أفقت مذعوراً، ضمآناً، وقد ألتفت حافة الغطاء على ساقيّ.

مرآة عزلتي، وقد اعتادت ان تعكس لي ما أرغب ان اخفيه دائماً، تناثر حطامها الى شظايا متفاوتة الاحجام والاشكال. وكل شظية تعكس صورتي غير الهيئة التي تعكسها الأخرى.. غير ان العامل المشترك الوحيد بين ما يظهر في كل الشظايا هو اناملي التي استحالت الى خشب.. مَنْ حطم المرآة؟ وكيف استحالت اناملي خشباً؟! هل هو كابوس تخلف عن طابوره ليلاحقني في يقظتي أيضاً؟ ام هي مكيدة دبرتها المرآة لتعيق خطاي؟!

وغادرت غرفتي، مرتدياً ثياباً لا أعرف ألوانها بالتحديد، نحو الشارع الذي يضج بصراخ الباعة المتجولين، وقد اخفيت اناملي الخشبية في جيبي لكي لا يفتضح أمري بين الناس.. وما أثار دهشتي، هو صاحب المقهى الذي اخذ ثمن الشاي ولم يعبأ بمنظر أصابعي.. واحد الجيران الذي صافحته في لحظة سهوٍ ولم يُذْهَل هو الآخر لما حدث. أدركت حينذاك أني الوحيد، من بين الناس، الذي يعلم بأن اصابعي أضحت من خشب.

* * *

لم تكن هنالك صعوبات بالغة حين أقمت علاقة، مبهمة مع الجار المسؤول.. نحيت الكلمات الرنانة التي اعددتها للتغزل برموز الدولة، جانباً، ما كنت بحاجة لها، فقد بدا لي ومنذ اللحظة الاولى حين دعوته لتناول الشاي، مهذباً ولطيفاً.. ثم ان احاديثه كانت أبعد بكثير من إتاحة الفرصة لكيل المديح ونضد الكلمات ذاتها التي تجعل منه «ناراً على علم»..... وهكذا علمني صاحبي.

كم عظيم هو الزهو الذي اعتلى هامتي وأنا أحكُّ كتفي بكتف السيد المسؤول. شعرت

بنظرات الحسد تكاد أن تثقب راحتي.. بدأت اقتنص كل الدقائق اللامرئية في سلوك الآخرين معي، كانت نظراتهم مزيجاً من الحسد والاحتقار.. لا، بل هو حسد أقرب منه الى الاحتقار، ورغم ذلك كله فان موضوع العاملة المفقودة لم يفارقني لحظة واحدة. غير أني أرتأيت ألاّ أطرح الموضوع عليه، ريثما يبادر هو بطلب المعلومات، عن الشارع وعن المقهى وروادها وعما يتحدثون.

تقويم السنة الميلادية المعلّق على جدار غرفتي، مُلئ ثلثاه بالثقوب.. كل يوم يمضي أمدّ أصبعي الخشبي وأثقب مكانه على ورق التقويم على خلاف ما كنت أفعل سابقاً برسم خط مائل على كل يوم يمضي. وما زالت احاديث صديقي المسؤول بعيدة كل البعد عما أريد.. ما زال حديثه يتجدد عن علاقة «المدينة الفاضلة» بـ«جمهورية افلاطون» أو أي حديث متعب من هذا القبيل، فما كان بوسعي في تلك الفترة الا ان احزم أمري واطلب منه ما أريد، بشكل تدريجي. سألته عن عمله، ففاجأني بأنه يبيع الكتب القديمة على احد ارصفة سوق السراي.. آنذاك اختلطت خيبتي بأصوات أمواج النهر.

وبين الشك واليقين ظننت انها المراوغة التي يستخدمها الرجال الذين تقتضي مهنتهم، السرية والخفاء.. عندها بادرته بسؤالٍ، وابتسامة ماكرة ترتسم على شفتي، محاولة مني في استدراجه:

- والرجال الأنيقون الذين يطرقون عليك الباب بين فترة وأخرى؟!

- أنهم رجال الأمن يفتشون شقتي، بحثاً عن الكتب الممنوعة.. أنهم يمارسون التفتيش مع كل بائعي الكتب.. اعتدت على هذا الحال!

- ظننتهم اصدقاء لك.

- لا طبعاً.. انا أكره ان تكون لي علاقة من هذا النوع.. شعور بالتقزز والترفع في آن واحدٍ ينتابني حينما ألتقي باحدهم، حتى لو كان ذلك ضمنياً.

صحراء رفحاء ١٢/١

نتاجات ابداعية من رفحاء



بحث عن سماء أخرى

واصف الشنون



خلال حوالي الثلاث سنوات، أمضاها الفنان سعد موسى لاجئاً في مخيم رفحاء، انتج اعمالاً فنية عديدة تعتمد الاسلوب التعبيري - الواقعي بتقنيات متعددة. فهناك لوحات نفذت بالزيت وأخرى بمواد مختلفة مستخدماً الرمل الصحراوي والجبس والصمغ والخشب وطريقة الريليف لابراز بعض الاشكال في جسد اللوحة.

وهناك ايضاً لوحات مائية تعتمد التدرجات اللونية لفصيلتي اللونين

الاسود والازرق ومقتربة كثيراً من روحية الغرافيك بخطوط وتكوينات ورموز ذات جمالية أخاذة.



يتخذ الفنان من موضوع الحضارات العراقيـة الأولى وخاصة (السومرية) منطلقاً فنياً يربط بين اغلب لوحاته، فأنه يخبئ تراجيديا الانسان العراقي المعاصر بين طيات وانحناءات العراقي السومري ورموزه الحضارية مع خلفية ضبابية مغبرة تحيط بانسان اللوحة، فيتولد بناء داخلي منسجم في كيان اللوحة يوحي بالحب والدفء والحزن وكذلك الخوف من هواجس المحنة الف علية المعاشة من قبل الفنان ذاته.



سعد موسى فنان يتواصل مع الفن مأسوراً بفكرة التقاط سماء أخرى غير الصحراء.

هذا وقد شارك سعد في معرضي فناني رفحاء، وفي المعرض العالمي لفناني المخيمات، وذلك في جنيف - سويسرا.

مناضل داوود في عرضه لمونودراما «أكلة لحوم البشر»

مشكلات اختصار العُدَد في بعد واحد

صادق الصائغ

ليست «المونودراما» فناً شائعاً، لا في بلداننا العربية ولا في العالم، ويصعب، بشكل عام، ان تصبح سيدة نفسها مالم تُسند بنص مرهف وبروح ممثل قوي يوفران لها حياة استثنائية لا يتحكم فيها الضجر والرتابة.

وفي بلداننا العربية كانت «المونودراما» موضع تساؤل دائم، وبصرف النظر عن حجم الاعتراف القلق الذي حققه هذا الضرب المسرحي، فقد ظل يُستقبل بتحفظ، والرأي السائد هو ان نضوجه لم يحن بعد، وما يزال وجوده مهدداً، على الاغلب، بنرسيسية الممثل وضعف النص، فقد يتحول الاول الى «مانيكان» ويتورط الثاني بآفات الكلام السائد. وقد يحصل، بفضل امتداد الضجر وسيولة الكلام، ان ينصرف المشاهد عن ما يراه على المسرح الى اشياء أخرى، الى مسرحه الشخصي الغارق في الهموم اليومية.

هذا الانطباع يصطدم باستثناءات يتيمة. وستبقى «المونودراما» رغم ذلك، لعبة متمناة، وخطورتها انها مغامرة منذورة لممثل جاد يتحكمه، عادةً، عاملان: الخوف من جهة والرغبة من جهة أخرى. واعتقد ان الذين «امتهنوا» هذا التحدي الكبير وفقاً لأوهامهم وجدوا انفسهم بعدئذ وحيدين ومتضررين بسوء فهمهم لمعنى مسرحية الممثل الواحد.

يمكن ان يكون العراقي سامي عبد الحميد اول من قدم في البلدان العربية هذا النمط المسرحي، ففي بداية الخمسينات قدم هذا الممثل/ المخرج عرضاً لمسرحية «أغنية التم» لتشيكوف، واختفت في هذا العرض كل الالعاب والكليشهات المسرحية السائدة وخُرقت الأطرالتي اعتادها الوسط المسرحي والمتفرجون، وظهرت في الصحف آنذاك، ولاول مرة كتابات عن فن التمثيل، استناداً على الاسس التي وضعها ستانسلافسكي والتي ما تزال تدرس حتى الآن في اغلب جامعات العالم.

اعتقد انه لن يتاح لاحد مشاهدة كل عروض «المونودراما» التي قدمت في العالم العربي. وبالنسبة لي فقد تسنى لي مشاهدة « القيامة» و«الزبال» للفلسطيني الزيناتي قدسية، وعرضين مسرحيين للمغربي عبد الحق الزروالي وآخر متلفز للمصري عبد المنعم مدبولي و«أغنية التم» للعراقي سامي عبد الحميد. وها هو مناضل داوود، في سياق ملفت يتفوق فيه التلميذ على معلميه، يقدم «مونودراما أكلة لحوم البشر» لممدوح عدوان على قاعات عادية في «اكتن تاون هول» و«سوس». وأول ما يلفتك انك ازاء عرض خاص، مساحته ليست نصاً مكتوباً، بل تشكيلاً بصرياً وان ممثلاً واحداً سيصبغ هذا العرض بألوانه وان المتابعة ستقودك الى تحرر مستمر من أية كليشة تمثيلية سابقة. ويا لها من معادلة عندما يختفي النص نفسه، فلا يحتاجه الممثل/ المخرج الا كحجة لاثبات شيء اسمه فن الممثل أو فن التمثيل.

النص في الاصل بسيط، هو كأغلب المونودرامات المؤلفة محلياً تجميعات أخذت من الصحف. ولعل خير ما يوضحه جملة وردت في سياقه: هي «كيف تقتلني يا فوزي، انا اخوك؟!» وعلى تنويعات هذه الفكرة تُرسم اشكال لأناس يأكلون الآخرين بحجج وأسباب مختلفة ونطلع على انماط أخرى من القمع تجري عادة في البيت والشارع والمدرسة، على مستوى اجتماعي، بالاضافة الى قمع سياسي تقوم به الدول الكبيرة ضد الصغيرة. والنص كونه سردياً وتجميعياً، لا يسمح دائماً بتنامي الصراع فنياً، كما ان بعض فجواته الفكرية

لا تعالج بغير الحذف، منها مثلاً اسهابه في وصف المؤسسة الزوجية بأنها هي الأخرى قمعية، المرأة فيها تأكل لحم الرجل!

في المسرح الفقير الذي نظّر له غروتوفسكي شروحات كثيرة عن السهل الممتنع. ففي القوقعة، وهي وحدة صغيرة، يمكن ان تُكتشف حياة كبيرة، ولا يمنع نقص بعض اعضاء المخلوق وحواسه من ان يتكيف لنمط حياة جديد. وانطلاقاً من هذا يختصر الممثل/ المخرج هنا عُدَده، ولا ينبع اختصاره هذا من اضطرار، بل من اختيار، فهو يرى ان جميع عناصر المسرح مرتبطة ببعضها ، لكن التمثيل اصل المسرح، ومن الممكن ان يصبح الممثل الواحد بيت حياة تتكاثر داخله الموجودات وتتوالد. وبموجب هذه الفكرة ألغي ما يمكن ان ينمو على حساب الممثل، ألغي الديكور والإنارة والماكياج والمؤثرات الصوتية والاكسسوار الخ. وفي هذا السياق يمكن القول ان النص نفسه ألغي، الا من ألواح مجزأة أو كادرات درامية صغيرة تكتفي بنفسها وتضمن اطلاق طاقة ممثل ممتاز. ان تجميع هذه الالواح في سياق شامل لا يؤدي الى نفس النتيجة التي يؤدي اليها التفكيك، فالسياق هنا سياق خاص، لصيغة الممثل داخل اطره الصغيرة وداخل تفاصيل وانسجة تُصنع بالصوت والجسد.

هل سعى الممثل هنا وراء نظرية المسرح الفقير، أم ان بوصلته الحقيقية كانت تجربته الشخصية؟ لا يُستحب الجزم هنا، فالارجح انك امام تجربة تولد امام العين وان الصور تتوالد بتلقائية وانك امام سيولة حركة وغزارة ذكرى. ولا يهم ان توصل هذا بنظرية معينة، لكنك في النهاية ستفكر بمزايا المسرح الفقير وعلاقة ما شاهدت بهذا المسرح، وسيقودك هذا التشكيل البصري بالتأكيد الى نظرية الممثل والتمثيل.

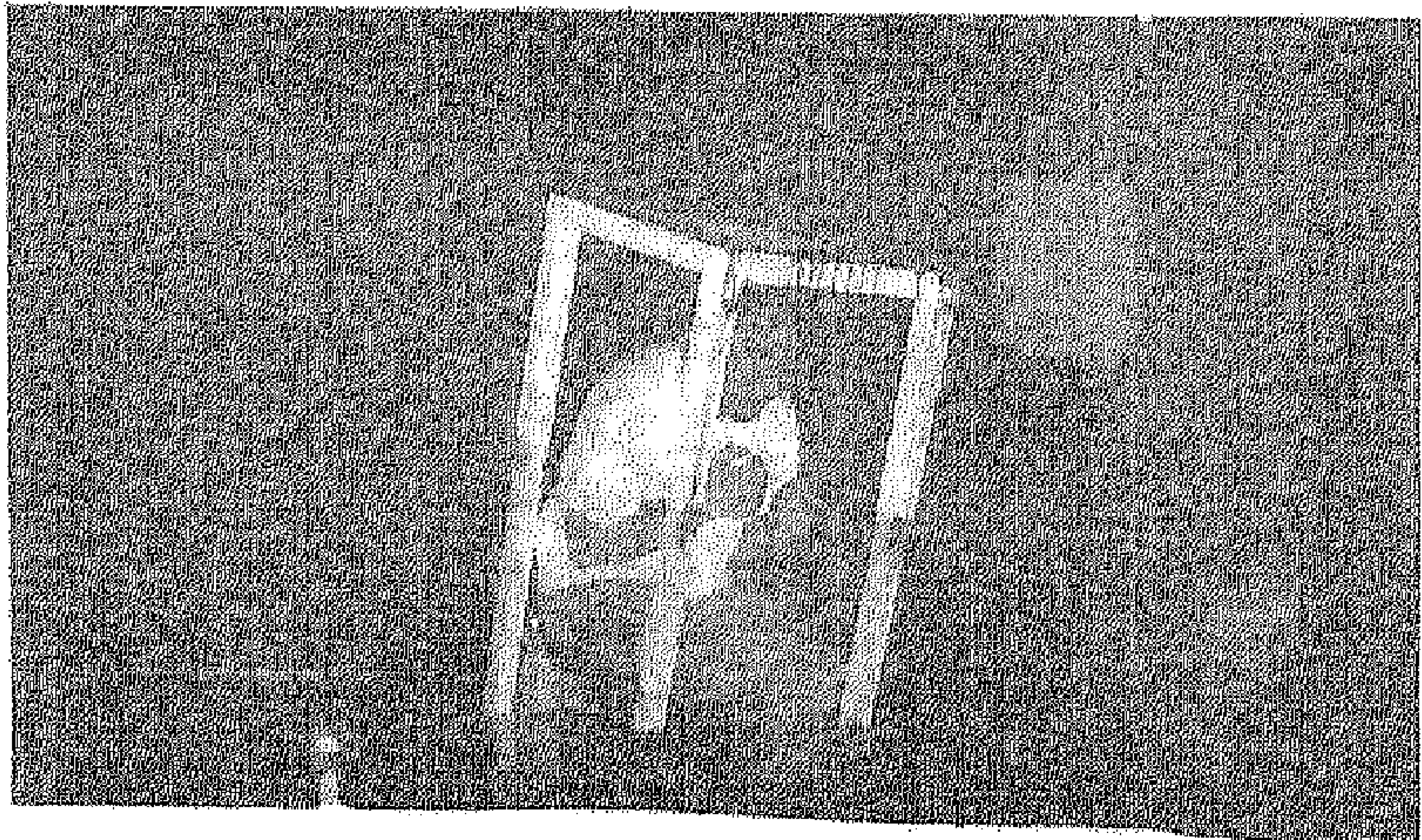
يعتقد مناضل ان الممثل قادر على ان يستقل بدرجة أو أخرى عن عناصر المسرح المعروفة، فالتمثيل، منذ الانسان الأول، اشارة وصوت. أما العناصر الأخرى، خاصة الأدب، فتصبح اثقالاً وحمولات، وما على الممثل الحق الا ان يقلل من هذه الحمولات والوصايا القديمة التي ابلاها الزمن والتي تجعل من الممثل تابعاً، بدلاً من ان يكون اصلاً، وعلى الممثل ان يعتمد طاقته لتوليد حياة اصيلة، وعليه في هذه الحالة ان يكون هو النص، وهذا ما يفعله ممثلو «البانتومايم» والكابريهات الصغيرة.

هذا المنظور الداعي الى التحفظ على جماليات تقليدية بحجة ان الزمن ابلاها لا يحمل تطرفاً عندما تراه مُجسداً على المسرح. فتجربة الممثل هنا حسية ولا تبتعد عن

اعتباراتها الانسانية. وما يصنع امامك من وقائع يقنعك بأن للمثل قاموساً خاصاً يتشكل حرفاً بعد حرف، ولا يصبح مصطلح «مونودراما»، بعد ذلك، وصفة قسرية مفروضة على النص من الخارج، بل حركة تتجسد بقوتها الداخلية.

ولا تتعب ذاكرة الممثل خلال اكثر من ساعة من نسج تفاصيل لاكثر من عشر شخصيات بحركات واشارات واصوات مختلفة، وكلما تفكك نسيج حل محله آخر بانعكاسات وهوامش جديدة، ويسند هذه الحبكات تذوق شعبي للهجة يختلط بالفصحى في مواقع مستحبة، ما يوحي هو الآخر وكأنه اشارات للعلاقة ما بين الخاص والعام. وبنفس القدر تلعب المساحات المتروكة الخالية من الكلام دورها في خلق سياق خاص بالممثل هو بالتالي جزء من تلوينات الميزانين الحركي والنفسي. ولأن لمناضل اوتاراً واسعة في صوته فقد ساعده ذلك على تلحين المقاطع والتنقل المرن بين تداعيات المعاني المتناقضة.

ان هذه حالة نادرة. اعني ان يغويك الممثل ببعد واحد هو التمثيل، فمهما استمتعت بجزئيات الحدث المعروض حركياً، وبإيقاع الميزانسين المحكم، لكل حدث على حدة وبالطاقة النفسية والجسدية لدى الممثل، فستذكر في النهاية ان هذا يحدث على حساب غياب بؤرة مركزية هي اساس أي عرض مسرحي. وبافتراض وجود ضرورات لاسقاط بعض عناصر المسرح لاعتبارات نظرية أو لأن الممثل يعيش في منفى، فان «المونودراما» لا تعيش بدون نص ومخرج وممثل، فليست هي «بانتومايم» خالص، ولا عرضاً يحتاجه كاباريه صغير. انها معادلة مرهفة تتلف اذا قيست ببعد واحد. واعتقد ان مناضل سيحجّم مساحاته اذا وقع، كسابقيه، في وهم «احتراف المونودراما». وسيحسن صنعاً لو اهتم بتحقيق عرض متكامل بدلاً من التركيز على بعد واحد.

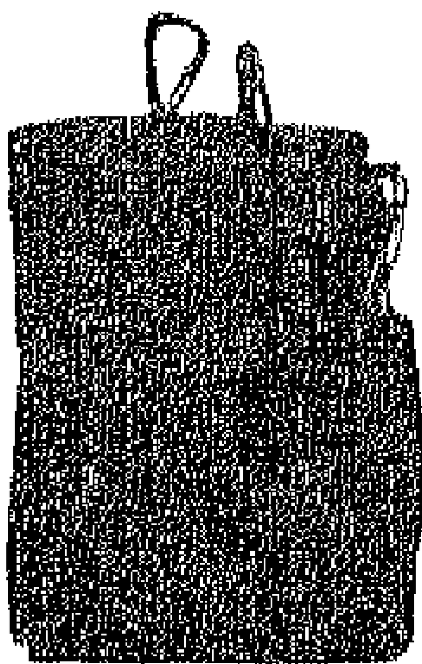


«أصوات محذوفة» لمحيي الأشيقر

قصص مضاءة شعرياً

شاكر الانباري

للاقتراب من قصص محيي الأشيقر المعنونة «أصوات محذوفة»، الصادرة عن «دار فكرة» في كوبنهاغن، وافتضاض اجوائها بالصورة المثلى، وفهم ما يدور خلف النصوص والجمل والكلمات، والغوص في دواخل الشخصيات أو الوقوع على معاني الرموز المكانية وماهية المادة الاولية للاحداث والافكار والنوازع، يحسن بالقارئ أن يبتدئ من نهاية المجموعة، في قسمها المعنون، خطط النص، اذ يتناول الكاتب فيه تجربة الكتابة وكيفية ولادة قصصه وفضائها الزماني والمكاني، حيث يضعنا هذا القسم امام العلاقة بين الكاتب ونصوصه، كيف ولدت ومن أيما رحم، كما نطلع على أهمية اختيار الموضوع ودلالة المفردات، كل ذلك بالطبع، مار من مصفاة الكاتب وتحولاته في تمحيص وتأمل، حذف وتجميع ومراجعة وتحليل.



يقول الأشيقر في خطط النص «ليست الكتابة أولاً، ولا القراءة أولاً، ولا الاستماع، لا الحكاية أولا، نحن أولاً». وهو يكشف بهذا منهجه العام في تعاملة مع الكتابة القصصية بأعتبارها من الانسان واليه، باعتبارها خريطة روحه المسجلة فيها تاريخه القديم والمعاصر، تاريخ الانكسارات والاحداث والمآسي والامكنة. انه يوجّه

والامكنة. انه يوجّه كتابته الى الانسان، أولاً وآخراً، رغم ان المكان في القصص لا يتمظهر بشكله العياني كديكور واضح يؤطر الشخصيات، بل مفردات يجمعها الكاتب من الذاكرة، لتدل وتوحي، لا لتدمغ الاحداث بتفاصيلها. الانسان ضمن محليّته، وهو هنا العراق، أو الانسان ضمن المجموع البشري حيث لا نستطيع رؤية ملامح محلية تذكر، ولا نستشف الا الروح البشرية غير المنتمية الى بلد بعينه.

الانسان المحلي في قصص محيي مندمج بالمكان العراقي، سابح في خضم من الادعية والمآذن وقباب المزارات والائمة والطقوس والهواجس، اذ نلاحظ اسماء امكنة واعياد وتقاليد في عدد من القصص، كالفرات وبعقوبة وكربلاء، مثلما عاشوراء وحنّة العيد وشموع المناسبات الدينية، مروراً بمنافي الشخوص لاحقاً، كبيروت ودمشق والسويد، اما الزمان فيبتدئ بالمأساة الكربلائية ولا ينتهي بحروب النظام العراقي الاخيرة، وما جلبته من ويلات وخضّات للمجتمع لم يُعرف مثلها في التاريخ.

لكن من هم الـ«نحن أولاً»، الذين عناهم القاص وهو يكتب مجموعته «أصوات محذوفة»؟ «نحن المزارع والبناء والنساج والدباغ وصانع الآجر ودليل المطاردين وقارئ الرقاق ونافخ البوق والعاشق المسموم وضارب الطبل والذائد عن الافئدة وحارس اليأس... والمجنون والضرير والاصم والمقاتل الاخير، كنا وما زلنا نغذ السير صوب زماننا، من اقصى قصبة عراقية، ومن آخر لوح طيني كسرته نيران الحرب، ومن هلال الذهب على جبين طفل عراقي حتى اقصى شمال الكون، هنا في عزلات اللجوء...». لا يغيب احد عن خارطة شخوصه، والنصوص تتغذى من ذلك الخليط العجيب الذي دفعته الاحداث الى نار الألم وخشبة الصراع، فكان الضحية على الدوام، كما لو ان اقداراً عجيبة تحوك نسيج حياته منذ القدم وحتى الحاضر، حاضر الشتات والمنفى واللجوء الى زوايا الأرض. وهي ملاحقة متنوعة، شاملة للفرد العراقي. أول ما تبتدئ بمدن وقصبات العراق. فيُكتب النص بتفاصيل ماضية ظلت راكزة بذهن الكاتب، الذي يلقي عليها ضوء اليوم، بعد تجاربه الضخمة في الحياة، ومفاهيمه الاكثر نضجاً، فنقع على قصة الهموم اليومية والاستلاب وكابوس الامال المسحوقة أو المتوهمة، وتطالعنا شخصيات بلا بطولات نحتتها المعاناة فقط. شخصيات لا سيماء واضحة لها، لكنها تعبّر عن حالة معينة تلامس الانساني فينا. يأخذنا القاص في رحلة مأساوية مع عائلة هجّرتها السلطة الى ايران، ونكون شهوداً على موت منفي باحدى مقاهي دمشق أو غيابه تحت بحيرة متجمدة قرب القطب الشمالي، في اجواء تتحول الحياة فيها الى دائرة عذاب مغلقة بدلاً من كونها هبّة للمتعة والعمل والاستقرار، واذا بنا امام لوحة بانورامية تشتمل على مقاطع مختلفة، تتردد منها نغمات الوحدة والحنين والتأمل والعذاب.

في قصص الأشيقر كمّ متباين من الشخصيات، لكل واحدة منها طعمها الخاص واحاسيسها، حيث نقع على شخصية وحيدة تحاور نفسها بحديث طويل عن جدوى الحياة والتشرد واختلال القيم، وأخرى عاشقة يقودها عشقها الى الانتحار في احد المزارات لانها وصلت النهاية القصوى من الاحتمال. شخصيات تمارس القتل والسخرية والهروب من ذواتها ومعاقرة الخمرة والكثير الكثير من السلوكيات غير المتزنة، التي تنم عن خلل روحي تجعلنا القصص ندرك من بعيد سببه وعلاجه. وقد ألتقط الأشيقر، من كل ذلك، المفارقة الحياتية في الشخصية العراقية بذكاء ليحيلها الى لوحات ملوّنة تقترب من النصوص اكثر من اقترابها من القص بمواصفاته المعروفة، يرفدها بلغة ممشوقة ذاتية الايقاع والهوى، لغة حاول الكاتب الاستفادة ايضاً من طاقاتها الصوتية والتعبيرية، فمارس رسم الحروف الصائتة وتكرارها لكي تعبّر عن حالة الشخصية أو كنه الموقف، ويذكّرنا هذا بالتجويد القرآني والمراثي الشائعة في العراق، وكل ذلك من اجل تأكيد احاسيسه على القارئ، لمشاركته حراجة الموقف أو طرافته، رغم انه يتحول بعض الاحيان الى قسر وفوقية. والمحاولة، بقدر ما حملت من طرافة، حملت شيئاً من التكلف أيضاً، الا انها اضفت على القصص حركة الجملة ومرحها.

يحس القارئ العراقي، بلا شك، قربه من النصوص لانها مستوحاة من معاناته، فيرى نفسه في الشخصيات ويحسّ مفردات المكان من خلال الوصف المكثف، في رحلة الاستكناه الروحي وتحليل مركبّات السلوك، وهي حالة مفهومة اخبرنا بها الكاتب في خطط النص، لكنّ خصوصية المكان ومحلية الشخصيات لا تلغي الانساني الشامل في كثير من القصص، ولا تتجاهل العواطف والاحساسيس الدافئة لبني البشر: آمالهم، احلامهم، هواجسهم، وضياعهم الفردي في عالم الغربة والتوحد. مرّ علينا ذلك بأشرق معانيه في قصة اصوات محذوفة، حيث المرأة والرجل يقضيان الأماسي وسط بيتهم الصغير في تخمين ما اذا كانت الكرمة المعلقة في فضاء الحوش تحتوي على عنقود عنب أم لا، وهي قصة على قصرها، كشفت براعة محيي الأشيقر في التقاط الاساسي من تيار الحياة، وفرش المعنى في ثناياه ليغدو لوحة شعرية ذات مضامين فلسفية بسيطة وعميقة في الوقت نفسه، كان الامل ثيمة القصة. أما الاشكالية فهي التمسك بذلك الامل مع انه لا يعدو ان يكون وهماً اغلب الاحيان.

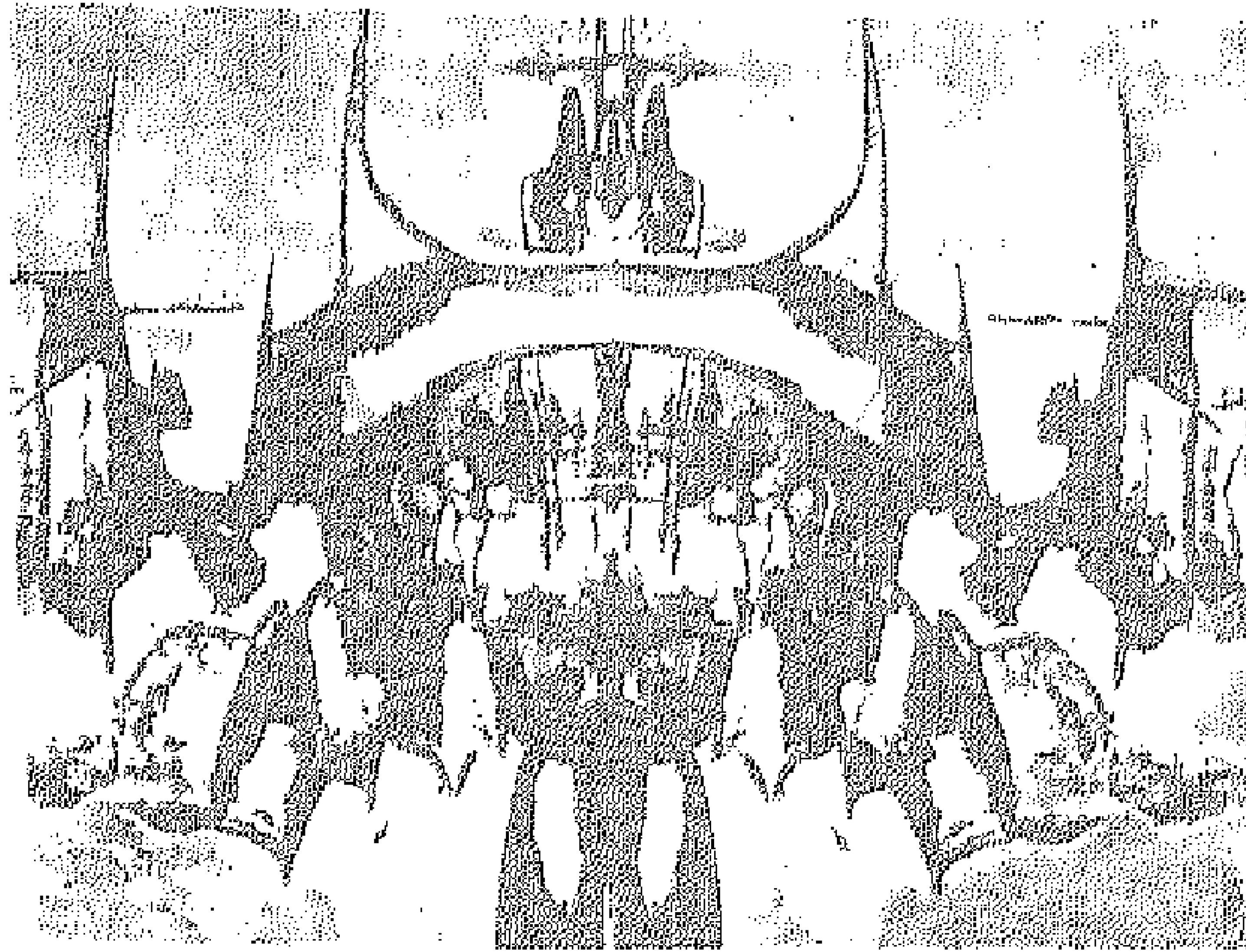
وكما في اغلب القصص الأخرى، عمد الأشيقر الى تلوين قصصه بفرشاة الشعر، من كلمات ناعمة موحية وجمل قصيرة ذات ظلال. فأتخذ القصُّ نكهة القصائد وراحت الكلمات تُستخدم استخداماً غير شائع يلغّز مدلولاتها، عدا ان الجملة راحت تحمل نفسها بنفسها غير آبهة بما قبلها أو بعدها. والجانب السلبي في هكذا نمط من الكتابة، سقوطها

بعض الاحيان في فخ تفكك النص ومجانية السرد، وكأن الجملة تُكتب لذاتها دون حملها فكرة القصة وجوّها، مع ايحاء واضح بعدم قدرة الكاتب على امساك الفكرة المطلوبة. وهذا يقربها من الكتابة الميكانيكية المنفلتة على سجيتها دون ضوابط فنية. ولاحظنا، ايضاً، الجمل تمر خلال مصفاة الكاتب بالوتيرة نفسها، مهما كان الغرض منها داخل القصة، وصفية أم حوارية أم اخبارية، مما جعلها مفعمة بالاحاسيس الشخصية والانفعالات والمفاهيم، المباشرة احياناً، فخرج النص علينا نصاً غير محايد، لا يختلف باختلاف مستويات الكتابة، ذاتياً يحمل هواجس الكاتب ووجهات نظره تجاه الحياة، وكأن الشخصيات شظايا عديدة لشخصية الكاتب في رحلة التشرد والمنافي والاخفاقات والوحدة.

* * *

شاكر الانباري

الكلمات الساحرات



عن «دار الكنوز الأدبية» صدرت للقاص شاكر الأنبار «الكلمات الساحرات» وهي باكورة رواياته، بعد مجموعاته القصصية: «ثمار البلوط» و«شجرة العائلة» و«أذرع تتشبث بنا».
ولد الكاتب الانباري في مدينة الرمادي (العراق) ويقيم حالياً في الدانمارك.

رسالة باريس

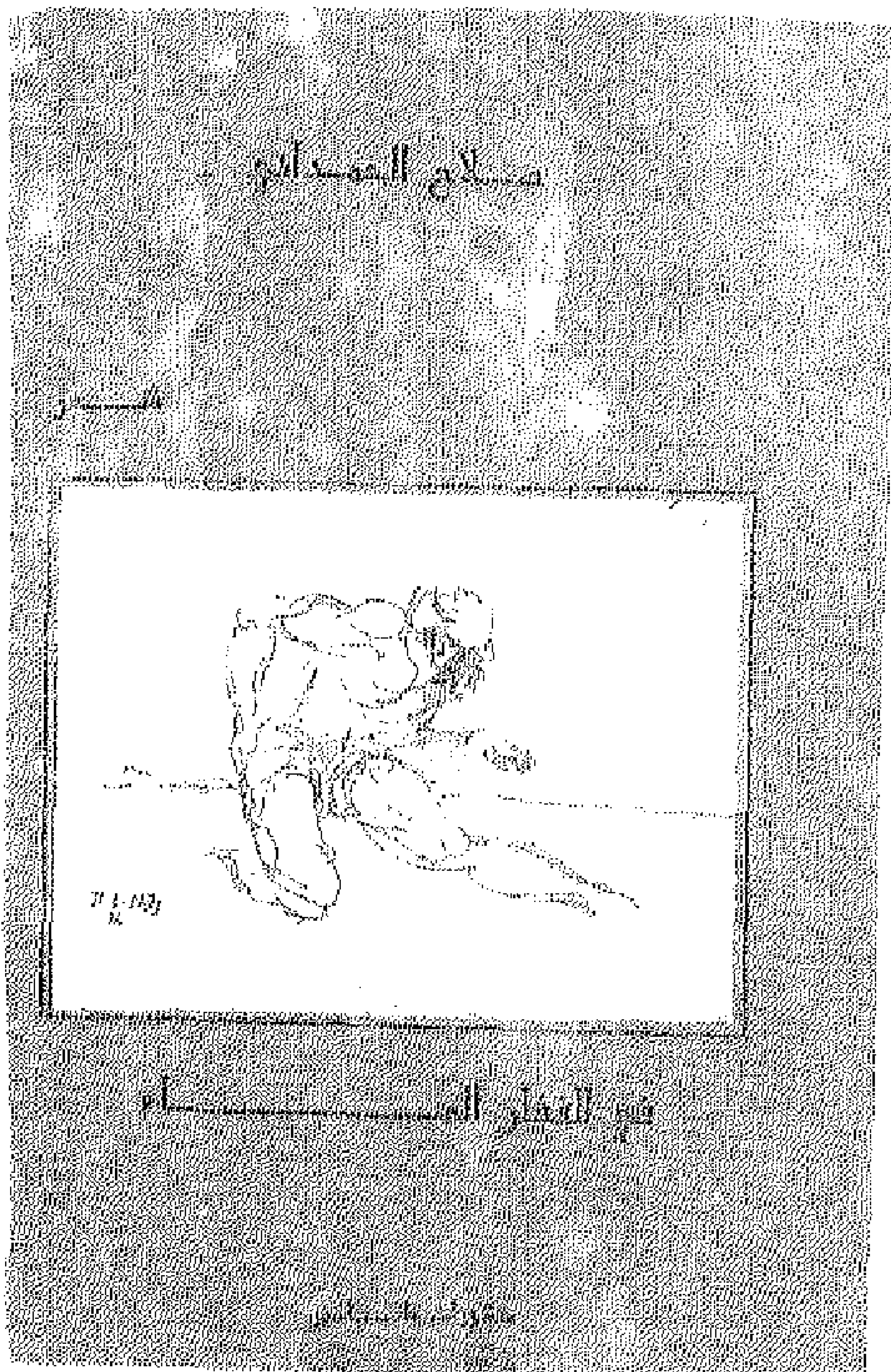
عدنان محسن

«في القفار الماء»

بعد «الوعيد بالألحاد» ١٩٨٣، «طرائد فمي ١» ١٩٨٤، «طرائد فمي ٢» ١٩٨٦، صدرت في باريس عن «منشورات طباشير»، اواخر العام الماضي، المجموعة الخامسة، بالعربية، للشاعر صلاح الحمداني، بعنوان في «القفار الماء».

وهي تحتوي على اربع قصائد، مقدمة بقلم الدكتور حسين كركوش، وتخطيطات بريشة الفنان حمادي.

يعتمد الحمداني في اغلب شعره لغة تشير الى الاشياء دون الايماء اليها، وتحاول تأويلها قبل الانصراف الى وصفها. ومن هنا يكون الكشف عما يجري في داخل القصيدة مرهوناً بالكشف عما يدور في خارجها:



«هو ان لا تقول لدغات الأوان
بعد ان كنت تحصد أوجاع النخيل
وتكتب على جذوعها
حكايات النهر
وأحاديث الفوانيس»

قصيدة الحمداني سردية، لكنها تستفيد من الشعر التركيبي في خلق صور شعرية غير معقدة لحالات شديدة التعقيد:

«انني بريء من هذه الحياة
وهذا عذر يكفيني»

وكلما توغلنا في قراءة المجموعة اكتشفنا ان الشاعر كثير الاعتناء بالصور حتى تتحول عنده، كما يقول حسين كركوش الى ـ غاية بحد ذاتها ـ.

فاذا نفذت الصورة لجأ الشاعر الى المباشرة احياناً:

«عندي رغبة في رؤية أمي»

والى التجريد حيناً:
«شاسع هذا الحيّز
مرفأ في جدار»

وايضاً الى السوريالية:
«الطفل باق
يستغيث من سقوط الاجنحة
والكلب
وفؤاد المتصوف

فالشعر، في هذا وذاك، يخرج من مساره الذي كان الشاعر قد اختاره سلفاً، ليدخل مدارات تتعدد وسائل الوصول اليها، وتتنوع مشاربها، فيكون، والحال هذه، من الصعب متابعة الشاعر وإنتقالاته من البساطة الى الغموض تارةً، ومن الواقعية الى السوريالية تارة أخرى.

ان ادراك الشاعر لمقدرته على تأسيس وتحديد خصائص نصه، لا يبرر خروجه من منطقة وعي الشعر، وبالمقابل ان جهداً ابداعياً كمجموعة «في القفار الماء»، لا يعفي القارئ من استخدام وعيه، في اعادة تشكيل الصورة والاقتراب من رؤيا الشاعر:
«مُبكراً
يزورني عصفور الماغوط الاحدب
معصوب العينين
يفرش جناحه
كفوفاً على عتبةِ الدار
(.....)
ينشر ريشه
أجنحة لفمي
ويموت.

«غيمة على سفر»

عن دار «هارماتان»، صدرت الطبعة الفرنسية لمجموعة الشاعر منعم الفقير «غيمة على سفر»، وهي عبارة عن نصوص مختارة من مجموعتيه «بعيداً عنهم» و«المختلف»،

نقلها عن العربية الشاعر صلاح الحمداني بالتعاون مع اليزابيت برونه ساتشو.
اقامت دار النشر حفلة استقبال، شارك فيها العدد من المثقفين العراقيين والفرنسيين، رافقتها قراءات شعرية بالعربية والفرنسية، كانت موضع ترحيب من قبل الجميع.
قدمت للمجموعة الباحثة الدنماركية ماريا فيبلوغ التي ترى في شعر الفقير اغتراباً يكرّس القطيعة مع ما هو مألوف في الشعر التقليدي، ومن هذه القطيعة يتصل الشاعر بعالمه وبمفرداته.

«بهدوء
يرفع الستارة الهواء
يتسلل الضوء
بهدوء
الهدوء حديث الأشياء»

بلغة مكثفة يحاول الفقير اختزال الصورة ـ الفكر في بضع كلمات، ساعياً الى رصد ما يحدث في الذهن: الوجود المطروح على هامش الاختبار، الأنا تواجه الكون، والذات تتمرن على صياغة العلاقة بالآخر، والثابت يحاور المتغير.

معرض علي فنجان

منذ تخرجه من اكاديمية الفنون الجميلة، في بغداد، عام ١٩٧٣، ومن بعدها، «البوزار» في باريس، عام ١٩٧٩، يسعى الفنان علي فنجان الى ترتيب مصادر الحس في مجموعة انتظامات جمالية، ومن خلال هذه الانتظامات يكشف رؤيته ويحدد زوايا النظر في عمله.

واذا كانت المدرسة التجريدية، النفحة الجديدة «Esprit nouveau» كما كان يقول ابولينير في وقته، وجدت جذورها فيما سبقها من المدارس، كالتّوحُشيه Fauvisme ممثلة بماتيس وبراك، والتكعيبية والدادائية والسوريالية، فان التجريد عند علي فنجان وجد أصوله في استجابته وانغماسه اليومي في الحالة الجمالية.

وفي معرضه الشخصي، الذي اقامه في «كاليري دورسيه» في باريس، في الفترة ما بين ١/٢٨ الى ١٩٩٤/٢/٢٧، نجد تكريساً لهذه الحالة.

اللون في لغة علي فنجان الفنية، له قوة البلاغة واتساع المجاز وجمالية الشعر. فهو مادة اللوحة وموضوعها، ومنه، وبه احياناً يصوغ الفنان مخلوقاته اللامرئية، التي تترك عند المتلقي هاجساً بأن شيئاً ما لم يكتمل بعد، وان اسئلة كثيرة، تتركه اللوحة يتدرب على صياغتها، للانتقال من المألوف المرفوض الى الألفة المفروضة.

نعمان هادي يعرض في أيرلندا

شارك الفنان نعمان هادي بعرض فني، اقيم في مدينة كلفدن Clifden، في ايرلندا، اواخر العام الماضي، بدعوة من الهيئة المنظمة لمهرجان الفنون في تلك المدينة.

وفي مقابلة معه، اجرتها الاذاعة اثناء تواجده في ايرلندا، تحدث الفنان نعمان هادي عن العراق وتاريخه وحضارته العربية والاسلامية، مكرراً موقفه من الحرب، الذي عكسته اعماله الابداعية، خاصة في لوحته الرائعة «العدوان»، وشجبه للاعتداءات التي يتعرض لها العراق بلداً وشعباً، مذكراً، ان تاريخ الدمار لم يكن وليد الامس.

وقد حظيت المقابلة باهتمام الجمهور الايرلندي الذي طالب بمعرفة المزيد من المعلومات عن العراق، وعن تاريخه.

كما ألقى الفنان نعمان هادي محاظرة، تناول فيها تاريخ الفن العراقي وتحدث عن تجربته الشخصية.

وعلى هامش المهرجان، أقيم حفل، شارك فيه الفنان نعمان هادي مع المغني تومي ساندز، الذي كان يغني على الكيتار، فيتوقف عن الغناء ليجيب الفنان نعمان هادي على اسئلة الجمهور، وهكذا بالتناوب، مما اضفى على المهرجان طابعاً خاصاً ومتميزاً.

ويذكر ان الفنان نعمان هادي قد انجز جدارية بمساحة ١٨ متر مربع، في مركز مدينة دوندولك في ايرلندا.

أياد جلبي في معرض مشترك

أقيم في «كاليري وجه مصر»، في باريس. معرض مشترك لعدد من الفنانين العرب، من بينهم، الفنان المصري جورج بهجوري، والفنانة السورية سمر حمص، شارك فيه الفنان العراقي أياد جلبي بلوحتين م X م، تناولت موضوع الحرب.

ويلاحظ في هاتين اللوحتين المعروضتين تحت اسم «وجوه من ١٩٩٠»، تعدد زوايا النظر واستخدام تقني للون، غير مألوف في معالجة موضوع كموضوع الحرب، حيث ازدهرت الالوان الزاهية، وامتدت الوجوه الخفية على مساحة اللوحتين، مما اضفى عليهما هالة جمالية خاصة.

***

في معرض كاظم الداخل

الذاكرة وقسوة الحاضر

سعدي عبد الله

«نوافذ للحنين» عنوان المعرض الشخصي للفنان العراقي كاظم الداخل الذي استضافه غاليري الاربعة في لندن على مدى شهر تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٩٩٣. سبق للداخل ان فاز بالمدالية الذهبية لبينالي الكويت عام ١٩٨٢ أثناء اقامته القصيرة فيها، ومنها انتقل الى ايطاليا لإكمال دراسته الفنية حيث اقام عدة معارض شخصية وجماعية قبل ان يحط رحاله أخيراً في السويد.

اشتمل المعرض على ١٧ عملاً فنياً تباينت في حجومها وخاماتها وتواريخ انجازها (١٢ عملاً مؤطراً نفذت بـ«الاكريلك» والحبر ومواد أخرى وخمسة أعمال زيتية)، اشتركت جل الاعمال المعروضة بموضوعة اساسية لـ«ثيمة» واحدة، أشتغل عليها الفنان ووسمت اعماله السابقة باعتبارها شاغله المفضي لإيجاد معادل رمزي ـ بصري لعناصر المكان والزمان المفقودين بكل ما فيهما، بحكم استقرارهما في ذاكرة الفنان أو من خلال الخبرة الشخصية، من ممكنات تساعد على محاكاة يوميات الفنان المنفي بكل تعقيدات حاضره.

وهو بهذا يلتقي مع من سبقه ويقاسمه هموم الانتزاع والبعاد عن الوطن. ذلك ان الحركة التشكيلية العراقية ومنذ نشوئها كحركة ناشطة ركبها هاجس التعبير عن هويتها عبر التأكيد على ما هو محلي رغبة منها بالتمايز والاختلاف في آن واحد. فهوية الفنان (وهنا الداخل) كامنة في اعماله وغرضها واضح: استرجاع فقدان الوطن، فمشهدية الوطن كخلفية لحضارة عريقة تقابلها مشهدية مخيفة ومأساوية، ومن هاتين المشهديتين تنهل ذاكرة الفنان وتجد تجلياتها المؤكدة لهويته وما لها من معان.

أما على صعيد بناء اللوحة الحديثة وتقنيتها فيعيرها الداخل اهتمامه الكامل، ذلك ان التمكن من ضبط تقنيتها يتيح للفنان حرية أكبر في اختيار وتجريب مفرداته وأدواته عبر منجزه الفني. فالمادة هي جزء مهم من بناء اللوحة ومدى استجابتها للحالة النفسية للفنان في ايصال فكرته تبقي رهانه الدائم في البحث عن معادل رمزي لايصال رؤيته وقلقه.

توفر الاعمال المعروضة فرصة طيبة للتعرف على استخلاصات كاظم الفنية، وكأنه معني بشكل قصدي أو غير قصدي بما يمكن ان تبوح به هذه النوافذ ومن خلفها من دلالات فنية وسياسية، محتفظة بأطر جماليات التشكيل بنفس الوقت. فالانتظار خلف السواتر وبكل عذاباته وخذلاناته الممضة، يمكن ان يكون وقفة تأمل متأنية للمشهد الانساني بكل سعته، خارج صراع الارادات وخساراتها الفادحة. ان علاقة الداخل والخارج في العمل الفني يمكنها ان تشي ايضاً بإقامة آصرة حوار وتساؤل بين اللوحة بأبعادها مع بعد آخر وهو المتلقي متلبساً دون ارادته (نتيجة تعاطفه) الحالة التي حكمت مصير من لاذ بنفسه خلف هذه النوافذ. ما اعنيه: تعاطف المشاهد مع انفعالات الفنان ومناخاته والانغمار فيها. هذه الثنائية (الداخل والخارج) نجدها في الاعمال المعروضة نوعاً من التطمينية الحميمة مع من احتل المواقع الخلفية، هي خلفية يتلمسها ويتهادن معها كجزء من القديم، الماضي، الذاكرة بكل ألتواءاتها التي ما عادت جزءاً من حاضر معاش يصعب الامساك بتفاصيله نتيجة زوغانه. ان تناظرات عوامل الماضي/الحاضر، القديم /الحديث والوطن/ المنفى، ما هي الا محاولة جاهدة للملمة المشهد العراقي وكمعادل لقلق داخلي يعتري الفنان ازاء وطنه، وحضورات البشر بكل تعبيريتها تصب أخيراً في اعادة ذلك الماضي.

ان تأثير الدراسة والاقامة الطويلة في أوروبا املت على الفنان شروطها الواضحة، فنجد نوعاً من التوليفة بين الاقواس التي اراد بها ان تحاكي موروثنا الاسلامي وبنفس الوقت زواجها مع اقواس الملعب الروماني بطبقاته وعمارته كمكان للرؤيا والتأمل. لكنه

لم ينس وضع لمسته الثقافية عبر الالوان المختارة، الازرق الشذري والبني، لما لهما من دلالات دينية قرّت في ذاكرتنا الشعبية.

ثمة كلمة أخيرة، تطرحها هذه الاعمال وهي ايجاد نوع من التوكيد عند الفنان بانه يعيش الحاضر دون التخلي عن ما علق في ذاكرته من نثار الماضي.



عربيات يحققن مسرحية إسبانية في لندن

بين ٢٣-٢٧ شباط عرضت في قاعة شتاينر هاوس بلندن مسرحية «تلك النار» المعربة عن مسرحية «بيت برناردا ألبا» لشاعر اسبانيا الكبير لوركا، وقد كتبها عام ١٩٣٦ قبيل مقتله على أيدي الفاشست حلال الحرب الأهلية التي عصفت بوطنه.

أخرجت المسرحية الفنانة العراقية، روناك شوقي، وهو عملها الفني الثالث في لندن، بعد «الاحياء» - ١٩٩١ و«جلجامش» - ١٩٩٢.

أما الادوار فأدت دور الأم الفنانة العراقية إيمان خضر، ودور الخادمة (أم) محمد الفلسطينية سلوى الجراح، ودور الخادمة (أنيسة) السورية سوسن الشمعة، ودور الجدة السورية فاتن العمري. أما ادوار البنات فمثلته رونا دانيل (لبنان) ونهى المصري (لبنان)، هند إلرماح (العراق) وميسون الدملوجي (العراق) ونعمة أبو وردة (فلسطين).

وشارك ما يزيد على ١٥ من شابات وشباب العراق وبلدان عربية أخرى في الادوار المساعدة والمهام الفنية.

تروي المسرحية قصة بيت تتحكم فيه أم طاغية تعامل بناتها بصرامة مفرطة. غير ان رغباتهن واحلامهن الشابة تتصادم وتعترك في اجواء ذلك البيت الكئيب، حيث تختنق حد الموت فراشة الحرية في توقها الى الحب والحياة.

قدمت الفنانة روناك لعملها الجديد بكلمة قالت فيها:

لن اتحدث في هذا الحيز الضيق عن افكار المسرحية وأسلوب اخراجها بل سأترك ذلك للمشهد المسرحي، بل سأستغل هذا الحيز لمخاطبة مشاهد المنفى عن قضية تشغلني منذ مدة، وواجهتها في هذا العرض بالتحديد، وهي ان لعبة المسرح شراكة بين المسرحي والجمهور. ومن دون احدهما سيكون المسرح مستحيلاً. وهذه الشراكة ينبغي ان تبدأ، قبل العرض، من احساس المشاهد في هذا المنفى الصعب بضرورة المسرح كحاجة روحية وثقافية، واحساس المسرحي بالمسؤولية ازاء المشاهد. وتفرض هذه المسؤولية عليه الأ يستجيب لحاجات المشاهد السهلة والآنية، انما أولاً للحاجة الى تطوير وعي المشاهد. انتزعنا هذا العمل من هذا المنفى الصعب لنخلق لكم ولنا صورة من أوطاننا كادت تصفرّ فيها الملامح وهي ما زالت في عنفوانها. وطوال العمل، الذي استغرق ستة أشهر من الاعداد والتدريب، كان هاجسنا خلق هذا المسرح الجاد الذي يحمل في ثناياه همومنا وطقوسنا الشرقية التي تأثر بها كثير من المسرحيين العالميين، انها لنا ولكم شراكة المسرحي والمشاهد.



آدم حاتم .. المنفي ضد المنفى !

تعرفت على الراحل آدم حاتم في بغداد بشكل عابر، فكان واحداً من الاصدقاء الذين تتجاوز العلاقة معهم مفهوم المصادفة، رغم اننا أمضينا ظهيرة بغدادية فاجعة الحرارة وكان شارع الرشيد - حيث ألتقينا لأول مرة ولآخر مرة في بغداد - موحشاً، فاليوم هو يوم جمعة والحرارة، كما قلت، كانت فاجعة.

ثالثنا، الذي عرفنا على بعضنا، كان شاباً مهندساً هو (ف.ع)، واذكره بالحروف الأولى من اسمه لأنه بقي في بغداد حتى كتابة هذه الكلمة، والبقاء في بغداد بالنسبة لأمثالنا في الظروف المعروفة، هو مسؤولية شخصية لا تختلف من حيث العبء عن مسؤولية (اختيار) المنفى، ولكل طريقته في الحياة.

لم أعرف ان «سعدون» - وهو اسمه الحقيقي - سيكون آدم حاتم الشاعر ذا الأسم التراجيدي: آدم، لاحقاً في بيروت ودمشق، فلم أعرف عن الراحل، ذلك الحين، انه يتعاطى الشعر، كان «صعلوكاً» يمضي في شوارع الدنيا هازلاً هازئاً منطوياً على حزنٍ جوّاني، فهو مواطن ذو حساسية عالية إزاء ما يجري، ووحشة بغداد بالنسبة له هي وحشته الشخصية فالرجل لم يعتبر السياسة تداولاً للمختصين والمحترفين حسب، إنما هي شأن خاص يُجبه المرء كحوادث الطرق العامة أو حياة بشرية يشوبها الحلو والمر وقد امتزجا في وجدانه كفرد وحيد، وفي النهاية لم يقو، لا جسداً ولا روحاً، على تحمّل المأساة التي كانت بادية للعيان حتى لو كانت خلف حجب، ومهما ارتدت من أقنعة.

ودّعته من بغداد دون ان يعلن وجهته.. فكانت المصادفة الثانية ان ألتقيه، بين أول من التقيتهم في بيروت، تحديداً في مقهى (أم نبيل). وتكررت اللقاءات حتى دمشق، وقبيل مغادرتي الى لندن لائذاً ومنحشراً كالجميع.

في الوسط الثقافي، سواء في بيروت أو في دمشق، كان آدم حاضراً وغائباً في الوقت ذاته، فله في الشعر قصائد نثر نشر أغلبها في جريدة «النهار» مع بعض اقرانه ممن وجدوا في هذه الصحيفة فسحة سمحت لهم واحتضنت كلماتهم، لأن آدم كان يتحاشى الصحافة ذات الواجهات الفاقعة سياسياً، واوشكت ان اقول يسارياً! وفي لقاءاتنا المتكررة لم يتح لي ان اعرف الكثير عن افكاره رغم اقترابه الحميم من مثقفي وكتاب العراق المنفيين، وبعض العرب المقيمين.

ذلك كان حضوره، أما غيابه فهو حضور من نوع آخر، حضوره في الحياة الذي لا يقل عن دفء قصائده المشبعة بالفردية.

إن آدم حاتم منفيٌ بمعنى الكلمة المتداول، وبمعناها الآخر ايضاً: الاعتراض على المنفى المتداول بمنفى اضافي فرضه على نفسه واختار ركنه البعيد، الاكثر حميمية، ألا وهو الحانة. فالراحل «صعلوك» دائم ومتسكع فوق العادة، بلا بيت ولا عائلة ولا ثوابت اجتماعية غير الحانة، المقهى، بعض الاصدقاء، دون ان تخلو حياته من اكسسوارات مضحكة وكوميدية أميزها تلك المقالب والمغامرات التي يحوكها ضد صديق أو ضد نفسه احياناً، واشهر تلك المقالب هو ما اطلقه من اشاعة تقول ان صديقنا (غيلان) قُتل في اليمن لتحرشه بزوجة شيخ يمني (!!) فكتب بعضنا المراثي، وتردد آخرون، ثم بلغ بالجميع الضحك مبلغه عندما شاهدنا غيلان يترنّح سكراً في شارع الروضة/ الصالحية في دمشق.

ألقي القبض على آدم في دمشق بتهمة تعاطي الحشيس ومعه صعلوك آخر هو المسرحي غانم بابان.. أطلق سراح غانم لاحقاً وتم تسفير آدم الى لبنان لأن الأول وجد من يدافع عنه ويتوسط له، بينما لم يجد آدم مثل ذلك، ان هذا ما يؤكد على ان آدم مواطن منفي لحسابه الخاص خارج بجلده ودون أي ولاء سياسي أو حزبي بل حتى اجتماعي.

لم ينجر الى اشتراطات لا يريدها، ولم تحوله الحياة الصعبة، وأفلاسه الأبدي، وتعقيدات الشعر والمنفى والوطن الى شخصية عدوانية، بل انضجه ذلك، قياساً الى لقائي الأول به في بغداد، وشدّ به فكان أكثر أريحية وكرماً وتسامحاً ونبلاً.

عواد ناصر

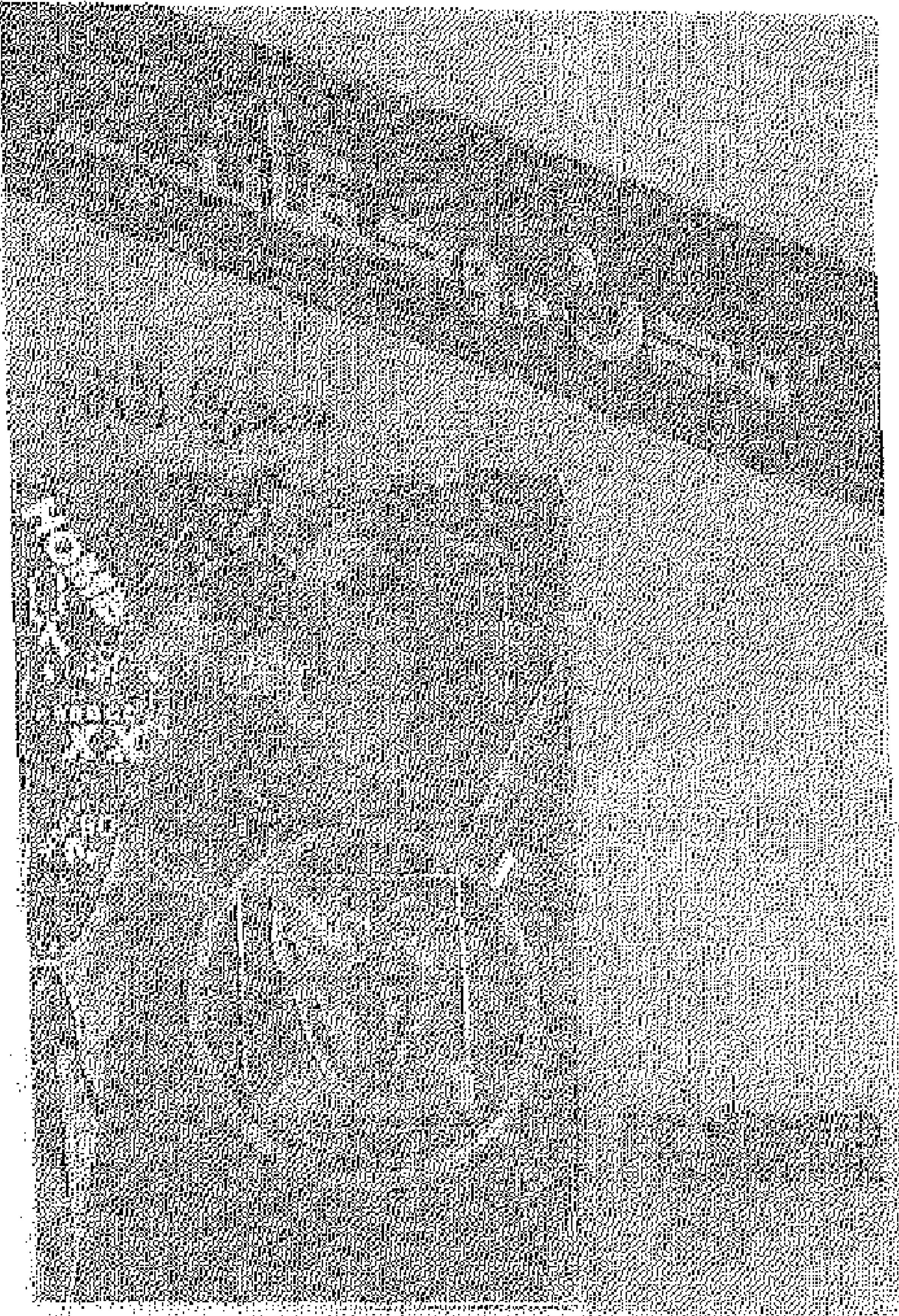
لندن ١٢/٣/١٩٩٤

اصـــدارات

مدن وحقائب

للقاص سعدي المالح صدرت عن دار (لوميروار) بمونتريال مجموعة تحت عنوان «مدن وحقائب». وهي مختارات من قصص سنوات الغربة: وقد ضمن القاص كتابه المقدمة التي كان الراوئي الكبير الراحل غائب طعمة فرمان قد كتبها لمجموعة المالح (حكايات من عنكاوا) الصادرة عام ١٩٨٧. ومما جاء في هذه المقدمة:

«فـ(عنكاوا)، من خلال حكاياته البسيطة والمعبرة والمعتمدة على التجربة أكثر منها على الخيال وأفانين الخيال ورموزاته وايماءاته المختفية وراء السطور، تبرز أمامنا كشيء واقعي معاش ومحسوس، ولا أثر للتزويق فيه ولا لتحميله أكثر مما يطيق...».



والقاص سعدي المالح المولود عام ١٩٥١ يقيم حالياً في كندا، ويصدر جريدة «المرآة» الاسبوعية. كان قد أصدر مجموعته القصصية «الظل الآخر لإنسان آخر» عام ١٩٧١، تلتها مجموعة «مدائن الشوق والغربة»، عام ١٩٧٣، وقصته الوثائقية (أبطال قلعة الشقيف)، عام ١٩٨٤، فضلاً عن مساهماته في ترجمات أدبية عديدة عن الروسية.

إيقونات عارية

عن دار (أزمنة) للنشر صدرت مجموعة سلام صادق الشعرية الموسومة (إيقونات عارية)، متضمنة سبع عشرة قصيدة. من أجوائها:

«نشحذ سكاكينها حدّ الشرور
وبذا نجزُّ أعناق المشاعر
ونتركها تصدأ
فتتدحرج في مطابخ الكلام
رؤوساً متخمة بدخان المجاعة
تُحسن العَدْوَ بكل اتجاه
حيث اشتداد العواصف
وتنقطع أنفاسها
رغم قصر المسافة
بين مستشفى الولادة
والمقبرة...
نذرت لها قوس قزح
فكانت تضحك لفوضى الحريق
ووعدتها بليلة هادئة
فأطفأت ضوءها ونامت».

الشاعر سلام صادق المولود عام ١٩٥٢، والمقيم حالياً في السويد، كان قد أصدر عام ١٩٩٢ (أحلام خاصة.. كوابيس للعموم)، ويهيء الآن لاصدار مجموعة نصوص شعرية جديدة تحت عنوان (بلاد مجنحة).

* * *

الاشتراك السنوي	المراسلات
40 دولاراً أو ما يعادلها	الثقافة الجديدة
يدفع مقدماً بشيك أو حوالة مصرفية	سوريا - دمشق
الى رقم الحساب 42- 467127	ص.ب 7122
ANI HAMED AYOUB	تلفون: 449724
Banque Libano - Francaise	فاكس: 449724
Bar Elias , Lebanon	



فكر علمي
ثقافة تقدمية

السعر خمسة دنانير